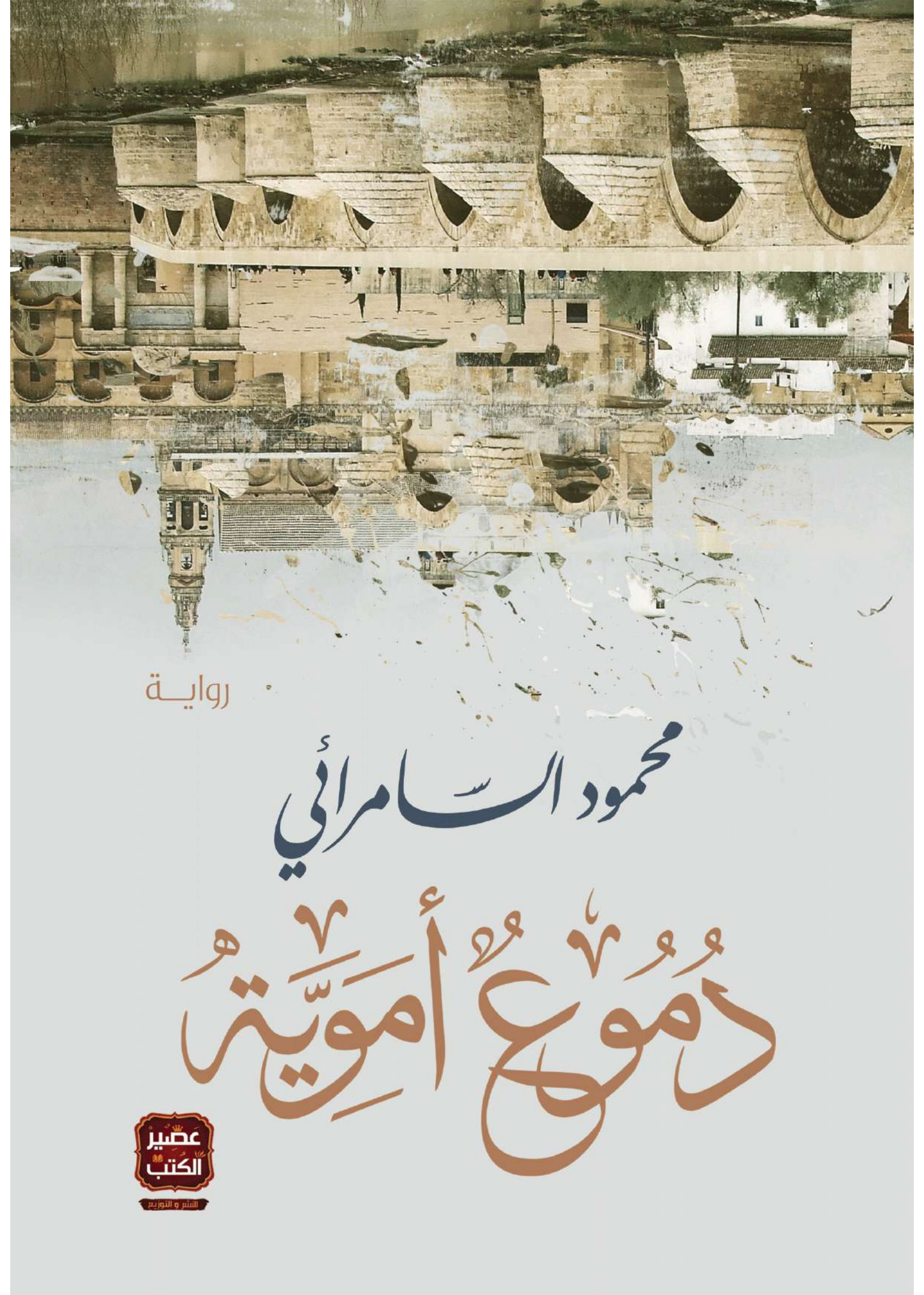

رواية
محمود السامرائي
دُمُوعٌ أُمَوِيَّة
عصير الكتب
للنشر و التوزيع


دموع أمويَّة



الكتـــــاب :دموع أموية

المـــؤلـــف :محمود رمضان السامرائي

تـدقيـق لغـوي: سلمى أشرف

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـــايـــر 2019

رقـــم الإيـــداع : 2018/27091

978-977-6542-28-0 : I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com



محمود رمضان السامرائي



الإهداء

إلى

أبي وأنتَ مؤمنٌ أنَّ الكتابةَ هبةٌ يجب أنْ لا تتوقف أو تنضب، بل تبقى دافقة كالأحلام.

والى

أمي وأنتِ دفئٌ يتسلل إلى العروق والروح، ويلف حنايا القلب أمانًا وراحةً ودعةً.

محمود



مسرح الأحداث

قنيطرة قرطبة على نهرها الكبير، ويظهر مسجدها الكبير.



مسرح الأحداث

مدينة الزهراء، وفي الصورة أطلال دارسة.



مسجد قرطبة الكبير.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ واتَّبَعوا الشَّهَوَاتِ فَسَوفَ يَلقَونَ غَيًّا﴾.

مريم(٥٩)

مُغَنيًّا كُن على أبوابِ قُرطُبةٍ

تبكي عليه قريشٌ كُلّـَما غنّى

أجود مجبل

(٥)

قرطبة ٤٠٣هـ:

«قرطبةُ أوَّلُ الزمانِ وآخره، المبتدأ والمنتهى، حاضرة الدنيا ومجمع الأضداد، الساحة والمعترك، قاعدة الخلفاء والأمراء والعلماء، وحانة الفساق والذعار، سلم الصعود إلى الذروة ومنحدر السقوط إلى الجحيم، النار والنعيم قرطبة».

أنا لم أرَ إلا بؤسها وجحيمها ومنحدرها، ما معنى أن تعيش ملكًا تهابك الدنيا وأنت لا تملك شيئًا؟ تهابك الأعداء وتعظمك الرعية وأنت لا شيء، لستُ إلا اسمًا عابرًا يذكرني الخطيب في جمعته ويدعو لي، وليته بقي على هذا الحدّ بل شاركني حتى في هذه، رغبتُهُ وطموحُهُ لا يقفانِ عند هذا، بل تجاوز أكثر من ذلك بكثير، ألم يكفه سلب ملكي، وحكم الدنيا باسمي، وتركي في قصري أسيرًا مع أهلَي وخدمي؟

ولكن أين ملكه الذي شيده بسلب ملكي؟ قد انهار كصرح كأن لم يكن، حتى مدينته وحاضرة ملكه التي قضى دهرًا في بنائها وتَشييدها وأنفقَ الأموالَ العظيمة قد خربت سريعًا، لعمري هل اعتقد يومًا أنَّ ملكه سينهار هكذا؟ لو أن الأماني تتحقق لما اخترت إلا أمنية واحدة: أن ألقاه، أن يخرج من قبره فيتمثل لي بشرًا سويًا. وأسأله: ماذا نفعك ملكك في قبرك؟ وهل أغنى عنك شيئًا؟ هل دفع عنك عذابًا

أو قرَّب جنةً؟ ثم ما شعور الإنسان عندما يذهب الناس ويتركونه وحيدًا في قبره؟ كيف أجبت عن سؤال الملكين وقد قضيتَ عمرك في طلبِ الملك! تسَلطتَ عليَّ أنا، لمَ أنا من دون الناس أجمعين؟ لمَ قضت الأقدَار أن أعيش عمري كله أسيرًا في قصرٍ كانت الدنيا تخضع له؟

ألَيسَ منَ العَجائب أنَّ مثلي

يَرَى ما قَلَّ مُمتَنعًا عَلَيه

وتُملَك باسمه الدُّنيا جميعًا

وما من ذاك شيءٌ في يَدَيه

ولكن أين العجب ومثله كان معي وطامع في ملكي؟ من حق الناس أن يعجبوا ومن حق التاريخ أن يسجلني ملكًا ذليلًا منخدعًا لم يحافظ على ملك أبيه وأجداده، ولكن إذا عرفوا صبره وحنكته واستبداده وذكاءه وحيلته في بلوغ غايته، وعرفوا ضعفي وسذاجتي وصغري لأدركوا كيف ضاع ملكي وعذروني. آه! منذ طفولتي وتهواني أفئدة الطامعين الحالمين بالملك، ولكن كلهم تضاءلوا أمامه وانكسروا وتبددوا، حتى أمي؛ أمي يا وجعًا لم أنسه، كيف انخدعتِ به أيضا؟ أهي نزوةُ الشبابِ التي أنستك ملك ولدك الذي حاولتِ فيما بعد أن تستردِيه ولكن عبثًا، «وهل يعود الزجاج بعد أن تكسرا»؟ أنت من مكنه وأدخله إليَّ، بقيتِ تعيشين في أحاديث الحبِّ ولهوه وسحره، ولم تدركِ أن هذا الحبيب الجميل الظريف سيفعل ما فعله، حاولتِ أن تصلحي ما أفسده شبابك ونزقك، ولكن هيهات أن نصلح في الكهولة ما أفسدناه في طر الشباب وعنفوانه، كانت محاولاتك كزورق صغير

حاول أن يسير في بحر متلاطم الأمواج. وهكذا سقطت ضحية شبابك، من حق النساء أن يعشقن، ولكن ليس من مثلك، أنتِ من مكنتِه مني، وما هذه الثورة الهوجاء إلا منكما، ألا تسمعين؟

أين هو وأين عظمته؟ أين أولاده؟ فليأتِ ويسمع أصوات الجنود الذين صنعهم كيف يقتلون، وكيف اقتحموا قرطبة وعاثوا فيها فسادًا، ها هم البربر يثأرون ويقتلون أهل قرطبة ونسوا الإسلام وعهوده، استمعْ إلى أصواتهم الانتقامية وهم يسفكون بلا خوف أو وجل، هكذا هي ذمة الإسلام بيد رجالك الذين اصطنعتهم؟ ويبحثون عني بكل مكان وكأن الفتن التي عصفت بهم لم يرتكبها سواي، هل نسوا أنك جعلتني صورة بلا ملك، وخليفة بلا معنى؟ أم أن السنوات العشر أنستهم؟ انظر إلى الهلاك كيف ساد قرطبة، إلى الجثث المتعفنة في أزقتها وإلى الأسواق المنهوبة والقصور الخربة، وانظر إلى المعارك المستمرة ليل نهار، حتى المكتبة لم تسلم.

بينما هو سائرٌ يُحدِّث نفسه ويمشي بلا جهة، ودون أن يحاول أن يستر نفسه من غضب الثوار البرابرة ولا من جند الخليفة الجديد، الذي يرى أن أول فريضة ليثبت ملكه هو القضاء على الخليفة السابق، ولكنه يسير بلا وعي أو إدراك أو هدى، يمشي في شوارع قرطبة وأسواقها وأربضتها وينظر إلى القتل والفتك بأهل قرطبة وهو يتحسر ويتخيل مصيره الذي سيؤول إلى هذا الحال أو أشد سوءًا، يتخيل أن أهل قرطبة إذا أسفر الصبح فسيجدون رأسه معلقًا على باب الزهراء، وأن جسده سيتعفن وربما تقطع ولن ينزل رأسه إلا بثورة أخرى كعادة السابقين.

كان قد صار فوق القنيطرة، فنظر إلى ملكه المسلوب وإلى نهر الوادي الكبير وإلى الجامع الكبير، وكان الليل قد انقلب نهارًا بفعل النيران المشتعلة في القلوب أولًا وفي كل مكان، والغوغاء الماضي في القتل والفتك والسفك، وبينما هو يعاين الخراب ويتحسر على ملكه المنهوب وينتظر أجله المحتوم؛ إذا بجندٍ أقبلوا من جهة باب الجامع، ورأى في أعينهم البربرية شرًا لامعًا متعطشًا لسفكه، وعلم أنهم عرفوه، ثم استدار إلى الجهة الأخرى هاربًا وإذا بجند المستعين تقبل نحوه وعلى رأسهم ولده، فوقف حائرًا لا يعرف ما يصنع كسائر مدة حكمه، وإذا بابن الخليفة الجديد يصيبه بسهم في كتفه بلا هوادة، وإذا بالجنود تهجم عليه، ونظر إليهم وكتفهُ مصاب ويسيل منه الدم، فأقدم على فعلةٍ جريئةٍ مجنونةٍ، وقال لنفسه: كن شجاعًا ولو لمرةٍ واحدة!

وبينما هو يهم بفعلته تراءت له الحياة كطيفٍ عابر بين الموت والحياة، بين البرابرة وجند ابن الخليفة الراكضين نحوه وبين ماضيه الغابر.

أنا الأمير هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، الذي ملك الدنيا بدون ملك، وخليفةً بلا معنى.



السِفر الأُول

(١)

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت؟

وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي

فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دمًا

ويا كبدي الحرَّا عليها تقطعي

قرطبة ٣٥٦هـ:

في تلك الحديقةِ الغنّاءِ الموسومة بالمنية المصحفية، حيث الأزهارِ الناضرة والثمارَ اليانعةَ، والأطيار المغردة والبرك الدافقة، والأصيلُ الناعم وهو يستقبل ليلَ قرطبةَ البهيج؛ كان يجلس الحاجب المصحفي القائم بدولتنا وشؤونها مع القاضي محمد بن إسحاق بن السليم، وكانا يتحدثان في شأن الدولة وعن نعمِ الله على خليفتِنا ومولانا الحكم المستنصر بالله -أعزه الله-.

فقال ابن السليم:

- سبحان الله! يعيش خمسين عامًا في ظلِ أبيه وهو ينتظر ذلك الولد إلى أن ولي الإمارة حتى جاء الولدَ، ذلكَ فضل الله يؤتيه من يشاء.

فقال المصحفي وقد ازداد جذلًا وهو يسمع ضرب الدفوف والطبول والرقص وأكل الحلوى في أحياء قرطبة بهذه المناسبة:

- ثلاثون عامًا وهو ينتظر مولانا عبد الرحمن، وها قد أتى أمتعه اللّه بالأنس وأدام دولتنا علينا، أمير المؤمنين رجل ورع، يخاف اللّه، يجاهد ويعبد، فحقيق على اللّه أن يجيب دعوته، فهذه قرطبة تعج فرحًا وابتهاجًا بهذه المناسبة العظيمة، والآن نبحث عن وكيلٍ له وكاتبٍ للسيدة صبح أمه.

فانتبه ابن السليم لجملته الأخيرة، وقال متمهلًا:

- أعرف فتىً هو أهل لهذه المهمة، صاحب مواهب متعددة، وعلم وفير، طالما نال إعجابي، وقد عمل معي فترة قد خلت، فوجدتهُ يصلح أن يكون قاضيًا لا كاتبًا، وهو أنسب من تختاره لهذه المهمة.

- وهل يحسن الكتابة؟

فقال وهو فرح:

- لن تجد أحسن منه إنشاءً وبيانًا، فهو تلميذ أبي علي القالي البغدادي، وهو أصلح رجلٍ لهذه المهمة، وقد عمل عندي كاتبًا كما أسلفت، وإن له غزلًا رقيقًا لطيفًا وأسلوبًا رصينًا متينًا.

فقال المصحفي معارضًا كعادتهِ التي يكرهها كل من عرفه:

- وما لي وما لغزله الرقيق اللطيف؟ قلتُ أريد كاتبًا للسيدة أم عبد الرحمن ووكيلًا للأمير عبد الرحمن، يتابع أعماله وضِياعه وأمواله.

فقال ابن السليم ببطءٍ متكلف:

- يا أبا الحسن، تعلم أن قصدي بأن له غزلًا لأثبتَ لك أنه شاعرٌ وكاتبٌ ماهر، يحسن الصناعتين، وقلت إن له غزلًا رقيقًا لطيفًا؛ أي يحسنه، ولم أقل لك أنه ماجنٌ لا يحسن سوى الغزل.

فقال المصحفي بعد ترددٍ:

- أرسله لي، ولكن لا أقطع لك بشيء، عمله متوقف على موافقة السيدة أم مولانا عبد الرحمن، فإن وافقت فهو المأمول، وإن لم توافق...

فقاطعه قائلًا وهو يداري فرحته بشيءٍ من الجد:

- أعرف أنك لا تقطع بشيء، فلترَه، ولسوف يعجبك، إني متأكد.

كان القاضي ابن السليم يعرف الحاجب المصحفي وبخله الذي اشتهر به، ولا يُؤخذ منه شيءٌ إلا بشق الأنفس. كان من الصعب على قرطبة أن تنسى ذلك اليوم من أيامها المعمورة، حيث كان يومًا مشهودًا، يوم وُلي مولانا الحكم الخلافة، حيث قدم له صديقه والمقرب منه جعفر بن عثمان المصحفي هديةً سخيةً تنم عن كرم فياض، إذ قدم له مئة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنةً، كاملوًا الشيكة والأسلحة منَ السيوف والرماح والدرق والتراس والقلانس الهندية، وثلاثمئة ونيف وعشرين درعًا مختلفة الأجناس، وثلاثمئة خوذة كذلك، ومئة بيضة هندية، وخمسين خوذة حبشية من حبشيات الإفرنجة، وثلاثمئة حربة إفرنجية، ومئة ترس سلطانية الجنس، وعشرة جواشن نقية مذهبة وخمسة وعشرين قرنًا مذهبًا من قرون الجاموس، فكان مشهدها فخمًا ضخمًا رائقًا رائعًا، وبعد بضعة أيام تم تعيين جعفر المصحفي حاجبًا بأمر من مولانا الحكم، وتتويجه بهذا المنصب الرفيع لم يخلُ من حسد غير قليل، فهو لم يكن صاحب مكانة تذكر ومفضلة أثيرة، عدا صحبته للحكم طبعًا.

ومعظم الناس يعزون تولي المصحفي لهذا المنصب العظيم لأنه ربيبه ورفيق عمره، وأنه فوق ذلك بخيل، ولكن الذي لا يعرفونه أنَّ المصحفي هذا صاحب مواهب عظيمة، ولكن هذه المواهب لا ترقيه

ليصبح حاجبًا قائمًا بدولة مولانا الحكم المستنصر، بل هي تصلح لأن يكون صاحب الديوان، فهو كاتب يحسن التطريز والتصنيع والتدبيج وكأنه عبد الحميد، وشاعر متقن، إضافةً إلى ثقافته الشاسعة، وهذه الصفات جعلت الحكم يرفع صديقه إلى مكان عالٍ، إذ مولانا الحكم عشّاقًا للكتب نهّامًا شغوفًا باقتنائها، وأعجبَ بالمصحفي النبه الحصيف في العلم والأدب، فقربه وصحبه، فصار مستودع أسرار الحكم، وبدت من المصحفي جلادة في حفظ الأسرار، براعة في إرضاء الحكم، ولكن مع هذه الصفات كان جبانًا، لا يحسن مَسك سيف، بخيلًا شحيحًا لا ينفق ولو كان من الدولة، والحجابة تحتاج لشجاع في اتخاذ القرارات المصيرية، وهذا خلل نخر دولة مولانا وجعلهاَ تتأرجح على حافة الهاوية، هو لا يستطيع أن يتحمل مشاهدة خروج صناديق الذهب والفضة وإنفاقها لأمرٍ لا يعد إلا نزوة من نزوات الملوك، أو هبة في لحظة أنسه.

عينان إذا اقتربتَ منهما عرفت فيهما التصميم والطموح والعناد وقوة الشخصية والشكيمة، يسير بخطىً واثقة تدل على الكبرياء والثقة بالنفس، وله فمٌ مفوّه خلق ليكون خطيبًا، وأنف أشمُّ، هو شاب مؤتَلِق الشباب، ناضر العود، بهي الطلة حلو الطلعة، معتدل القامة وسيم الوجه.

دخل الزهراء ويا ويل ما رأى عمارة وصناعة تأسر ناظريها، جمال وتفنن قل مثيله ونظيره، كيف لا ومولانا الحكم هو من أشرف عليه بنفسه؟ فلم يكن يثق والده برجل سواه حتى يجعله أمينًا على بنائها، أما ما يُحكى عن طريقة البناء وجودة الصناعة والإتقان فيكَاد يكون خيالًا، أو طيفًا عابرًا، لما آلت إليه قرطبة. ومما جذب

نظره واستوقفه وسحره ذلك الحوض الغريب وهو شيءٌ عجيبٌ، إذ تجد في أركانه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصَّع بالدُّرّ النفيس العالي على شكل أسود وتخرج الماء من فيها، فبقيَ ينظر إليه برهة وإلى جماله.

ثم راح يتهادى نحو المصحفي بعد أن أرشدوه لمكانه، وما أن وقعت عين المصحفي عليه حتى قال له وقد أصيب بدهشة:

- لم أكن أتوقعك بهذا العمر.

فأجاب على البديهة وفي لهجته احترامٌ وإجلالٌ عظيمين للحاجب:

- المرء بأصغريهِ: قلبِهِ ولسانِهِ.

فسكن تعجب المصحفي بكلمته القصيرة هذه، فقد أظهر فصاحةً وشخصيةً متفوهةً تُحسن الرد دون أن تُبهره هيبة الحاجب. فقال بتريث:

- نعم، يقال أن لك مواهب، وعقلًا راجحًا، وعلمًا.

- أنا قيدُ التجربة.

- أثنى عليك قاضينا ابن السليم، وقال أنك كاتب حاذق وماهر في فنون الإنشاء، فرشحتك لمنصب وكيل مولانا الأمير عبد الرحمن بن أمير المؤمنين الحكم أدامه الله، وكاتب السيدة أم عبد الرحمن.

- سأكون عند حسن ظنك يا سيدي.

- اذهب حيث يأخذك هذا الرجل لتراك السيدة صبح.

فخرج مع الرجل.

فقال المصحفي لنفسه: لا أعلم لماذا ينتابني شعورٌ سيء نحو هذا الفتى، ولكن أثر النجابة والنباهة بادٍ عليه. ثم قال ساخرًا: وأين أنا

وأين هو حتى أرتاب منه؟ أنا حاجب مولانا الحكم والقائم بدولته وهو فتىً يطلب العيش.

هل كان المصحفي يدرك العاقبة حتى خطر له هذا الخاطر؟

هي الأثير عند مولانا الحكم، المحببة إلى قلبه، والمستحوذة على عقله، قد هام بها حبًا وشغفًا، وبلغت مبلغًا عظيمًا عنده بعد أن ولدت له عبد الرحمن بعد أن كاد ييأس من الإنجاب، فقال فيها من شعره الرقيق يناجي سحرها:

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت

وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي

فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دمًا

ويا كبدي الحرَّى عليها تقطعي

وكيف يكون مقامها وقد قال ما قال فيها؟

وكان أجمل ما فيها تلك النظرات الساحرة التي تنفذ إلى كل قلب، لم تشرق شمس الأندلس على أجمل وأنضر وأصبح من وجهها.

كانت هذه المرأة وضَّاحة الوجه وضَّاءه، بيضاء الجسد، شقراء الشعر، تحمل الجمال البشنكجي المصقول بالترف الأندلسي، والمحفوف بالدلال الأموي ليشكل شكلًا هندسيًا بديعًا، إذا رأيتها تتألق ببسمتها حسبته الضوء المنبثق الشاق لسدرة الليل الطويلة، وزاد فوقها شبابها العشريني النضر، كانت تلبس (الوقاية) وهو عبارة عن شريط شد شعرها، وفوقها الطرحة؛ وهي عبارة عن قطعة

رقيقة من القماش المصنوع من الحرير، وتنسدل قليلًا إلى الخلف، ولها انعطاف على الوجه لتغطيه فلم تزده إلا سحرًا، وتلك الجبة الفضفاضة من الحرير الرمادي المطرزة أكمامه بالذهب، أما نعلها فقد كان مفصصًا بالدر والياقوت، وما إن دخل عليها وهو خجلٌ وجلٌ من مقامها السامي، حتى استغربت من صغر سنه فقالت له:

- ما اسمك؟

فقال دون أن ينظر إلى عينيها خوفًا ورهبةً:

- محمد بن أبي عامر المعافري.

فعجبت لصوته الذي ينم عن نفس متزنة واثقة.

فقالت:

- هل أنت من سكان قرطبة؟

- لا، أنا طالبُ علمٍ، قدمتُ من الجزيرة الخضراء.

فقالت:

- يقال أنك تحسن الإنشاء إحسانًا كبيرًا، وتحسن التدبيج والكتابة البديعة بسائر فنونها.

- طوع بنانك يا مولاتي، وما قيل عني لن يُثبت إلا بالتجربة.

فقالت بلهجةٍ وقعت في نفسه موقعًا غريبًا وأخذت الظنون تأخذ اتجاهًا آخر:

- سنجربك.

فرفع عينيه نحوها وقد تشجع فرأى جمالًا بشكنجيًا قد أخذه إلى عالم يسمو به إلى عالم آخر، تختلج النظرات، يتسمر في مكانه وهو مدهوشٌ مبغوت، لا يعلَم ماذا يقول أو يجيب على كلمتها وكيف السبيل إلى الكلام وقد سُحر.

بعد أن ارتدَّ له وعيه وعاد اتزانه الأول، قال خاضعًا بصره:

- أمر مولاتي.

- وكيف ستدير أملاك عبد الرحمن وضِياعه؟

- كما يقتضيه الواجب، سأراجع كل أملاكه، وأمضي إليها فأرى ما تحتاجه وتطلبه الحاجة، فنسارع لسد النقص والتقصير إن وُجد، ومن ثم إلى التوسيع والتطوير، وكله بعلم مولاتي وأمرها.

كان يتكلم وهي كأنها هائمة في غير مكان.

فقالت:

- افعل ما تراه حسنًا وأطلعني عليه.

ورفع رأسه مرةً أخرى ليجيبها فلجم، لما وجدها بسّامة الثغر، لا تهتم بشيءٍ إلا بشبابه الطر، وحديثه الفصيح ولهجته التي ارتبكت بعض الشيء.

ثم مستدركة:

- إذا كان من الغد فاغدُ عليَّ، وربما ستلقى أمير المؤمنين.

فرفع رأسه وهو يبتسم ابتسامة الظافر المنتصر.

فخرج من القصر وهو يتطيَّر فرحًا وابتهاجًا، هكذا تنفرج له الدنيا عند أوّل مطمح له، بل قل هو أول الطريق نحو حلمه الذي نسجه وصنعه لنفسه، بل تلك النبوءة، وما زال يكبر ويكبر حتى تجسد كاملًا في مخيلته، فمهَّد وامتطى أول الوسيلة نحو الغاية العظمى. نفسه تريد أن تطير فرحًا، فقد طال ليل الأماني وآن أن يشرق فجرها، فنفسه مضطربة ولا يأتيه النوم في الليل إلا أقله، فما إن يضع رأسه على الوسادة حتى يأتي السهاد ممتطيًا خيل الطموح

فيقض عليه مضجعه ويفزع من نومه، ويبقى ساهرًا متسهدًا يُحدث تلك اَلغاية ويخطط لها، وها هو الآن في الزهراء العظيمة.

وقف أمام قصورها الزاهية الباهرة منتشيًا برضا صبح، فقال لنفسه وهو يشم عبق الزهراء:

الزهراء أول الطريق الذي لا منتهى له، أنا من سيقلب يباسك اخضرارًا، ويقلب ليلك الذي طال بظلم الصقالبة الفتيانِ فجرًا يسوده العدل الذي لا يحيد، أما والله يا زهراء لا أرى إلا خليفةً كهلًا، وولي عهدٍ طفلًا، وجموعٌ من الطامعين، ولكن ما دام هناك رجالٌ مثلي فلن يدوم! وستتحقق النبوءة!



(٢)

الحق ما زال لامعًا ساطعًا في سماء الذين يدركون أنَّه حقٌ.

كان متربعًا بضخامته على مكتبه، مُكبًا على كتابه، مستمتعًا مستأنسًا كعادته، متعجرًا عمامته ومنسدلٌ من تحتها غفارة من حرير، كان عامة أهل قرطبة لا يستحسنون لبس العمامة، بل تجاوز ذلك إلى الفقهاء وبعض رجال الدولة، حتى أن الفقيه يحيى بن يحيى الليثي وهو من هو لم يكن يتعجر عمامته إلا لصلاة الجمعة. كانت العمامة من خصوصية الخلفاء حتى أن مولانا الحكم هذا القابع في المكتبة أمر بأن يُنادى في شوارع قرطبة (بألا يتعمم رجل لا يحمل جامع المدونة حفظًا وفقهًا) فزاد عدد المعممين في قرطبة. ولكن البربر كانوا يهتمون بلبس العمائم بإتقان كعادة أهل المشرق، ولكن تبقى العمامة في الأندلس من سمات الخلفاء والأمراء والفقهاء فحسب، أما من هم دونهم فتكون عليهم نشازًا بين الناس.

ولكنَّ الناس قد استحسنت لبس القلنسوة وهي ما يغطي الرأس من الوشي أو الخز أو الصوف أو الفراء، وكانت محببة عندهم، وكان بعضهم يلبسها مرقشة وملونة، يباهون بها العامة ورجال الدولة البسطاء، وكانوا يرتدون القميص الذي يعتبر عندهم من الألبسة الداخلية، والسراويل والأزار، والجبة وهي ثوب طويل فضفاض، يغطي الجسم كله، من على الكتفين إلى القدمين، وهو واسع الكمين، يشبه سعة كرم مولانا.

فوقف المصحفي ومعه الفتى العامري، فقال بهدوءٍ وخضوعٍ:

- السلام على أمير المؤمنين.

فرفع الرجل رأسه المُشرَب بحمرة ونظر إلى الرجلين بتفرس، فقال بصوته الجهوري:

- وعليكم السلام.

- مولاي، هذا محمد بن أبي عامر، الذي اختارته السيدة أم عبد الرحمن لوكالة مولانا عبد الرحمن حفظه الله.

فنظر بشيءٍ من التفرس إلى محمد، وقال له:

- من أي البلاد أنت، ومن أي قوم؟

فقال محمد برويَّة وأناة:

- محمد بن أبي عامر، الجزيرة الخضراء، وجدي هو عبد الملك المعافري.

فقال الحكم باسمًا:

- عبد الملك المعافري! صاحب الأثر الجميل في فتح الأندلس، (ثم أعاد جذعه ليتكئ بعد أن تفتحت الذكرى الجميلة) ولولاه هو ورفاقه لما أقمنا هذا الملك، جدك له أثر طيب في هذه الأرض، وإن شاء الله أنت مثله يكون لك أثرٌ بارز في ولدنا عبد الرحمن.

- أرجو أن أكون عند حسن ظن مولانا.

- هات ذلك الكتاب.

وكان جلوس الخليفة في غرفة من مكتبة الزهراء العظيمة، فأخذ الكتاب من الرف الذي أشار إليه الخليفة ووضعه بين يديه، فقال الخليفة:

- هذا جزء من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، مؤكد أنك لم تسمع به، فهذه النسخة الأولى من الكتاب وحجمه كبير.

فشعر محمد أن الخليفة يمتحنه، فمضى معه قائلًا:

- بلى سمعت به، ما زلنا نسمع عنه وعن موسوعته التي يكتبها في الأدب، وأن كتابه سيكون جمّاعًا لشتى فنونه وصنوفه.

فرفع رأسه نحوه وتعلوه علامة الرضا من معرفته بأبي الفرج، فقال الخليفة:

- ما زلت أبعث له الرسول بعد الرسول وأدس له المال الوفير حتى بعث لي بالنسخة الأولى منه، حتى قبل أن يظهره في بغداد، ولكن فيه كلام كبير غير صحيح عن أجدادي.

- إن التاريخ لا يطلب من كتب الأدب يا مولاي، بل غالبها في ترجمة الشاعر هذا والخطيب ذاك، وبين الشاعر هذا والخطيب ذاك تسقط الكثير من حقائق ووقائع التاريخ بدسيسة راوٍ، ونحل شاعرٍ، وما زال الرجل منا يقرأ في الكتب المعنية بهذا الشأنَ فتجدً الكثير من الكذب والزيف وهو الكتاب المختص.

- مثل ماذا؟

- مثل تأريخ الطبري، فترى ضخامته، وجهد مصنفه في جمعه وتأليفه، ولكنه لم يسلم من كثرة الموضوعات والأحاديث المختلَقة الضعيفة.

- وكيف نجد تاريخًا صحيحًا حقيقيًا؟

فقال باسمًا:

- العفو يا مولاي، ولكن من مثلكم ويملك هذه المكتبة الأثيرة هو أقدر على معرفة التاريخ الحقيقي ومنابعه.

فقال الخليفة وقد أعجبه تفرع الحديث:

- نحن نعرف التاريخ الحقيقي، ولكن أتعرف ما مشكلتنا؟

- ما هي يا مولاي؟

- المشكلة في تقبُّل التاريخ وتفسيره، كلٌّ يقنع بتاريخ يوافق أهواءه وملته، ولا ترى نحلة أو ملةً إلا وسارع أربابها والقائمون عليه بخَلق تفسير يُملوه على أتباعهم وأعوانهم وقوادهم، ويبثونه في الأمصار، ومنهم من تجاوز هذا الحد أميالًا، فخلق أحاديثَ ونسبها للنبي صلى الله عليه وسلم، كالعباسيين مثلًا؛ هذا سفاحهم قد وقف في أول خطبة له واستدل على خلافتهم من القرآن! ومنصورهم قد اختلقَ حديثًا ونسبه لرسولنا عليه الصلاة والسلام في حقهم بالخلافة، فلا يمضي الزمان إلا وجدت مكتبتنا متخمة بالروايات المختلقة الموضوعة التي لا تصح عقلًا فضلًا عن وقوعها تاريخيًا، نحن نستطيع تمييز التاريخ ولكن العلة فينا نحن الذين نميز ونحرف، ونقنع أنفسنا بتفسيرات واهية لا تنطلي إلا على السذج من أتباعنا، التاريخ معروف ولكن كيف نتصرف معه؟

- نتصرف بما يمليه الحق الذي نراه.

- وكيف نعرف أنه الحق؟

- الحق ما زال لامعًا ساطعًا في سماء الذين يدركون أنه حق.

فقام الخليفة وهو يهم بالخروج، ويقول:

- عبد الرحمن ولدي جاءني بعد الكبر وبعد أن بلغت من العمر عتيًا، أريدك أن تعتني به عنايةً كبيرة، علمت أن الوزير ابن السليم قد رشحك، وثقتي به عظيمة، والسيدة أم عبد الرحمن قد رضيت عنك، فاخترناك مع كثرة الطلاب.

- أشكر عظيم ثقتك مولاي.

ثم مضى يمشي خارجًا من المكتبة وكان أعرجًا، مخترقًا صفوف الكتب الكثيرة ولكن فرحة الخليفة هذا بطفله الذي جاءه بعد الكبر وبعد أن بلغ من العمر عتيًا لم تدم طويلًا، فسرعان ما تدهورت صحة عبد الرحمن لتصعد روحه إلى بارئها، ولتعود تلك الأحزان وحسرة الولد إلى قلب الخليفة.



(٣)

اطَّلَعَ البَدرُ من حجابه

واطَّرَدَ السَّيفُ من قرابه

وجاءنا وارث المعالي

ليُثبتَ المُلكَ في نصابه

الحزن ملاذنا الذي نلوذ به من قسوة الحياة وزمجرة الأيام وكآبتها، من يقنع الملك أن الدنيا تخضع بين يديه فلا يحزن؟ وكيف يقنع نفسه بألَّا يبقى مكفهر الوجه كاسف البال؟ ملك مملكة عريضة ودانت الممالك بين يديه خاضعةً طائعة، يقدمون له الجزية عن يد وهم صاغرون مهانون، يغزو وينتصر، ويدخل مدينتنا قرطبة العظيمة ظافرًا، ونحن نستقبله كعادة مدينتنا العريقة ونحييه، يعز ويذل، يرفع ويخفض، وكله بإشارة منه، بيده سلم الصعود إلى الذروة ومنحدر السقوط إلى الجحيم، ولكنه بقيَ حزينًا على ولده الراحل ومتوجسًا من فعل الزمان بولده القادم، والسيدة صبح فاتنة الأندلس وسيدتها تقضي ليلها مطرقةً كاسفةً ذابلةً مع دموع دائمة الانهمار، فما لبثت السيدة صبح أن حملت مرة أخرى، ولكن السعد أبعد ما يكون عن قلب مولانا الحكم، وخواطره المفزعة التي ما زالت تصليه شجنًا وحسرةً وكمدًا، وتحدثه بالمفزعات القادمات، فها هو على عتبة الستين ولم يأتِ الولد.

وقف عصرًا والشمس تميل نحو المغيب وتبعث سمرتها المذهبة على حدائق الزهراء العليلة منظرًا رائقًا ومعه المصحفي، وهو ساكنٌ لا يسمع في كلها إلا صوت خرير الماء في نافورتها.

فقال الحكم بهدوء:

- كيف السبيل إلى السعد؟ دانت لي ممالك، والأندلس هذه الأرض العظيمة تعيش في هدوءٍ وسلام ووئام، يغدو فقيرها فيتكسب وهو مطمئن سعِد، ويروحُ طالب العلم إلى مسجده ليتعلَّم ويدرس ويتفقه، الكل يعمل ويطلب العلم، فهل يوجد أفضل عيش من هذا؟ وقرطبة العامرة انظر إليها، إن العمران يدل على عظيم الشأن، ولكن عظيم الشأن هذا رجل ضعيف عاجز واهن، اقترب من الستين ولم ينجب ولي عهده ووارث ملكه العريض، فإذا مت بدأ صراع بني أمية من بعدي ضروسًا على كرسي الخلافة، وأني بهم كلهم ينتظرونِ موتي حتى إذا مت وعهدت لرجل اخترته؛ قام الكل فقالوا: لمَ اختص فلانًا دوننا ونحن أحق بالملك، وهكذا يتدخل الشيطان الذي ثقل عليه هذا الازدهار.

- أطال الله بقاءك.

- يا أبا الحسن، لكلِّ أجلٍ كتاب، وأنا متوجس خائف على هذا الملك العظيم، الذي بناه أجدادي منذ عهد الداخل أن ينهار سريعًا وبصورة مريعة، فتتحول هذه الأرض وهذه القصور الى أرض للتطاحن والتقاتل في سبيل السلطة، إني أفكر منذ أن رحل عبد الرحمن كيف ستؤول الدولة من بعدي؟ ومن يستحق أن يكون خليفةً من إخوتي وأبناء عمومتي؟ أخشى أن يتحول صراعًا للبقاء في الذروة، ولكنه سيورثهم الفناء.

- ما يراه أمير المؤمنين هو الأصلح.

- كنت أفكر في أبي رحمه اللّه وأقارن بيني وبينه، بيني وبينه بعد الثرى عن الثريا، نعم، شيّد ملكه وعظمته فمن الصعب أن أبلغ ما بلغ أو ثلثه.

- أعزك اللّه، ولكن الرعية في رخاءٍ ونعماءٍ زائدٍ منذ أن توليت الخلافة.

فمضى الخليفة يتكلم كأنه لم يسمع جملة المصحفي الأخيرة:

- عبد الرحمن الناصر قتل ولده بلا هوادة! عندما علم بخيانته، وأنا عاجزٌ عن إنجاب ولد واحد يكون وريثًا لعرشي، انظر إلى عظمة الشقة بيني وبينه، كم كانً يمتلك قلبًا شجاعًا صلبًا حتى مضى فاتكًا بولده؟ أرأيت كيف أن الفرقَ شاسعٌ واسعٌ بيني وبينه؟ وربما نهاية ملكي ستكون بعدي بقليل.

- لا تقل هذا يا مولاي، فالسيدة صبح بين ضلوعها بدر التمام، وما إن تضعه حتى يزيل حزنك وكربك.

وبينما هم يتحدثون جاء الفتى جؤذر مسرعًا، فقال:

- مولاي أبشروا، فقد وضعت السيدة صبح ولدًا!

فقال الحكم وهو يداري سروره بتعجب:

- ولد! وأخيرًا ولد، الحمد للّه.

فقال المصحفي مرتجلًا:

اطَّلَعَ البَدرُ من حجابه

واطَّرَدَ السَّيفُ من قرابه

وجاءنا وارث المعالي

ليُثبتَ المُلكَ في نصابه

بَشَّرَنا سيد البَرايا

بنعمة الله في كتابه

لو كنتُ أُعطي البشير عمري

لم أقضِ حقًّا لما أتى به

ودخلٍ على صبح ووجد الطفل بين يديها، فحمله ليجده أبيضَ أعينَ أشهلا، فقبّله برفق زال بتلك القبلة كد السنين، وانزاح عن القلبً نطع التوجس، وأذَّنً في أذنه، وحمد الله كثيرًا، ففرق الصدقات وأقيمت الموائد والاحتفالات في قرطبة بمناسبة ولادة الأمير وقد سماه هشامًا.

وهكذا يبتهج الخليفة وتتطاير أفراحه وينقلب إلى أهله مسرورًا، فقال لصبح -وكان يسميها جعفرًا أيضًا-:

- ماذا فعلت بي يا جعفر؟ أسعد الله قلبك كما أسعدتِني.

- وهو جلُّ غايتي يا مولاي.

- قد بلغتيها وتخطيتها بمراحل كبيرة.

وهكذا بين لحظة وأخرى انقلب الخليفة من حزنٍ إلى فرحٍ، وأضحت الزهراء بل قرطبة كلها في سرور وحبور، فسبحان مقلب الأمور بين آن وآن.

(٤)

يعطي الجوز من لا عنده أسنان!

سوق الورّاقين في قرطبة مختلف عن سائر أسواقها، فهو الذي يرتاده جميع أهل قرطبة رجالًا ونساءً، علماءً وعامةً، موالي وعرب وفرنجة، والسوق نشط على الدوام، فأهل قرطبة معظمهم قرَّاء، والأمية منعدمة، وبناء المكتبات عندهم فرض، فالناس على دين ملوكهم، ومولانا الحكم من أكثر الناس عناية بالمكتبات والكتب، جمع من الكتب ما لا يحد أو يعد أو يوصف كثرةً ونفاسةً حتى إنها كانت -فيما يقال- أكثر من أربعمئة ألف مجلد، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلًا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذَّات الملوك، فاستوسع علمه ودقَّ نظره وجمَّت استفادته وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب الشيء العظيم، يقضي وقته في مكتبته العظيمة، أما عن المكتبات الكبيرة العامة والخاصة فشيءٍ يدعو للإعجاب.

في هذا الدكان يقطن معمر الورَّاق، من أحذق الناس في هذه المهنة وأبرعهم، وما زال بارعًا في صنعته إلى أن تم توظيفه في المكتبة الأموية بالزهراء، وجمعته معرفةٌ بأمير المؤمنين الحكم، وما زال معجبًا بالحكم وسعة اطلاعه، وخصه الحكم ورفعه في مكتبة القصر، وصار من أشهر أمناء المكتبة وهي التي يجلس فيها مولانا كثيرًا، ومع الرفعة والمرتبة التي بلغها معمر بين أهل صنعته إلا أنه

بقي في سوق الوراقين، إذ يبقى أبوه البالغ من العمر ستين ومعه صانع، إلى أن يأتي معمرًا من عمله في الزهراء.

ودخل معمر إلى دكانه، وقال لأبيه:

- وصلت إلى مكتبة القصر كتب جديدة من المشرق.

فقال الأب في فضولٍ ثقافيٍ لذيذ:

- حقًا؟ وما هي؟

- كتبٌ جديدة لم تعرض حتى في المشرق، وواحدٌ منها كبير، أكثر من عشرين مجلدًا، عنوانه (الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني)، وهو موسوعةٌ في تراجم الشعراء، ونسخته الأولى وصلتنا إلى القصر.

- النسخة الأولى؟! قبل بغداد!

- نعم، إنه الحكم يا أبتِ.

- وفي رأيك كم دفع له الحكم حتى وصل؟

- الله أعلم، لا بدَّ أنه أنفق مالًا كبيرًا، وهو سخيٌّ في هذه الأمور، يقضي شطرًا من يومه في المكتبة يقرأ بلا كلل، ويتصفح بلا ملل، وكأن عمله في المكتبة، ومع هذا دولتنا عامرة، نفاخر بها أهل المشرق.

فقال الأب باسمًا:

- بغداد؟ ظلمت قرطبة إذا قستها ببغداد، بغداد الآن مشتعلةٌ في صراعٍ دائمٍ لا تكاد تجمعها كلمة، رحم الله أيامها.

- صدقت.

- عدت اليوم مبكرًا.

- الاحتفالات ما زالت مستمرةً بمناسبة ولادة هشام، فلا عمل عندنا.

- وهل فرح الخليفة بالمولود؟

- وكيف لا يفرح؟ لا تكاد تسعه الدنيا فرحًا.

- أسعده اللّٰه.

ثم كمن تذكر شيئًا، فقال:

- رأيت الفتى العامري، محمد، هذا الذي يشتري منّا.

- هذا الفتى العامري النبه؟

- نعم، وعلمتُ أنه تم ترفيعه وأصبح صاحب السكة!

- السكة؟

- نعم يا أبتِ.

- وأنت منذ سنين تعمل في تلك المكتبة ولم يزد مرتبك إلا قليلًا، وأهل صنعتك لك حاسدون.

- الحمد للّٰه على كل حال.

وجاء رجلٌ يطلب كتابًا منذ مدة، فقال معمر:

- هذا هو الكتاب قد وصل، وهو بخطٍ جيد وتجليدٍ مليحٍ ظريف.

فتبسمت أساريره، وقال بفرح:

- وأخيرًا! ما أجمله!

- هو لك، وأنت تستحقه، ولكن ثمنه ليس قليلًا.

- بكم؟

- خمسة عشر دينارًا.

- ماذا؟ خمسة عشر؟ هذا كثير.

- الكتاب قيِّم، وهذا سعره.

- سأدفع لك ثمانية دنانير.

- لا، هذا قليل، هات أربعة عشر دينارًا.

- كثيرٌ جدًا، يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب ويأخذه منك بهذا الثمن.

وجاء رجلٌ عليه لباس الرياسة، فقال:

- أنا أشتريه بعشرين دينارًا.

فقال معمر للرجل الذي كان يعامله:

- زد عليه.

فقال بعد تردد:

- اثنان وعشرون دينارًا.

فقال الآخر:

- ثلاثون دينارًا.

فقال معمر للرجل:

- زد.

فقال:

- واحد وثلاثون.

فقال الرجل الآخر:

- خمسون دينارًا.

فلم يستطع الرجل الذي كان يعامل أن يزيد، وقال للرجل الآخر مستسلمًا:

- أعز الله سيدنا الفقيه إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده.

فأجابه:

- لست بفقيه ولا أدري ما فيه ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبالِ بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير.

فغضب الرجل، وقال بغضب:

- نعم، لا يكون الرزق كثيرًا إلا عند مثلك، يعطي الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلًا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه.

ثم مضى الرجل ساخطًا ناقمًا، ودفع الآخر ثمنه.

فضحك معمر وقال: يعطي الجوز من لا عنده أسنان! ولكنها تجارة.



- يا أبا عامر أريدك أن تعتني بهشام عنايةً خاصة، فهو المرشح لمنصب الخلافة كما تعلم، فضع في بالك أنك لا تُعَلِّم فتىً في الرابعة من عمره، بل أميرٌ سيحكم أصقاع هذه الأرض، أريده أن ينشأ على حبِّ الكتاب، وحفظ القرآن والشعر وتاريخ أجداده، لا أريد أن ينظر إلى الحياة من هنا، من قصره المنيف، بل أريده أن يكون في البادية يسمع زهيرًا ولبيدًا وامرأ القيس، أريده يبكي لبُؤس الجائعين وكأنه لم يلد في هذه المدينة العريقة، أريده أن يكون عالمًا حصيفًا ملمًا بتاريخ عائلته، حتى إذا توسد الحكم تراءى له عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد وجده هشام وصقر قريش وأبي ينظرون إليه من مكانٍ قصي ويراقبون عمله، وينتظرون منه الإجادة وبلوغ الغاية التي كرسوا حياتهم لها، حتى إذا صار سلطانًا عرف وقبض على زمام السياسة ومخالبها، فيمحق أعداءه كصقر قريش ويحطمهم تحطيمًا، وإذا نظر إلى شعبه عطف عليه وكأنه عمر بن عبد العزيز وإذا اشتد فكأنه هشام بن عبد الملك، أما إذا أراد العمران فكأنه أبي رحمه الله، أريد أن ينتابه الشعور بعظمة الملك، حتى يبني أعظم من الزهراء.

فنظر إلى الزهراء وعظمتها نظرة فخرٍ وشموخ وقال:

كان أبي رحمه الله يدرك عظمة العمران، حتى أنه كان يتمثل بهذه الأبيات كثيرًا والتي أريد أن يؤمن بها هشام يا أبا عامر:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيانِ

أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم

مُلك محاه حوادث الأزمانِ

إنَّ البناء إذا تعاظم شأنه

أضحى يدل على عظيم الشانِ

أريد عهده مكملًا لعهدي فهل عرفت مقصدي وغايتي؟

فقال ابن أبي عامر:

- لأمير المؤمنين ما يشاء، ونحن ندرك بأعماق أنفسنا أن هذا من أوجب الواجبات، فتعليم هشام أصول الملك وتجهيزه لمنصب الخليفة هو من الواجب، ومن لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فقال وقد اطمئن لابن أبي عامر كعادته:

- قد جربنا كياستك وفطنتك، وأنت عندنا عزيز مكين، بعد أن رأينا بلاءك ونجابتك وحكمتك، وقد ادخرتك لهذه المهمة العظيمة، مهمة تعليم هشام، فأنت وكيله.

- أنا في خدمة مولاي هشام.

فقال الخليفة مستدركًا:

- وقد أثنت أم هشام عليك وعلى عملك.

- أنا في خدمة مولاتي.

ويمضي الخليفة يخترق الحديقة مع ابن أبي عامر وقد ازداد ضعفًا وهرمًا، وهو يحاول توطيد ملكه قبل أن يأتي الأجل، كل عملٍ يقوم به يتذكر والده، ذلك الملك العظيم.



(٥)

إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء.

كان والد مولانا الحكم المستنصر -أعزه الله وأدام أيامه- هو عبد الرحمن الناصر، كان سيفًا صقيلًا لامعًا، يراه الأعداء قاطعًا فيصلًا، يفل جيوشهم ويقسم شملهم، ويحل خلافهم، وأما رعيته فلا يرون منه إلا لمعانه وانعكاسًا لصورتهم وصورة الإسلام، فهو شديدٌ على الكفار رحيمٌ على المؤمنين، آية مجد بني أمية وغرة دولتهم الميمونة، حمل نجابةً وذكاءً مما جعله يلج الخلافة بوجود أعمامه، كان شديدًا بلا ظلم، حازمًا بلا جور، عادلا فاتحًا ظافرًا، ورأت دولتنا في عهده من المجد غايته، ومن العز تمامه، ومن السلطان والحضارة ما فاقت به بغداد وما حولها، يبكي بكلمة من منذر بن سعيد وهو الذي لم يرَ الأعداء إلا حسامه القسّام. علِم الناصر أن دولة بني العباس نحو الانحدار والانهيار، ودولته في ذروة المجد والازدهار، فأقدم على فعل ما وجل منه صقر قريش؛ إعلان الخلافة في الأندلس. لم يكن يهتم بشيء كاهتمامه بالبنيان والعمران وأبهة السلطان، هذا جانب ظفره الميمون الذي فرضه على الممالك والدول، فلم يبق ملك إلا وطلب الهدنة، ومنهم ملك القسطنطينية الأعظم، فانتشى الناصر، وهشَّ وبشَّ لهذا الخبر وشعر كأن الدنيا راكعة خاضعة بين يديه، يملكها بيديه يصرفها كيف يشاء، فإذا شاء عذب أو أنعم، عفا أو عاقب، رفع أو أخضع، يقيم ويبيد كيف يشاء، وراية

مملكته خفاقة فوق هذه الأراضي الشاسعة والأصقاع المترامية التي لا تكاد تحدها حدود، تشهد كلها بما بلغ له من عظمة سلطان، فقال لولده الحكم وكان قد عينه وليًا لعهده ووريثًا لعرشه:

- القسطنطينية تعتبر قلب أوروبا، وبخضوعهم لنا يعني أننا أحكمنا القبض على دفتي العالم في أوروبا.

فقال الحكم منتشيًا ومتحمسًا:

- ولن نقنع يا مولاي إلا بأوروبا كلها، وخيرهم لا يراك إلا وهو راكع خاضع.

فقال الناصر باسمًا:

- ربما لن ألحق أن أرى ذلك اليوم (ثم ربت على كتفيه)، لكل أجل كتاب، وأنا لن أخلد أبد الدهر، وقد صنعتك لتكمل ما بدأه أجدادك من قبل، منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في المشرق وصقر قريش في الأندلس إلى يومنا هذا، فضع هذه الغاية نصب عينيك، واسعَ لها، واجعل غايتك عظيمة كمجد دولتنا، فإن لم تحقق الغاية العظيمة فقد قطعت معظم الطريق نحوها، ضع عينيك نحو القمر، فإن لم تصله ولم تهتد إليه فستجد نفسك بين النجوم، واقترب من الرعية اقتراب الأَب العطوف، واحنن عليهم حنان القادر الرؤوف؛ لا الخائف، واجعلهم يُجلونك ويهابونك حبًا لا خوفًا، فلا خير في السلطان إن لم يحبه رعيته، وكن كما قال معاوية رحمه الله: «بيني وبين الناس شعرة لا تنقطع؛ إذا شدّوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت». فهؤلاء الرعية هم عدتك التي تعتد بها، وسهمك الذي تضربه، ويدك التي تبطش بها، وهم أبناؤك، وكلهم منتظرون عطفك وأمرك، فيفدونك بأرواحهم وهم فرحون.

- أطال الله بقاءك يا أبتِ.

- وغدًا سيصل الوفد، وأريد أن تَعُد خطيبًا مصقعًا بليغًا مفوهًا يَؤُمُّ الشعراء والبلغاء، نباهي به العالم، فكما تعلم فإنَّ أبا علي القالي ضيفنا، وهو بحرُ اللغة، أريد خطيبًا يجعل أبا علي يبقى مشدوهًا مبهوتًا، يشيد بعظمة ملكنا وما بلغت الأندلس.

- هو موجود يا أبتاه.

- ومن ذا؟

فقال الحكم وفي لهجته فخر:

- الفقيه البليغ محمد بن عبد البر الكسنياني، فهو يتيم دهره وبليغ عصره، ويحسن تأليف الكلام ونسج الخطب ما لا يحسنه أحد غيره في المعمورة كلها، عقل فقيه، وقلم أديب بليغ، وفم خطيب مفوه، لا يقارعه أحد، وأنا أعده لمثل هذه المناسبات.

- قد أكثرت الثناء والإطراء.

- لم أزد إلا ما يستحقه.

مُرْه أن يستعد غدًا.

وفي اليوم التالي استعدت قرطبة للاستقبال المهيب لذلك الوفد المنتظر، وقد بعث الناصر طلائعًا من وزرائه وقواده يستقبلونهم، فجلس الناصر مجلسًا مهيبًا يدل على عظمته، وعن يمينه وليُّ العهد الحكم ثم سائر أولاده ووزرائه يمينًا وشمالاً، ثم الشعراءَ والعلماء، ودخل رسل ملك الروم قسطنطين بن ليون وهم متعجبون من عظمة الملك والبنيان، ودخلوا حاملين كتاب ملكهم في رق مكتوب بالذهب، وقد نعت في الكتاب الناصر بقوله:

(عظيم الاستحقاق، المفخر شريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس؛ أطال الله بقاءه)

ووسط تلك الفخامة، وقد سحر الحضور هذه الأبهة جاء دور الخطيب المصقع؛ الذي سيشنف الأسماع ويسحر الألباب بخطبته، فقام الفقيه محمد بن عبد البر يتخطى الناس بتؤدة، إلى أن وقف في المقام المخصص لإلقاء الخطبة، ونظر إلى الجموع من علٍ، رأى أمير المؤمنين عبد الرحمن وأولاده ورجال الدولة، وتجلت له عظمة الخلافة وأبهتها، وسرت في نفسه قشعريرة من مقام أمير المؤمنين، وفي تلك اللحظة والكل منتظرٌ كلمته؛ تفحص الوجوه ومنها أمام اللغة القالي، فأراد أن يحرك شفته فعجز، وارتج عليه، وشعر أن مداد الكلمات بين فيه وجوفه قد انقطع وضربات قلبه قد ازدادت دقًا حزنًا على ذلك المداد المنقطع، وبدا كصوفي تجلى له نور الإله عندما يخرج من عالم الماديات لعالم السماوات، وأمير المؤمنين توجس من سكوته وشحوب وجهه، وتهامس الحضور فخرَّ صعقًا مغشيًا عليه!

وأسرع الخدم وحملوه فصار الكل يتهامس، ونظر الناصر لولده الحكم نظرة عتاب في غير أوانه، وإدرك الناصر أن عليه أن يتلافى الموقف، فقال بهدوء ولهجته لم تخلُ من عظمةٍ وكأن شيئًا لم يحصل:

- أبا علي القالي! قم واخطب.

فقام بحر اللغة المشرقي المفوه وصعد، وإذا به يصدم من عظمة المكان هو الآخر، ولكنه مضى يحمد الله ويصلي على رسوله المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، وما أن قال أما بعد حتى ارتج عليه وانقطع مداد الكلمات وبقي واقفا لا ينبس ببنت شفة!

فشعر الناصر كأن جيوش روما كلها واقفة تهزأ به وتسخر منه، هو الذي انتصر وظفر، وماج بالأعداء وما انكسر؛ يعجز أن يقف

خطيبٌ أمامه؟ هل من المعقول أن عظمته بلغت هذا الحد؟؟ لم يعد يقدر أحدٌ أن يقف أمامه؟ هل هو قاس إلى هذا الحد؟ هل هيبته تحولت إلى أسد شاك السلاح يرعب كًل من وقف؟ ولكنه أبو علي، مشرقي وهو ضيف، فَلمَ هو خائف؟

وقطع تساؤلاته نهوض رجلٍ لا يبدو عليه هيئة الفقيه المتبحر أو الخطيب، فارتقى مكان أبي علًي، وقال دون تفكر أو تمهل:

أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدًي ملك عظيم، فاصغوا إلّي، معشر الملأ بأسماعكم، والقنوا عني بأفئدتكم، إًن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بصافته وأسمائه، أمر كليمه موسى، سلام الله على نبينا وعلى جميع أنبيائه، أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمَّنت سربكم، ورفعت فرقكم، ألم تكن بلاد المسلمين خرابًا فعمرها؟ وثغور المسلمين مهتضمةً فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامتكم، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يدًا على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم، وصارت وفود الروم وافدةً عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمةً إليه وإليكم، يأتونٍ من كل فج عميق، وبلد سحيقٍ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلًا ليقضي الله أمرا كان مفعولًا (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأٍ مستقر

ولكل أجل كتاب، فاحمدوا اللّه أيها الناس على آلائه واسألوه المزيد من نعمائه)

ونزل والناس كلهم يتحدثون عن بلاغة كلامه، وكان الناصر أشدهم، فمال على الحكم وقال له:

- من هذا الفقيه البليغ؟

- هذا منذر بن سعيد البلوطي.

- لقد أحسن ما شاء اللّه، فلئن كان حَبّر خطبته وأعدها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهي فإنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة فإنه لأعجب وأغرب. ولئن أخرني اللّه بعد لارفعنَّ من ذكره، فضع يدك يا حكم عليه، واستخلصه وذكرني بشأنه فما للصنيعة مذهب عنه.

كان الناصر بصيرًا بالرجال، يعرف مقامهم، وينزلهم -بفطنته- منازلهم، ولم يغب أمر منذر بن سعيد عنه، خاصة بعد أن أنشد منذرًا بعد خطبته تلك:

مقالٌ كحد السيف وسط المحافل

فرقتُ به ما بين حقٍ وباطلِ

بقلبٍ ذكيٍ ترتمي جنباتُهُ

كبارق رعدٍ عند رعشِ الأناملِ

فأعجب الناصر وقال لولده الحكم: حقٌ له أن يتفاخر.

وسرعان ما عينه أمام المسجد الجامع بالزهراء، ثم ولاه منصب (قاضي الجماعة) بقرطبة. كان الناصر جبارًا فتاكًا ولكنه سرعان

ما ينقلب بين يدي منذر بن سعيد فقير أسيف، أضعف من العليل إذا احتضر، وأرق من الشعرة في رأس الأصلع، من ذاك موقف القاضي منذر عندما بنى الناصر الزهراء.

كان الناصر مولع بالعمارة، لا تكتمل هيبته وسطوته إلا بها، وعندما زادت الانتصارات وعلت رايات دولته في الآفاق الشاسعة ترفرف في كبرياء، وكأنها تقول: ها أنا فمن ينازلني؟

كانت الدولة على عهده قد قسمت الخزينة إلى ثلاثة أقسام: ثلث للجند، وثلث للبناء، وثلث للجباية، وكانت جباية الأندلس آنئذ من القرى والكُوَر: خمسة آلاف ألف وأربعمئة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق سبعمئة ألف وخمسة وستين ألف دينار، وأما أخماس الغنائم وأموال الذين يموتون ولا وارث لهم فهذا ما لا يحصيه ديوان أو يعده كاتب، فمضى الناصر يفكر في إنشاء شيء يخلد ذكره أبدَ الدهر، واتفق إن ماتت له سُرّيّة، وتركت له مالًا كثيرًا وفيرًا، فقال لولده الحكم: فلنفك بها أسرى المسلمين.

ومضوا يبحثون عن أسرى المسلمين فلم يعثروا على أسير واحد، ووصل الخبر له وهو في حجرة جاريته المحببة لقلبه (الزهراء)، فسجد لله شكرًا وحمدًا فقالت له الزهراء وهي تتغنج وتتدلل:

- أرأيت يا مولاي كم هو وجهي حسن عليك؟

- رأيت يا زهراء، اطلبي ما شئتِ وسيأتيك.

فقالت بدلال:

- ألم تكن تريد بناء مدينة ملوكية لك؟

فعادت به إلى حلمه الذي لا يفارقه، وقال وفي نفسه لوعة وحسرة لتلك الغاية:

- أجل يا زهراء، لطالما رجوت أن يمنحني الله ويطيل عمري حتى أبدأ بناء تلك المدينة، ولا أخفيك سرًا، فإن القصر صار مزدحمًا، وضاقت قرطبة بما رحبت، أَريد بناء مدينة مخصصة للإمارة.

- وهذا المال بين يديك.

- ماذا تعنين؟

- اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي، وتكون خاصة لي.

فاطرق مفكرًا، ثم قال:

- لكِ ما شئتِ.

والحق أن فكرة بناء مدينة ملوكية له قد استوت في ذهنه منذ زمن غير قليل، ولكنه احتاج إلى شرارة الانطلاق، وإذا بها تأتي من الزهراء، فشرع بهذا البناء على جبل خارج قرطبة، تبعد عنها أميالاً، وبدأ بناءها في الأول من محرم عام ثلاثمئة وخمس وعشرين للهجرة، وكان يعمل فيها يوميًا من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخمسمئة دابة، وكان يصرف يوميًا فيها من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة عدا الآجر والصخر غير المعدل. وجعل طولها من الشرق إلى الغرب تسعمئة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع، وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية، والأخضر من أفريقيا، والحوض المنقوش المذهب من الشام، وفيه نقوش وتماثيل على صور الإنسان، فأمر الناصر بنصبه وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، ونصب عليه إثني عشر تمثالاً، وبنى قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة، وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه الصافي لونه المتلونة أجناسه، وكانت حيطان المجلس مثل ذلك، وكانت قراميد هذا القصر من الذهب والفضة،

وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار. ففرغوا من بناء القصر والمسجد واجهة الدولة، واستمر العمل في باقي الزهراء أمدًا طويلًا، وكان القصر متناهيًا في الجلالة والفخامة والضخامة، إذ صار أعجوبة الزمان، وخاصةً تلك القناة العجيبة التي يجري فيها الماء العذب من جبل قرطبة، فكانت نافورة عظيمة عليها الأسد العظيم المطلي بالذهب والذي يسيل الماء العذب من فيه، فيبهر ويسحر الناظر وتسقى من فيه جنان هذا القصر على سعتها.

وبدأت الصلاة في المسجد عام ثلاثمئة وثمانٍ وعشرين للهجرة، ولكنه قطع شهود الجمعة فيه مرارًا لأغراض التعمير، وبعد انقطاع ثلاثة جمع متتابعة حضر الناصر، فقام منذر بن سعيد خطيبًا، فافتتح خطبته بقوله:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فـ ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾، وهي دار القرار ومكان الجزاء.

ومضى يذم تشييد البنيان إلى أن قرأ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم ذكر هادم اللذات والآخرة مستشهدًا بالقرآن إلى أن خشع القوم فرقوا واعترفوا وبكوا، وبكى الناصر خوفًا ورهبانية من الله بعد أن استشعر أن زخرف الزهراء يكاد يهوي به في جرفٍ هاوٍ خاوٍ في جهنم، وتراءت له عظمة ملكه هباءً أمام ذكر

الموت الآتي لا محالة، فلمَ يعمر هذا وهو سيسكن بذاك؟ ومضى كلامٍ منذر كالصواعق المنذرة والشهب الحارقة حتى انقلب المسجد مأتمًا لشدة النحيب والنشيج.

وما إن عاد الناصر إلى قصره حتى وثب إلى رشده، وقال لولده الحكم:

- واللّه لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عني بها غيري، فأسرف عليَّ وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني، فواللّه الذي لا إله إلا هو لن أصلي بعدُ خلفه، بل في قرطبة.

- فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كرهته؟

- صه! أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه -لا أم لك- يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأَستحي من اللّه ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر بن سعيد في وَرَعه وصدقه، (ثم تابع بلهجة كسيرة) ولكنه أحرجني، ولوددتَ أَنَي أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء اللّه تعالى، فما أظننا نعتاض منه أبدًا.

- يا أمير المؤمنين، إنه رجل صالح، وما أراد إلا خيرًا، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك.

فوجد الناصر ردّ الحكم ينسجم مع هوى نفسه، فأمر المتابعة في البناء!

وأصيبت الأندلس عامًا في خلافة الناصر قحطًا وجدبًا، فعزم الناصر على صلاة الاستسقاء، وقال لعماله: أعلنوا أن الصلاة

ستكون بعد خمسة أيام، فليصوموا وليصلوا وليدعوا الله، فقد كثرت ذنوبنا، واذهب إلى منذر بن سعيد، وقل له: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تصلي بنا.

فاستغفر الناس وتابوا وصاموا، وذهب رسول الناصر إلى منذر بن سعيد وأبلغه أمر أمير المؤمنين.

فقال منذر:

- ليت شعري، ما الذي يصنعه الخليفة أمير المؤمنين؟

- ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا، إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لابس أخسّ الثياب، مفترش التراب، وقد رَمّدَ به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟ لن يفوتك شيء مني.

فتبسم منذر ولاحت البشرى في وجهه، وقال وهو بسام الثغر:

- يا غلام احمل المطر معك فقد أذن الله بالسُّقيا، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء.

فسقاهم الله كما قال منذر.

على أن الناصر بقي عشاقًا للعمارة والفخر، فقال يومًا لوزرائه وخاصته وقد جلس بمجلسه الذي جعل سقفه ذهبًا وفضة، فقال الناصر مفاخرًا:

- هل رأيتم أو سمعتم ملكًا كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه؟

- لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك لأوحد في شأنك كله وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره.

فعلت ضحكات مولانا الناصر مجلجلةً بهجةً وسرورًا، وبينما هو مستمر في سروره وجذله دخل منذر بن سعيد، وتابع عبد الرحمن سعده وفخره بسقف مجلسه المذهب، ولم يقطع فرحه إلا تغير وجه منذر، إذ سرعان ما اصفرَّ وجهه وعلاه كرب وقتر، وسرعان ما بدأ يذرف الدموع، فقال الناصر:

- ما بك يا قاضينا؟

فقال بلهجة تقطر حزنًا وكمدًا:

- والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادة هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضَّلك به على العالمين، حتى ينزلك منزل منازل الكافرين.

فهب أمير المؤمنين قائمًا وقام الحضور كلهم معه وأمارات الغضب قد لاحت في وجهه، وقال ساخطًا ناقمًا عليه:

- ويحك يا بن سعيد! أمثلي يقال له هذا الكلام؟ إنما هذا قول حاقد لا ناقد، انظر ما تقول! وكيف أنزلتني منزلتهم؟

فلم يقم منذر مع القائمين ولم تتغير لهجته، بل بقي قاعدًا والناصرُ ورهطُهُ قائمون، فقال بنفس اللهجة السابقة:

- نعم، أليس الله تعالى يقول ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً واحدةً لَّجَعَلنا لِمَن يَكۡفُرُ بالرَّحۡمنِ لِبُيُوتهم سُقُفًا من فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيها يظهرونَ﴾.

فكانت الآية مطرقةً توقظ الناصر من سباته وحلمه الشغفي بالعمارة والبنيان، فكانت الآية سكينة ووقارًا امتصت غضبه، وسرعان ما سالت دموعه خشية من الله وخوفًا، وتقدم إلى منذر بخطى وئيدة، فقال له:

- جزاك الله يا قاض عنا وعن نفسك خيرًا وعن الدين والمسلمين أجلَّ جزاءه، وكثر في الناس من أمثالك، فالذي قلت هو الحق.

ثم عاد إلى مجلسه وهو يردد: أستغفر الله، أستغفر الله.

ثم أمر بإزالة الذهب والفضة.

(٦)

تَعَلَّم العربيَّةَ فإنها تثبتُ العقل وتزيدُ في المروءة.

منذ الصباح الباكر يدخل محمد ابن أبي عامر إلى قصر الروضة وهو يريد أخذ هشام إلى أول يوم في التعليم، بعد أن جهز ابن أبي عامر المعلمين والمؤدبين فاختار أحذقهم وأمهرهم لتعليمه القرآن والفقه والأدب والتاريخ.

وأتت السيدة صبح بأناقتها الساحرة، وزينتها الباهرة، فقالت:

- هو في ذمتك، ولن أخشى عليه ما دام بين يديك يا أبا عامر.

- فلتطمئن مولاتي عليه، غاية أمير المؤمنين ثم رضاكِ هو من يحفزنا على الإجادة والمضي في خدمة مولاي هشام.

فقالت باسمة:

- وأنا مطمئنة كل الاطمئنان.

فقال وعلى ثغره البسمة التي تخور كل قواها عندما يبتسمها:

- سنؤدبه أدبًا ملوكيًا (ثم يغمزها): لملك الغد.

فقالت بصوت خفيض هو أقرب للهمس:

- ما زال أمامنا طريق طويل حتى تتجسد هذه الغاية حقيقة.

- صدقيني ستكون حقيقة، تمهلي وزيدي من (ثم يخفض صوته): الهمس اللطيف في أذن مولانا الحكم.

- وهل كففتُ لحظة عن الهمس اللطيف؟ ما زلت أجهد نفسي في الرقة لعلنا نبلغ مأربنا الذي نرجوه.

- وسنبلغه لا تستعجلي، وكله فداءً لمولانا هشام.

فمسك بخدي الطفل الذي لم يبلغ السادسة بعد برقة، وقبله وهو يقول: هذا الأسد سيحكم المشرقين، لن يقتنع بالأندلس والمغرب، بل ستخفق راياته فوق بغداد وسامراء ودمشق والقاهرة.

ثم خرج به إلى الدار التي يتلقى دروسه في الزهراء، كان مكانًا شاسعًا وفيه مناضد فخمة للدرس، ووجد مجموعة من الأولاد الذين أوتي بهم لتلقي الدروس مع الأمير كي لا يمل أو يضجر، وكان الأولاد قد اختارهم ابن أبي عامر بعناية، فكانوا كلهم ممن توسم بهم النجابة والنبوغ ومن أبناء الوزراء والأمراء وسادة الموالي، إلا واحدًا من العامة وهو هشام بن معمر الوراق، الذي ولد بنفس اليوم الذي ولد فيه هشام، فسمي على اسمه، ولما علم الخليفة فرح جدًا، واختاره ربيبًا لهشام، فكان يأتي إلى القصر بين الفينة والأخرى في صحبة أبيه ويسمح له باللعب مع هشام، وطلب الحكم نفسه من أبي عامر أن يضمه إلى الصبية الذين سيدرسون مع هشام.

وكان الشيخ قد حضر مبكرًا، فجلسوا وجلس ابن أبي عامر هذه المرة معهم يراقب الأمير عن كثبٍ.

ومضت الأيام ولكن الأمير هشام لم يبد نجابةً وفهمًا كما كان يأمل الحكم وابن أبي عامر، فكان همًا جديدًا لقلب الخليفة العجوز.

قلق الخليفة الحكم عندما لم يبد ولده هشام ذكاءً في التعليم، ولهشام مع معلميه قصصٌ وحوادثُ لم تصل إلى أمير المؤمنين

تلافاها ابن أبي عامر بحنكته، فقد جاء هشام درس الشعر ذات يوم وكان النساخون قد نسخوا الأشعار التي ارتأى المعلم تدريسها لهشّام، فقال له المعلم: اقرأ القصيدة الأولى جيدًا يا هشام قبل أن تحضر الدرس، وفي اليوم التالي وقبل أن يبدأ المعلم الشرح سأله هشام قائلاً:

- شيخي ما معنى (الكموج)؟

فتوقف المعلم برهة؛ ثم عبس وبسر، وقال لنفسه: من أين أتى بهذه الكلمة التي لم أسمع بها؟ وماذا عساي أن أقول لابن أبي عامر إن علم جهلي بأسئلة الأمير؟ حتمًا سيطردني، قاتل الله الجهل، ثم حاول أن يبدد خوفه من سؤال الأمير، وقال وقد خُضِبَ وجهه حمرة:

- وأين قرأت هذه الكلمة يا هشام؟

فقال هشام:

- في قول الشاعر امرئ القيس (وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله...)، ألم تقل أمس: اقرأ القصيدة جيدًا؟ فما معنى الكموج؟

فثار المعلم وفار، وكاد يصفع هشامًا لغبائه ولكنه كظم غيظه، وقال باسمًا وفي طيها ساخرًا:

- (الكموج) حمار يقرأ ولا يفهم.

فندت من التلاميذ ضحكات مجلجلة، فقال المعلم حازمًا: سكوت.

ولم يقف عند هذا الحد، بل كان يقرأ كلمات خطأً ويحفظها ثم يصر على الخطأ ولا يقبل التغيير، فمثلاً قوله تعالى ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ فقد أمضى في هذه الآية وحدها أيامًا طوالاً وهو لا يحسن أن يقرأ

(فَلَيُبَتِّكُنَّ) فقد كان يضع التاء بدل الباء والباء بدل التاء، وإن أعاد عليه المعلم قال له: لمَ يا شيخي والله لا فرقًا بينهما! فغضب المعلم وقال: ولماذا التنوين في (فرق) قل (لا فرقَ). ومرةً قال له المعلم:

- ما فعلت بدرسِك؟

فقال وهو يخرج كل حرف بتؤدة وترفق:

- قرأتِه.

- ولمَ تجرها؟

فقال هشام متأففًا:

- يا معلمي تغضب مني إذا تكلمت من تلقاء نفسي، فها أنا أحذو حذوك.

فقال المعلم بغضب:

- لم تجرها؟

- فلمَ أنت تجرها فتقول (بدرسِك)؟!

- أنا جررته بالباء.

فقال هشام باسمًا كمن قبض على سر:

- فلِمَ باؤك تجرُّ وقافي لا تجرُّ؟ أليس الباء والقاف حرفان سيان؟

فنزع المعلم عمامته بغضب وقال: اعتزلت التدريس.

فقال هشام وهو لا يدرك غضب معلمه:

- حفظت القصيدةُ التي أعطيتها لي أمس.

فقال المعلم وقد عاد له شيء من وعيه وتذكر أبا عامر:

- قل (القصيدةَ) بالفتح.

فنزل هشام لرغبة أستاذه مع العلم أن ملامحه لم تخلُ من تذمرٍ قائلًا:

- القصيدةَ طويلةً.

فقاطعه المعلم قائلاً:

- قل (القصيدةُ طويلةٌ)

فكظم هشام غيظه مرةً أخرى وتابع:

- بالقصيدةُ مئة بيت.

فقال المعلم:

- قل (بالقصيدةِ) بالكسر!

فانفجر الأمير هشام قائلاً:

- كفاك! أنا أنزل لرأيك ولكنك تأبى إلا أن تلمزني وترميني بالخطأ.

فقال المعلم بهدوءٍ تنزل عليه بغتةً:

- يا ولدي أنت ستكون رأس هذه الدولة مستقبلاً، ولسوف تحافظ عليها بقدر ما حفظت لسانك، ولن تحافظ عليها قدر ميل.

قال كلمته ثم خرج حزينًا كاسف البال، وشعر الأمير أنه أذنب في حق معلمه، ولكنه سرعان ما مضى ناسيًا، وفي اليوم التالي مضى هشام لاعبًا في القصر فرحًا مرحًا ولكنه سرعان ما تذكر الدرس، فشعر بالملل والضجر يتسلل إلى نفسه من ذكر الدرس، ولكنه تذكر أنه أساء لمعلمه أمس فقرر الذهاب، ودخل الدرس فوجد المعلم ينتظره هو والتلاميذ، فقال له: اجلس يا أمير، فهذا الدرس الأخير، أحببت أن أشرح لكم هذا الدرس، اجلس يا مولاي، فلن أغلطك أو

أصحح لك أو أوبخك، أعلم أنك لم تقرأ درسك ولكن لا ضير في ذلك ، فإن أبا عامر اختار لك معلمًا جديدًا ولكني أحببت أن ألقي عليك هذا الدرس، حافظوا على لغتكم، فبحفظها يُحفظ القرآن وهو حبل الله المتين، وبحفظه من اللحن تُحفظ قواعد الدين، كما قيل:

حفظ اللغات علينا

فرضٌ كَفَرضِ الصلاةِ

فَلَيسَ يحفظ دِينٌ

إلا بحفظِ اللغاتِ

وقد قال فصيح العرب علي بن أبي طالب رضي الله عنه (تَعَلَّم العربيَّةَ فإنها تثبتُ العقل وتزيدُ في المروءة) وقوله: (تعلموا العربية كما تتعلمون الفرائض والسنن)، وقال رجل لبنيه: يا بنيَّ، أصلحوا من ألسنتكم، فإن الرجل تنوبه النائبة فيحب أن يتجمل فيها، فيستعير من أخيه دابته أو ثوبه ولا يجد من يعيره لسانه!!

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يلحن في كلامه فقال: أرشدوا أخاكم فقد ضَلَّ. وكيف لا يضل وأقل حركة مغيرة للمعنى وربما أدَّت إلى الكفر، كما حُكي: أن أعمىً سمع رجلًا يقول (يا من يُرى ولا يرى) فقال له الأعمى (لبيك ها أنا ذا). يا أولادي، سمع المأمون لحنًا في ولده، فقال (ما على أحدكم أن يتعلم العربية! يصلح بها لسانه ويفوق بها أقرانه، أيسرُّ أحدكم أن يكون كعبده أو أمته، فلا يزال طول دهره أسير كلمته!) وهذا بليغ العرب وغرة بني أمية عبد الملك بن مروان رحمه الله يقول: اللحن في النطق أقبح من آثار الجدري في الوجه، فتعلموا العربية فهي سر بقاء دولتنا، وستسقط هذه الدولة العظيمة ومجدنا سوف يأفل.

ثم هم بالقيام وهو مكفهر الوجه، فقال أحد التلاميذ: هل توصينا بشياء؟ فقال باسما: نعم، بتقوى الله وإسقاط هذه الألف. وخرج.

ولم ييأس أبو عامر، وليس هو من يدخل اليأس قلبه، هو الذي دخل القلوب كما شاء، دخلها حاملاً قنديلاً؛ فقلب القلوب كما شاء؛ أيعجزه تعليم فتى؟ وسرعان ما أرسل له معلمًا جديدًا، ولكن هذا الأخير كان عصبيًا على إتقانه وعلمه وفضله، لا يجامل على حساب العلم، ولو خسر أعز ما يملك، دخل إلى قاعة الدراسة الفخمة فتقزز منها، وقال بصوت هادئ: هذا مكان باذخ يصلح للسمر والسهر لا العلم.

ومضى يحفظ هشامَ القرآن، فبدأ معه من سورة يونس تخفيفًا عليه وعلى رفاقه، ومع ذلك قضى أربعة أشهر ولم يتقنها، كان حفظه ركيكًا، وبعد الأربعة أشهر قال له: اقرأ، فلم يقرأ إلا الآيات الخمس الأولى ثم سكت، ولم يتذكر الباقي. فصفعه المعلم صفعةً قوية، وقال له وقد نسي نفسه وظن أنه يعلم العوام في المسجد لا ابن الخليفة: أنت حمار، تصلح أن تكون حمارًا لا طالب علم.

وخرج الأمير باكيًا وانتهى الأمر بهذا المعلم إلى السجن!

وجلس محمد بن أبي عامر مطرقًا مفكرًا في أمره، يقلب الأفكار فلمعت فكرة مجنونة في عُرفِ الملوك، معقولة عنده.



- ماذا؟ ولدي يجلس مع العامة يتعلم؟ (هكذا ردّت صبح على أبي عامر).

فقال أبو عامر:

- يا مولاتي، لا فرق في العلم بين أمير وفقير، صغير وكبير، عربي ومولّد، كلهم واحد، ووحده العقل ما يميز النابه عن غيره، وعلى الأمير هشام أعزه الله أن يكون أكثرهم فهمًا ونبوغًا.

فقالت كيائسة وقد أعيتها حُججه:

- لكن ما المانع أن يأتي المعلمون والطلاب النابهون إلى هنا كالعادة؟

- يا مولاتي، إن سيدي هشام يركن إلى الراحة والدعة، وهو يدخل الدرس محفوفا بالخدم، محاطا بالحشم، وهذا يجعله متكبرًا على شيوخه، والرأي عندي أن نزجه في لجج دروس الجامع، فيتعلم كما يتعلم صغار الناس، أليس هو الخليفة القادم؟ (وتفنن في طرح الجملة الأخيرة لعلمه بوقع هذا الأمر في نفسها)، فالناس مختلفون في الألسن والألوان، وفيهم الطيب والخبيث، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، والقوي والضعيف، والعالم والجاهل، والأمين والجاهل، واللطيف والقاسي، والمتَّبع والمبتدع، والمنصف والجائر، والمخطئ والمصيب، بل مجتمعنا نفسه فيه عرب ومولدون، أحرار وعبيد، وزراء وفقراء، فعلى الأمير أن يعرفهم، وألا يبقى محصورًا في حنايا القصر.

فقالت:

- وأمير المؤمنين؟

- ما به؟

- هل سيرضى ولده أن يكون مع الناس؟

فتبسم ضاحكًا، وقال:

- بل سيكون سعيدًا.

- سعيداً!؟!

- أمير المؤمنين أعلم الناس بأمور السياسة والرياسة وشؤون الحكم، فهو يدرك أن من أوجب واجبات الخليفة هو التقرب من الرعية، والتعرف عليهم عن كثب وقرب، ثم إنكِ تريدين رجلاً شديد المراس قوي الشكيمة، يعرف ما لا يعرفه سواه، ويحسن ما لا يحسنه غيره، وأنت تعلمين أن مولانا أمير المؤمنين محاطٌ بسدنة قوية، وحاشية متينة، وأخوة فاغرون أفواههم، وكل واحد يقول: أنا لها، فإذا تركنا أمير المؤمنين محاطاً بالقصر المنيف، أنَّى له معرفة أمور التدبير وفنونه؟

ولما علم أمير المؤمنين بعزم أبي عامر فرح، وقال له: دومًا تحسن الاختيار، افعل ما تراه مناسبًا.

وفعل ما كان يريد، ووضعه في مسجد في ضواحي قرطبة، بعيدًا عن القصر، وألبسه لباس العامة، ولم يقل للمعلم أن هشام هو الأمير، بل قال له: قريبٌ لي.

وركبا في العربة التي يجرها حصان، وعندما خرجت العربة من الزهراء وصارت تمشي في أزقة قرطبة ابتهج هشام، وصار يكثر الالتفات بسرور بالغ وأبو عامر يضحك، كيف لا؟ وهو يرتشف الحرية بأسمى معانيها، هنا الهواء نقيًا عذبًا، تشع رائحة الوئام والحب، في أزقة قرطبة ودروبها وجدرانها المطلية بالبياض تتجلى الحياة، وتبدو مترفةً على بساطتها، منعمةً على يسرها، فهذا بائع ينادي إلى بضاعته، وذاك عامل يسعى لرزقه، وتلك عيون فتاة فاتنة تبدو من شراشيب البيت تراقب حبيبها، وذاك سوق النحاسين والبزازين، هناك في الزهراء ينبثق الطمع والجشع والمؤامرات فجأة من حيث لا تحتسب، وتحسب كل خادم هو عين تتجسس. فقال أبو عامر وهو ضحك:

- يا مولاي، لا تخبر أحدًا أنك أمير وأنك هشام، بل كن هشام فحسب، فإن هذا مما يرفع قدرك، وحذارِ أن تنبس بكلمة خارج الدرس، أو أن تغضب فتكشف عن شخصك، فأنت أمير، وعلى الأمير أن يكون رقيقًا رفيقًا برعيته، فهم عدته إذا استحكم البلاء.

فقال بتأفف:

- فهمت يا أبا عامر.

فوصل إلى باب المسجد وكانت شمس الأصيل قد استحالت إلى صديق وديع في ذلك النهار الشتائي. فدخلا إلى المسجد وكان الشيخ جالسًا يتلو (إذا زلزلت الأرض زلزالها) والطلاب الصغار وراءه يرددون كبلابل تجرب التغريد وتتباهى به، وما إن رأى المعلم محمد بن أبي عامر حتى توقف ورحب به، وبينما بدأ التحدث معه؛ نظر هشام إلى الطلاب الذين اشرأبت أعناقهم فضولاً، كانوا بسطاء جدًا، ملابسهم العتيقة تنم عن فقرهم، ولكنها نظيفة ومرتبة، أما هشام فلا يخفى عليهم ما عليه من أثر النعمة.

فقال أبو عامر لهشام:

- يا هشام أنا ذاهب وأنت ستبقى هنا إلى العصر.

- إلى العصر!

- أجل يا هشام، هيا أنا ذاهب، لدي أعمال.

ثم ذهب، ثم أشار المعلم بعصاه إلى مكان ناء في نهاية المجلس، وكان عدد الطلاب أكثر من ثلاثين طالبًا، وشعرَ هشام كالغريب، فجلس صامتًا.

وكان جلوسه آخر المجلس هذا يعني أنه مع الأغبياء، وما إن جلس حتى نظر إليه الطالب الذي بجانبه، فقال له هامسًا:

- من أين اشتريت هذا الثوب؟

فنظر إليه هشام شزرًا، وقال له:

- لا تتدخل فيما لا يعنيك.

فقال ساخرًا:

- ولِمَ يا سيدي؟

فقال هشام بحنق:

- لأنه لا يعنيك.

- ثوب لا يرتديه إلا الملوك.

فقال هشام بلا اكتراث:

- ولستُ غريبًا عليهم.

فقهقه الولد بصوت خفيض، وقال هازئًا:

- لعلك الأمير هشام بن مولانا الحكم؟!

فسرت ضحكات مكتومة بين صفوفهم، فقال المعلم: اسكتوا!

فقال المعلم: قم يا هذا. وأشار إلى الولد الذي قهقه قبل قليل، فقام الولد وهو خائف وجل، فقال المعلم:

- أيها الفتى، يأتي التابع تبعًا لمتبوعه في الإعراب والتعريف والتنكير، والعطف من التوابع، أليس كذلك؟

فقال الفتى وهو مرتبك:

- نعم.

- فلمَ عطف الشاعر المنصوب على المجرور؟ في قوله:

قد كنتُ داينتُ بها حسَّانا

مخافةَ الإفلاسِ واللّيَّانا

(ثم صارخًا): أجب!

وأنى له أن يجيب وقد قضى الدرس ضحكًا واستهزاءً بهشام؟

فلم يجب شيئًا، فقال المعلم:

- وكيف تجيب وقد قضيت الدرس في اللغو مع هشام؟؟

ثم أخرج عصاه وبدت تلوح في أفق المسجد ويسمع لتلويحها حفيفًا يخطف القلوب رعبًا وهلعًا، وأشار المعلم بها فانبرى تلميذان وبطحا التلميذ الذي لم يجب كما يبطح الجزار شاته، ومسكا قدمه وقدَّماها للمعلم والتلميذ يصرخ، وبدأ المعلم بضربه وهو يصرخ، كانت صرخاته المجلجة تصب في نفوس الطلاب خوفًا ورهبة قاسية، وهشام يرى ذلك المنظر ونفسه طارت رعبًا، وعاد لمجلسه وقد تورمت قدماه.

وأشار إلى هشام قائلًا:

- أيها الفتى قُم.

وما إن أشار المعلم إليه حتى بدأ يرتعش خوفًا، وشحب وجهه، وقام وقد جمد الدم في عروقه، وخرج من عالمه هذا وبدأت تأتيه أفكار أهمها الهروب من المسجد، وتقدم بخطى خائفة وفي نفسه صورة صاحبه الذي ضرب، وما إن وَقَفَ أمام المعلم حتى قال له: مَاَ إعراب البيت الآتي...

ولم يتركه يكمل حتى نظر إلى الباب ومضى راكضًا فارًا من المسجد، ومضى يركض كالمجنون، ولفرط خوفه نسي أن يلبس نعله بل خرج يعدو حافيًا، فقام ثلاثة تلاميذ يركضون خلفه وهو يعدو كالمجنون، والطلاب يركضون خلفه إلى أن قفز أحدهم بعد أن صار بعد ذراع عنه ووقع عليه وقعة عنيفة فارتطما في الأرض وطار من هشام كيس نقود كان يضعه في عبه، وصرخ: آه. ومضى أولاد الزقاق يأخذون الدراهم المتناثرة، وحمل التلاميذ هشام إلى المعلم وهو يصرخ، فقال له المعلم: لماذا تصرخ يا هشام؟؟ أنا لن أضربك، كنت أريد أن أرى مستواك فحسب، عد الآن واجلس، ولم يمض هنية حتى أذّن آذان الظهر، وانتفض الطلاب للوضوء، فقال أحد الطلاب لهشام:

- لِمَ تحمل كل هذه النقود؟؟ ءأبوك من الوزراء والكبراء؟

فقال ثانٍ:

- وكم كان يحمل في جعبته؟

فقال أحدهم:

- الكثير من الدراهم والتي نهبها الأولاد.

- ماذا يعمل أبوك حتى تحمل كل هذا.

فقال أحدهم:

- اسمك هشام! عسى أن تكون الأمير هشام بن الحكم.

فضحكوا ساخرين منه، بينما هو كان مشغولاً بتنظيف ثوبه، فقام عفريت منهم ولكزه فسقط على الأرض التي كانت مبتلة، فقام هشام وضرب الذي دفعه، وسرعان ما نشبت مشاجرة بينهم، وأتى الشيخ مسرعًا، ولكن بعد أن تمزقت ثياب هشام وبدا منظره مشينًا،

فاحتار المعلم: ماذا يقول لأبي عامر؟ وما إن فرغ من الصلاة حتى قاد هشام معه، فقال هشام:

- أين نذهب؟

- إلى بيتي.

- لا، أنا أنتظر أبا عامر.

- ولكن أبا عامر لن يأتي الآن، بل سوف يتأخر، ثم هل تقبل أن يراك بهذه الصورة؟ هلم بنا.

وكانت الأزقة ضيقة مكتظة بالبيوت ولكنها نظيفة أنيقة، وفيها الأزهار اليانعة المنتشرة طول الطريق والتي زادت الطرق بهاءً ونضارةً ونظافة، فقال المعلم:

- حضرة الأمير.

فقاطعه هشام قائلاً:

- وكيف عرفت أني أمير؟ أقال لك أبو عامر؟

فقال باسمًا:

- كلا، لم يقل محمد تصريحًا، بل تلميحًا، ومن ذا الذي لا يعرفك؟

- تعرفني؟ وأين رأيتني؟

- لم أرك من قبل، ولكن أخلاقك أخلاق ملوك، وزينتك ومشيتك كل شيء يُعرف بك، ثم إن محمدًا عمله هو العناية بك.



(٧)

هناك عاصفةٌ هوجاء، تسير نحوك، وسيبدأ عصفها عندك، ستكون مظلمة كليلٍ بهيمٍ، طويلة تأبى الركون أو السكون، وستقتلع أشجارًا سامقاتٍ، وأول شجرة تقتلعها من جذورها هي الشجرة التي تستظل بظلالها!

كان قد وصل إلى بيته، لم تكن مساكن العامة في قرطبة تنبئ بمستواهم الاجتماعي، بل كل البيوت متساوية تقريبًا، وكان باب البيت كسائر بيوت قرطبة من الخشب، ويحمل قفلًا مكونًا من مزلاج خشبي وفوقه مقرعة لقرع الباب، وقرع المعلم الباب، ففتح أحد أولاده، وما إن دخلا حتى صارا في (الاسطوان) وهو الممر الذي يلي الباب الخارجي، والمؤدي إلى وسط المنزل، وكان هذا الاسطوان ضيقًا، ثم ينحرف هذا الاسطوان على شكل كوع الذراع ويؤدي إلى باب آخر لم يكن على نفس خط الباب الخارجي، ومنه إلى الصحن، وبذلك يستحيل على السابرة أن يروا ما يحدث في الصحن ولو كان الباب الخارجي مفتوحًا. ودخلا إلى وسط الدار (الصحن) الذي كان ضاجًا بحركة أهل البيت نساءً وأولادًا، ودخلا والمعلم يقول: يا مولاي، هذا فناء البيت، وهو طراز سائر البيوت الأندلسية، وطبعًا لا تراها وأنت في قصرك، هذا الفناء الرائع الذي قال فيه الشاعر:

فِي ظلِّ عزٍّ دائمٍ وَكَرَامةٍ

وَفِناءُ دَارِكَ بالوُفُودِ زَخيمُ

وكانت مساحة الصحن شاسعة، إذ يشكل حوالي النصف من مساحة البيت الإجمالية، وتناثرت غرفٌ ثلاث حوله ومطبخ، ويتوسط الصحن بركة ماء دافقة، وفي الصحنِ كان هناك بعض أشجار النارنج التي أضافتْ للبيتِ مسحةً من الجَمال، فالتف حولهما أولاد المعلم وبناته، وله ولدان بعمر هشام، وثلاث بنات تتراوح أعمارهن ما بين السادسة عشر والعشرين، فقالت كبراهن وكانت تعجن العجين للخبز:

- من هذا الفتى القذر يا أبتاه؟

فردت الصغرى:

- تأتي بالمتسولين إلى هنا؟ انظر إلى وجهه!

فقهقت الوسطى بصوت قبيح، فقال المعلم:

- اسكتن يا بنات.

وبينما هنَّ ساخرات ضاحكات، أتى من أقصى المطبخ صوت أمهن يرعد ويزبد:

- قبحكن الله من فتيات! حان وقت الغداء ولم يجهز الخبز؟؟ والله لأؤدبكن غير هذا الأدب، لم يأتِ عريس قذر ويأخذكن من أمام وجهي، وكيف يأتي لفتيات قذراتَ قبيحات مثلكن؟

فقال المعلم:

- يا سميرة اسكتي، معنا ضيف.

فخرجت من المطبخ، ونظرت إلى هشام، وقالت:

- ومن هذا؟

- إنه أمير أموي.

فضحكن كلهن بصوت مرتفع، وقالت سميرة:

- ما أجمل مزحك، أمير أموي!

- لست مازحًا.

- ماذا تعني؟

- أعني أنه امير.

- أمير أموي وبهذه القذارة وهنا؟

- تشاجر مع الأولاد.

- وما الذي أتى به عندك؟

- نتكلم في وقت آخر، والآن جهزن الطعام، هيّا، عندنا عمل.

- وما هذا العمل؟

- قلت جهزن الطعام.

وبدأت البنت الكبرى تخبز في فرن موضوع في ناحية من نواحي الصحن، والبنت الوسطى دخلت إلى مخزن المؤن، والأم عاكفة في المطبخ، بينما المعلم تهادى إلى مجلسه وسط الصحن، وكان ذلك المجلس عبارة عن أرضية مفروشة بالقش مغطاة بالسجاد من الصوف، ثم نضدت فوق الفراش مجموعة من النمارق المحشوة بالصوف، فقال المعلم باسمًا وهو يشير إلى هشام بالجلوس:

عَمدَ يا أخي، إلا بساط من صوف

ومخايد عليها يدّ صفوف

ولم يجلسا إلا قليلاً حتى أتت البنت الكبرى بأرغفة ساخنة، ووضعت مائدة خشبية صغير مستديرة ذات أرجل ثلاثة، واجتمعت

العائلة كلها حول المائدة، وأتت الأم تحمل صحفتين مصنوعتين من الخشب فيهما أرز وفوقها لحم مشوي.

فقال المعلم:

- سموا الله وكلوا، (ثم بلهجة رقيقة) كل يا أمير.

وكان الأمير خجولاً، وما إن رفع رأسه فرأى كل أفراد الأسرة يرمقونه وينظرون إليه بترقب، لاسيما البنت الكبرى التي بدت نظراتها مخيفة بالنسبة له، وسرعان ما خضب خده بحمرة، فقال المعلم: كلوا.

وبدأوا بالأكل، وصار الأمير يداري خجله بلهم الطعام الذي لم يعتَد أن يأكله بهذه الصورة؛ هناك في الزهراء يقدم له الطعام على طاولة خشبية كبيرة ويوضع فوقها سفر الأديم التي استحدثها زرياب بعد دخوله الأندلس، وتأتي أطباق الطعام الزجاجية، فتوضع على المائدة بتنسيق وكأن واضعها مهندسًا مختصًا، ويجلس مع أبيه وأمه أحيانًا ووحده أحيانًا كثيرة، ويجلس الخدم منتظرين إشارةً منه حتى يلبوا طلبه، وكم كان يجلس كثيرًا مع هشام بن معمر الوراق، وكم تعارك معه على المائدة هازلين، بل أمه كانت تتفنن في اختراع طرق لتقديم الطعام مما كان يدهش الخدم، فمرة ضجر من الكؤوس التي كان يشرب بها، فأتت له بكؤوس من ذهب فملَّ، فأمرتهم بأن يصنعوا كأسًا من المرجان!

فقال المعلم:

- يا سميرة، بعد أن يكمل الأمير غداءه أدخليه الحمام هو وابنك سعيد، وأنا سأنطلق إلى السوق وأشتري له حلة جديدة.

فقالت سميرة دون رويّة:

- ولمَ لا تذهب به إلى حمام السوق؟ فتختصر الوقت.

- ألم أقل لكِ مرارًا أن الحمام لا يذهب إليه الأولاد؟! فيه من السفلة وقليَلي الذوق ما لا يحصى وهم كما وصفهم الشاعر:

ومنزل أقوامٍ إذا ما تقابلوا

تشابه فيه وغدُهُ ورئيسُهُ

ينفِّس كربي إذ ينفس كربه

ويعظم انسي إذ يقلُّ أنيسه

إذا ما أعرت الجو طرفا تكاثرت

على من به أقمارُهُ وشموسُهُ

فقالت الصغرى:

- لم أفهم شيئًا يا أبتِ من هذا الشعر.

- الأفضل ألا تفهمي.

فقالت الوسطى:

- رحم الله الشاعر المشرقي عندما يقول:

وحمامكم كعبةٌ للوفود

تحجُّ إليه حُفاةً وعراه

يكررُ صوتُ أنابيبهِ

كتاب الطهارة باب المياه

فضرب المعلم الطاولة بيده ضربة عنيفة، وقال لها:

- ثكلتكِ أمك من ذا الذي علمكِ هذه الأشعار؟

فقالت مرتعشة:

- قرأتها في الكتب التي في حجرتك.

- وتقرأين أشعارًا مثل هذه؟

- وما بها؟

- وتردين أيتها البلهاء؟ قومي من أمامي هيا.

فقالت الأم:

- قمن كلكن، يا ربي متى يأتي نصيبهن والله تعبت، بنات لا نجني من ورائهن إلا الهم والغم، والله تعبت.

ومضت تولول وتندب حظها وتشكو سخطًا، فقال المعلم:

- يا امرأة، رب نقمة ظاهرة وباطنها نعمة، ورب نعمة ظاهرة وباطنها نقمة.

فقالت وهي تكفكف دموعها:

- تعبت والله، تعبت من همهن متى يأتي النصيب؟ نسيت المثل: (إذا قالت البنت دَدًّ فكر لها في مخدًّ، وإن رفعت القدح لفمها تحتاج ما تحتاج أمها) أنسيت؟ وها هي الكبيرة تبلغ العشرين، أخشى أن يبقين بلا زوج ونرحل، وِيّ على من مات وخلى سبع بنات.

ومضت فترة الغداء وخرج المعلم يشتري ثوبا للأمير، وجلست سميرة على حافة النافورة وأخذت تغترف ماءً تغسل ولدها والأمير في منظر بدا لهشام مخزيًا، فهو عارٍ إلا من أزارٍ لف على وسطه

وامرأة تغسله وحوله أعين ثلاث فتيات مراهقات، عانسات في نظر أمهنَّ، وأتى المعلم بحلة جديدة بسيطة، وارتداها، ومن يره الآن حقًا لا يعرف أنه أمير، بل فقير من عامة الأندلس، ولكن أين ابن أبي عامر؟ لمَ غاب كل هذا الوقت؟ أذن العصر ولم يعد، أيعقل أنه نسيه؟ ولكن كيف ينساه وهو موكل به، وكل عمله معه، هناك أمر ما حصل، شيء يصعب التكهن به (هكذا كان يفكر هشام).

وبقي هشام وحيدًا مع البنات وأمهن، فالمعلم خرج لصلاة العصر، والولدان يلعبان في الزقاق، ولم يستطب اللعب معهما، بل بقي في الصحن جالسًا على حافة الصحن يتأمل البركة الدافقة، وينتظر أبا عامر، فخرجت البنات من حجرتهن، وجلسن حوله، فقالت الكبرى بتودد على كره هشام لها أول الأمر:

- حضرة الأمير، أنا سعاد، وهاتان أختاي ميمونة وخالدة، قال لنا أبونا أنك ابن مولانا الحكم، لشيء رائع يا أمير أن نحظى بالجلوس معك ولو لبرهة قصيرة، فإذا سارت الأيام وصرت خليفة المسلمين بقين نفتخر أبد العمر أننا عرفناك يومًا، ولاسيما وأنت ظريف طريف، وأمك السيدة صبح، التي تتحدث سائر الناس بجمالها.

فقال منتفضًا:

- ومن قال أن أمي جميلة؟

فقالت ميمونة:

- وكيف لا تكون جميلة يا أمير؟ الناس كلها تعرفها.

فزاد حنقه وغضبه، بل كاد يتحول خجله إلى كره لهن، ثم قال:

- وكيف يعرف كل الناس أن أمي جميلة؟

فضحكت خالدة بملء شدقيها، فقالت سعاد ببطء:

- يا أمير وكيف لا يعلم الناس بجمالها وأنت ولدها بهذا الحسن والبهاء، فالابن فرع عن أبويه، فإذا كان الفرع هكذا فكيف لو شاهدنا الأصل؟ ثم إنها الأثيرة عند مولانا الحكم، والحظية، ألم يقل فيها:

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت

وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي

فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دما

ويا كبدي الحرَّى عليها تقطعي

- وما أدراكِ أن أبي قال في أمي هذا؟

فعدن ثلاثتهن إلى موجة الضحك الصاخبة الزاخرة بالتهكم، فقالت ميمونة:

- هذه أبيات معروفة مشهورة الكل يحفظها.

فقالت سعاد بمرح:

- كفى هزلاً، لنلعب لعبة لطيفة مع الأمير.

فصفقت البنتان بجذل.

- قالت سعاد:

- عندما يتولى الأمير الخلافة مستقبلاً وتستقر الدولة، سيخصص لكل واحدة منا وظيفة محترمة، فلتختر كل واحدة منا وظيفة من الآن منصبًا مرموقًا ونسمع رأي الأمير.

فقالت خالدة:

- مرحى مرحى يا أمير، وافق.

فقال خجلاً:

- موافق.

فعلا التصفيق مجددًا.

فقالت سعاد:

- أنا أريد أن أكون بادئ ذي بدء صاحبة المدينة، لأقضي على اللصوص وأولهم هذا المغرور المعتوه ابن المصحفي صاحب المدينة، هو موكل لخدمتها ولكنه لص ومحتال ولا يخاف الله، فإذا مضى نصف الليل وبدت قرطبة كعروس ترفل بثوبها الأنيق يتوسط سماءها قمرٌ منيرٌ؛ بدأ اللصوص عملهم وما أخزاه من عمل، أريد أن أرجع الأمان إلى قرطبة.

- حسنًا.

فقالت ميمونة:

- أريد أن أكون وكيلتك والقائمة بشؤون قصرك وتدبير الأمور الخاصة بالقصر.

- ولمَ؟

- لأن الفضول سيقتلني، هناك في الزهراء، ترفع أقوام وتخفض، تخرج إلى القبور وبعضهم إلى القصور، السعادة والشقاء، مصائر أمم مترامية لا تكاد تجمعها راية، ما سرها؟

- حسنًا.

فقالت خالدة:

- وأنا أريد أن أمسك أمر السوق، لأني مولعة بالأسواق وأبي يمنعني.

ولم تكمل حتى دُق الباب، فخرجت الأم من الحجرة قائلة:

- لعلها أم معاذ، افتحي يا سعاد.

- أخاف أن يأتي أبي.

- افتحي يا بُنيتي، أبوكِ في درس العصر.

ودخلت عجوز ترتدي السواد من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، ومن يتأمل قليلاً في تجاعيد وجهها يمتلئ رعبًا وهلعًا واشمئزازًا، فشكلها مقزز منفر مكفهر، ولكنه اكفهرار يدعوك للضحك.

وبعد أن استقر بها المجلس في الصحن، قالت لها الأم:

- يا أم معاذ هذي بناتي، ولم يأتِ عريس إلى الآن ولو لواحدة، لا أعلم ما بهن، وكأنهن مسحورَات، أو بهن مس، وأنا خائفة عليهن.

- لا تخافي، فهن ما شاء الله في صحة ونعمة، ولا يشكين شيئًا، النصيب.

- ولكنه تأخر.

- سيأتي قريبًا.

فقالت الأم وقد لمعت عيناها فرحًا:

- أصحيح؟

- أجل، رأيت سعاد في الحلم.

فقالت الأم بخيبة:

- في المنام!

- ما بها الأحلام؟ إن أحلامي لا أراها إلا وتأتي مثل فلق الصبح!

فقالت ميمونة ساخرة:

- يبدو أن رؤياكِ يا أم معاذ مثل رؤيا الأنبياء، تتحقق مثل فلق الصبح.

فلكزتها أمها على كتفها، وقالت لها:

- قومي أيتها الرعناء.

فمضت تقص عليهن رؤياها وكأنها ستقع غدًا، وتحدثت عن قرين سعاد وكيف ستصعد سعاد معه على كميت أشهل أصيل، وكيف سيغنيها ويجعلها تعيش في عز ورغد وكأنها الأميرة صبح البشكنجية، ثم أخرجت من ردنها عقدة وأوصتها أن تضعها تحت نمروقتها، وأخرجت الأم صرة دنانير وناولتها لأم معاذ، وطول مكوثها في الصحن بقيت ترمق الأمير وتختلس النظر إليه، فقالت قبل أن تذهب:

- من الفتى؟

فقالت الأم بعد تردد:

- ابن صديق زوجي.

- تعال يا فتى.

فتقدم نحوها وجلس بين يديها، فمسكت بكفه وقالت: سأقرأ كفك.

وصارت تتأمل باطن كفه، ثم تغمض عيناها وتسرح، ثم تقوم بحركات غريبة أشبه بدروشة الصوفي، ثم قالت ببطء: ستعيش في

نعيم دائم، تحت شجرة وارفة الظلال، طيبة الثمار، ولكن هذا الثمار تمجها نفسك، وتبغضها روحك.

ثم مضت تتأمل وفجأة اكفهر وجهها وشاح بأمارات التعجب، ثم قالت:

هناك عاصفة هوجاء، تسير نحوك، وسيبدأ عصفها عندك، ستكون مظلمة كليل بهيم، طويلة تأبى الركون أو السكون، وستقتلع أشجارًا سامقات، وأول شجرة تقتلعها من جذورها هي الشجرة التي تستظل بظلالها!

وهنا وصلت العربة التي ستأخذ الأمير إلى الزهراء وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب.



(٨)

(زُوِيَت لي مشارق الأرض ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها)

يقضي ابن أبي عامر ليله متسهدًا ساهرًا، يراقب النجوم المتناثرة حول القمر المنير، تُشَّرقه الأفكار وتُغَّربه، خليفة يزداد شيخوخةً وضعفًا وتمضي به السنون انحدارًا وقد أغشاه حب الولد، وطفل بليد لا يفقه شيئًا، وأمه عاشقة هائمة تمضي ورائي بلا هدى، وثلة من الطامعين حول القصر المتربصين بالخلافة طمعًا، فمن للأندلس ومن منقذها سواك؟

ويبقى هذا حاله إلى أن يوقظ أفكاره آذان الفجر، وكان يستعذب ذلك الذي ينساب في أذنيه ويسكب طمأنينة وهوادة.

يقطع الظلمة الكثيفة نحو المسجد، وكثيرًا ما كان يعشق نسمات الفجر الهادئة، وما إن عاد ورأى قرطبة حين يتلألأ الفجر، وتعجب بسحرها الذي لا يمل منه؛ الأندلس شيء عجيب، كغصن رطيب، تبقى رطوبته طول المواسم، هنا أول الفجر، هنا مرتع النفوس الطامعة المتربصة والزاهدة الناسكة، هي فتنة مشتهاة، من يرَ الأندلس ويعِش فيها يؤمن أنَّ لا جمال يعدوها أو يساويها، يبقى منتظرًا سِحرها أن ينفك، ولكنه مستحب، كيف بدأت الحكاية؟ هناك في المدينة المنورة حيث يجلس ذلك الرجل العظيم، وسر عظمته يكمن في بسطاته اللامتناهية، حوله أصحابه صامتون خاشعون وكأن على رؤوسهم الطير، وكانت الشمس تميل للغروب فبعثت الشمس أشعتها

المذهبة من بين شقوق سعف والتي كانت سُقفًا تتلألأ مضيئة في وجه ذلك العظيم وتفرح الشمس في مطرحها وقد طربت سرورًا وازادت فخرًا وحبورًا، فقال لهم والمشهد الذي يراه أبو عامر قد صار أمامه: (زُوِيَت لي مشارق الأرض ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها)

قال لنفسه وهو يتذكر هذا الحديث: والله لن أتركك لثلة من الزعار الطامعين، والموالي المتربصين.

ثم غدا مبكرًا إلى الزهراء.

- إذًا؟ تخشى أن تتفلت الأمور من زمامنا؟

فقال ابن أبي عامر:

- نعم، هكذا بدت توحي ملامح الخليفة.

فقالت صبح وهي تتوقف عن المسير في الحديقة المخصصة لها وقد خضب وجهها بحمرة زادتها سحرًا:

- لمَ؟ لمَ غيّر رأيه؟

- لا أعلم إن كان غيّر رأيه أو لا، ولكن لم يطمئن لتعليم الأمير هشام، وهذا سيجعله يراجع نفسه مرارًا، إن الأمير لم يبدِ من العبقرية ما يعتمد عليه لتوليته منصبًا مهمًا رفيعًا لهذه الدرجة.

- ألم تقل أنك ستعلمه، والآن أنت تأخذه إلى معلم خارج القصر؟

- يا مولاتي، حسابات الخليفة بعيدة.

فقالت غاضبة:

- بعيدة!

- على رسلك يا مولاتي.

فقالت صبح حازمة غاضبة:

- –ولن أترك حق ولدي يذهب إلى إخوته أو أحدًا من المروانيين، الخلافة لولدي ولن أرضى دونها بشيء.

- وهذا ما نبغاه.

ثم قالت كطفلة:

- ما العمل؟

- العمل عملك الآن.

ففهمت مقصده. وقالت:

- لا عليك يا أبا عامر، سيغلب حب الولد على عقل السلطان، واعلم إذا تنافس العقل والهوى.

فقاطعها ابن أبي عامر قائلاً:

- فسينتصر الهوى إذا كان ذلك مدعومًا بكيد النساء.

فضحكت ضحكة المحبة العاشقة ولم تكن تضن بها عليه على أي حال.



(٩)

إنه لساحرٌ عليمٌ، أو خادمٌ لبيبٌ، وإني لخائفٌ على ما بيده!

كانت ذراعيه تحيط بها، يتنفس عطر جمالها الفواح، ويقبل شبابها المتألق جمالاً وإغراءً، ويداوي شيبته وشيخوخته بشبابها.

فقالت له بلهجة عذبة مسكرة:

- مولاي.

فقال وهو يتعربد منتشيًا جمالها:

- مولاكِ فداءكِ، قولي.

- ولاية العهد ستكون لهشام!

فقال وهو يداري مباغتة السؤال بلهجة المحب الودود:

- لم يحن الوقت بعد، ما زال صغيرًا، ولا تتعجلي على مولاك بالهلاك.

- حاشا، أطال الله بقاءك، ولكن المنصب من حق ولدك الذي من صلبك، حتى يبقى ذكرك حيًا، ويبقى الملك في ذريتك خالدًا، نعم، الخلود يا مولاي، كتب علينا الموت وألا نخلد، ولكن هناك سُبل أخرى حتى نخلد، وأنتم الملوك أكثر من يخلدهم التاريخ، فإذا وضعت عهدك لولدك وأمضيت عليه، وبايعه الناس فسيعيد

ولدك سيرتك الأولى، وتبقى مجسدًا فينا ما دام ولدك وليُّنا وسلطاننا.

- ما أجمل لسانك.

- لساني فحسب؟

- بل أنت درة النساء وخيرتهن.

- ولن أكتفي بهذا منك، فأنا سيدة نساء العالمين بك، مستمدة مآثري منك، ومن سحرك، أنا قوية بك، تهابني الناس كجبار عتي، وتخاف الخدم مني، ولكني أرق من الشعرة بين يديك.

فقال ضاحكًا:

- لست ساحرًا.

- بل ساحر القلوب يا مولاي.

- ولكن ليس كالعامري.

- محمد!

- أجل، ما له ملك عليكن قلوبكن يا نساء القصر؟

- ما به من شيء إلا أنه حسن الخدمة، يحسن التصرف والتعامل، وليس كالفتيان الصقالبة، لا بارك الله بهم.

- وما بهم؟

- تأمرهم فلا يطيعون إلا قليلاً، وتكلفهم فلا يتمون المهمة، النقص من شيمهم.

- هم زينة القصر وخدم الدولة منذ أمد بعيد، يحسنونها ويحسنون دقائقها مما لا يحسنه العامري، فليس كل شيء نوكله لابن أبي عامر، ثم إن النقص طبع بني آدام.

- ولكن أبا عامر يحسن كل شيء.

فقال منهيًا الحديث:

- وهل سنقضي الليل ونحن نتحدث هكذا؟!



يخرج محمد بن أبي عامر من داره وخدمه يحملون هديته للسيدة صبح أم هشام، يمضي قاطعًا شوارع قرطبة والكل ينظر إليهم متعجبين من فخامة الهدية وعظمتها، يدخل الزهراء ولم يكن الأمر أقل، فبقوا ينظرون إليهم وإلى هديتهم إلى أن دخل قصر الروضة، وجاءت السيدة صبح ويا عجب ما رأت، رأت قصرًا مصغرًا مصنوعًا من الفضة، وقضى مدة وهو ينفق عليه ويعتني به إلى أن أنفق مالاً جسيمًا، فكان من أعظم ما رأته الأعين بداعةً وجمالاً وفنًا، وبقي أهل قرطبة يذكرونه ويتحدثون في شأنه ردحًا من الزمن.

ووقفت الجواري جنبها وهن مبهوتات مدهوشات من إتقان صنعته، وجمال مظهره.

وهكذا هن نساء القصر ما زلن معجبات بمحمد بن أبي عامر ليس لجماله وسدادة رأيه وفصاحة لسانه فحسب، بل لمعرفة ما تهوى قلوب النساء من طيب الكلام ولين المعاملة، فهو أثير عندهن.

حتى إن السيدة صبح بقيت كلَّ مجلسها ليلاً مع الحكم تتحدث بشأنه وعظيم صنعه.

فقلق الحكم مما وصل إليه ابن أبي عامر، وقال يومًا للمصحفي وقد تحدثا بشأن هدية ابن أبي عامر:

- ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهُنَّ، مع اجتماع زُخرُف الدنيا عندهنَّ، حتى صرنَ لا يصفن إلا هداياهُ، ولا يُرضيهنَّ إلا ما آتاه؟! إنه لساحرٌ عليمٌ، أو خادمٌ لبيبٌ، وإني لخائفٌ على ما بيده!

فقال المصحفي:

- ولِمَ الخوف يا مولاي؟

- من بلغ أعلى المراتب مثله بهذا الوقت القصير، وملك قلوب النساء فلم يعد في الرجال إلا هو، مع هذه المواهب العظيمة هل تحسب أنه يقنع بأقل من مكانك؟! بل ربما أكثر!

أكثر! يا ويلاه ماذا يعني أمير المؤمنين؟ وماذا لو علم بما هو أعظم مما تلوك به ألسن العامة؟ ومن قال أنه لا يعلم؟ هو يبعث إشارات ولمحات.

(هكذا كان يحدث المصحفي نفسه بعد ذاك الحوار)

- هل أنت خائف منه يا مولاي؟

- أنا! (ثم باسمًا) بل أنتم من يخاف على ما بين يديه، أنا ماضٍ، وأنتم باقون.

ولكن حساد ابن أبي عامر لم يسكتوا، فسرعان ما فشوا إلى الخليفة بأن ابن أبي عامر استخدم أموال السكة في أغراضه الشخصية وأن فيها نقصًا كبيرًا، وأنه سعى إلى إتلاف الكثير من أموال السكة.

فقال الحكم للمصحفي: ابعث له ليتم التحقيق ليتبين الرشد من الغي!



- أنت والله يا أبا عامر أثير عندي، فأبوك صاحبي القديم كما تعلم، سل ما تريد.

هكذا رحب الوزير ابن حُدير بابن أبي عامر.

- مالٌ، أريدك أن تعيرني بعض المال.

ابن حدير وزير في دولة مولانا، قد أغناه الله من فضله، فغدا ذا مال كثير، له صحبة لأبي محمد أيام شبابه، وقصده محمد أول ما وصل قرطبة فأحسن إليه وقربه وسعى أن يجد له عملاً عند قاضي الجماعة ابن السليم، وهذا الأخير بدوره وجد له عمل الزهراء.



- يا مولاي الأموال تامة، ولا نقص فيها.

فتبسم الحكم للعامل الذي قام بمراجعة حسابات السكة، وقال لابن أبي عامر:

- ما زلت عظيم الشأن عندنا، وما قام هؤلاء المفترون بشيء إلا بتعزيز ثقتنا بك، وتعظيمك في أعيننا.

- أنا طوع أمر أمير المؤمنين.



السِفر الثاني

(١٠)

قد تواطأت الفكرة مع الرغبة!

قرطبة ٣٦٥هـ:

يمضي الحكم إلى الثانية والستين من عمره، فيقترب نجمه من الأفول، وصحته في ضعف وفتور، وصبح يزداد جمالها تألقًا وسطوعًا، فيرى الخليفة العجوز جسده وكيف يؤول رويدًا رويدًا إلى الفناء؛ ويرى صبح تزداد أنوثةً وحسنًا، فلا يستطيع مقاومة أنوثتها وإغرائها، فأقدم على فعل ما لا بدَّ منه، على ما لا تقنع صبح دونه، وكلما كان يتغاضى عن جوابها تزيد من إلحاحها، وكم كان يتألم ويتعذب وهو يحاول ردَّها منكسرة، وكم كان يستعذب صوتها وهي تغني له فهل يطيق تعذيبها وهي تطلب؟

ولكنه مصير دولة عظيمة البقاع، كثيرة الأصقاع، مترامية الأطراف، هل يسلمها لصبي في التاسعة من عمره وهو قد طوته السنون وجسده النحيل يزداد ضعفًا وهزلاً؟ ولكنه ولده والأثر الباقي له، ومعه المصحفي ومحمد بن أبي عامر وصبح، ومع كلِّ هؤلاء لا يُخشى عليه إلى أن يبلغ الرشد، فإذا بلغ واشتدّ عوده كان الوريث الحق لدولة أبيه وجده الناصر رحمه الله، بل ملك بني أمية العظيم، الذين فتحوا هذه البلاد وبنوها ودافعوا عنها بدمائهم الزكية الطاهرة، ولكن يخاف على هذا الملك العظيم أن ينهار على يديه، يخاف أن يُضيِّع البلاد كلها ويدخلها في دوامة من الحروب والخطوب.

وكلما حاول أن يبتعد عما عزم عليه وقرر؛ تعود صورة صبح أمامه وهي تلح عليه وتطلب منه الوفاء بحق ولدها، ولكنه يريد أن ينحاز إلى العقل الذي يعارض ما تميل له النفس وتلح في طلبه.

أيهما خير؟

أن يبقى ذكره طوال العهود الباقية كطود عظيم أشم لا يذكر اسمه إلا وخشعوا وذلوا كما هو حال أبيه في أيأمه؟

أم يكون أثرًا دارسًا في سبيل بقاء دولتهم العظيمة؟

ولكن الدولة بلغت حدَّ الكمال، وما بعد الكمال إلا النقصان، فما الذي يرجوه من ولده أو غيره؟ وهل يفكر الإنسان في الدار التي تنتظره فيبني لها أم يبقى أسيرًا في هذه الدار حتى ليظن أنه باقٍ فيفاجئه الموت على حين بغتة دون أن يمهله؟

تشرقه الأفكار وتغربه ويمضي في (الفكرة) جادًا في تفكيره، ولمع تاريخ أسرته الملوكية على حين بغتة.

عثمان بن عفان -رضي الله عنه- كان زاهدًا عابدًا صالحًا، قتل مظلومًا، ولم يعهد لولد أو قريب، ولكن معاوية فعلها وسلمها لولده.

هل أصاب أم أخطأ؟

فعل الأرشد أم الأفسد؟

سنة سنها لملوك الإسلام فهل كان فعله صائبًا لدرجة أن يُحتذى حذوه؟

ولكن هل يعيد نفس الأحداث وهل يرسمها كأن لم يعتبر من دراسته للتاريخ كلها؟ هل يضرب بالكتب التي لا حصر لها عرض الحائط ويمضي طائعًا هواه بلا هوادة؟ خاصة وأن ما حدث بعد معاوية (رحمه الله) لا يبشر بخير.

الحسين، الحَرَّة، وصمة عار في تاريخ دولتهم فكيف يعيد ذلك ويرجع الرجع البعيد؟

ولكن مروان بن الحكم لم يخطئ في تولية ولده عبد الملك من بعده، ولا عبد الملك في تولية الوليد، بل بقوا خليفة إثر خليفة مصلحين صالحين مجاهدين.

فلِمَ لا يحتذى حذوهم هو الآخر؟ وهكذا بين تصادم الأفكار يقرر الَذي لا مفر منه، فقد تواطأت الفكرة مع الرغبة، ولكن هل اتفاق الرغبة مع الفكرة هي الفكرة نفسها؟ أم هذا الاتفاق والإتلاف ما هو إلا محض سكرة؟ سكرة يمليها القلب المسربل بحب الولد وعشق فكرة الخلود.

وما فكرة الخلود بحد ذاتها إلا بدعٌ من الوهم المبهرج.



تزوجت سعاد!

هل تحققت رؤية أم معاذ؟ هل صار كما توقعت ووصفت ذلك العريس الذي سيأتي على كميت أصيل؟

قدمت أم معاذ مبكرًا بعد أن بعثت خبرًا قبل يوم، فتجهزت سعاد، ودخلت أم معاذ وأم العريس وقت الضحى، واستقبلتهن أم سعاد عند الباب بالتهليل والترحاب بعد أن جلسن في فناء المنزل.

كانت أم العريس دقيقة البصر، عجوز قد تخطت السبعين، فقالت: ولدي رجل ونعم الرجال، بزاز، يعرف في النساء ما لا نعرفه نحن، يبيع ويعمل، وجاهد مرارًا في جيش غالب الناصري، فلذلك نسي نفسه، ولم يتزوج، وإن قلت له أجابني بالمثل الأندلسي (زوجوه

وتركوه في عذَابَه). ويظن أني أريد التخلص منه، أين العروس؟
فقالت ام سعاد:

- كم عمره يعني؟

- خمسة وأربعون عامًا.

فندت من أم سعاد بلا وعي ندةٌ استنكارية:

- كم؟!

فقالت أم العريس:

- وبنتك ليست صغيرة تخطت العشرين، ومن ذا الذي يقترن ببنت في العشرين؟

فكظمت أم سعاد غيظها عندما أتت سعاد تتهادى بتريث، فنظرت إليها أم العريس وتفحصتها جيدًا، فقالت:

- ليست شقراء، وولدي يريد شقراء، ولكن لا بأس ننتظر الرد.

ولما أتى المعلم وأخبرِنه، سأل سعاد، فرفضت! وبدأت أمها تولول وتصرخ وتقول: من كثر بناتُ كانوا الكلاب اختان.

فقال المعلم:

- لنستمع لها.

فأجابت بأبيات يحيى الغزال:

وخيرها أبوها بين شيخ

كثير المال أو حدث فقير

فقالت خُطَّتا خسف وما إن

أرى من خطوة للمستخير

ولكن إن عزمت فكلٌّ شيء

أحبُّ إليّ من وجه الكبير

لأن المرء بعد الفقر يثرى

وهذا لا يعود إلى صغير

كبير يا أبتِ.

ما أتمت مقالتها حتى صرخت الأم في وجهها: ومن ذا الحدث الذي تقدم لكِ؟ قبحكِ اللّه من بلهاء.

وبعد مد وجزر وافقت سعاد على العريس، فواجهتهم مشكلة عظمى؛ فقد ساد عرف أن أبا الفتاة هو من يجهز ابنته للزوج، فالنساء الشقراوات كثيرات بفعل الغزو، ونساء قرطبة قد بار سوقهن، ومن أين لهم أن يجهزوها، وهنا بزغت مفاجأة، وانفرجت العقد؛ فقد زارهم هشام قبل يوم، وسمعهم يتهامسون، فأخبر صبح، فقررت السيدة صبح تجهيز سعاد، ولكن أي تجهيز! ذهب وفضة وحرير وحلل لم تحلم سعاد باقتنائها يومًا، وكان تجهيزًا ملوكيًا.

وجاء حفل الزفاف، وبقي الفرح سبعة أيام متواصلة في بيت المعلم كعادة الأندلسيين، فرح وابتهاج، وأم سعاد ترحب وتضيف بسعادة غامرة، وقبل زفافها بيوم ذهبت مع النساء إلى الحمام، وأقمن حفلهن هناك، وغسلت بالكافور وأنواع عديدة من العطور.

وفي جلوتها كانت المفاجأة الكبيرة؛ إذ حضرت السيدة صبح برفقة هشام، ويا ويل ما حصل، فقد اجتمعت نساء الحي كلهن لا لرؤية العروس، بل لمشاهدة السيدة صبح، الأميرة التي سارت بأخبار جمالها الركبان، ودخلت البيت وهي ترفل بحليها الفاخرة، وتلبس

تاجًا من الياقوت اختطف الأبصار، بل بقيت سعاد بثوبها جالسة ولا أحد يقترب منها، فقد تجمهرت النساء حول السيدة صبح، وقامت السيدة صبح واتجهت نحو العروس فقبلتها، ونثرت فوقها كيس الذهب.

وأقبلت جموع المحتفلين من الرجال ومعهم العريس ودواب لحمل أغراض العروس، تتقدمهم فرقة موسيقية وغنائية وقد جلجل صخبهم الزقاق كله، وفي داخل البيت كانت السيدات في رقص وهز للنحور والقدود، يتمايلن لعل السيدة صبح تثني على إحداهن.



(١١)

يا من تقطّع خصره من رقة

ما بال قلبكِ لا يكون رقيقا؟

تتنفس عطر الزهراء العبق، وتشمخ برأسها مزهوة كعظيمة لم ينجب الدهر قرينتها، تقف فوق الزهراء فترى قرطبة من عل، وتسأل نفسها: هل حقًا ما تراه؟ هل حصل ما أرادته وخططت له بهذا اليسر؟ وهل حقًا غلب كيد النساء على حكمة الرجال؟ ولكن لمَ تسميه كيدًا؟ أليس هو ضرب من الحيلة أن سمته بهذا الاسم؟ بل هَو حق ولدها الذي كافحت من أجله، فليكتب أهل الأخبار والتأريخ أنَّ صبح البشنكنجية، تلك السيدة التي دخلت منذ أحد عشر عامًا أمَةً إلى سوق النخاسين يُدلل بها ويعرضها تاجر للبيع قد غدت الآن تتحكم بملكها العظيم، الذي ملك كل هذه الأمصار، اليوم غدَا الحكم بين يديها كطفلٍ يحبو ويتعثر ولا يستطيع الوقوف إلا بمساعدة أمه، وهي التي تأمرهٍ فيطيع، وتزجره فينتهي، كيف توصف وقد أطاعها الخليفة في تغيير مصائر الأندلس؟ ماكرة؟ يستصغر فيها الوصف وتبدو صفة (المكر) صغيرة لا تُرى، ساحرة؟ وهل السحر يصنع عشر ما صنعت؟ أو يغير من أمة في سوق العبيد إلى ملكة يخضع بين يديها سلطان عظيم؟! ولكن لو جُمعت كل هذه الصفات وركبتها فلن أجد إلا صفة واحدة ولا يقال لها إلا إياها: إنك أنثى!

هل يعقل أن الله استجاب دعواتها في تلك الليلة المطيرة؟ يوم سيقت كما تساق الدواب نحو قرطبة، كانت مكبلة بسلاسل وأغلال طويلة هي وأترابها، كانت السماء ترعد وتزمجر غضبًا، وفوق هذا مطر، بأي ذنب هي مقيدة؟ ألأنها بشكنجية نصرانية؟ وهل لها ذنب في دينها وموطنها وجنسها؟ هي التي لم تختر واحدة، بل ولدت غلطة، ما هي إلا نتيجة خطيئة. مذ أن وعَت وهي في دير، نشأت مع الراهبات المتنسكات اللواتي وهبن حياتهن خدمة للرب في علاه، استغنين عن شهواتهن وملذاتهن ومتاع الدنيا وخلعن ثوب الدنيا الفانية، فتحت عينيها وهي في ذلك الدير القابع أعلى الجبل، إذا شمخت برأسها بدت تلك القرية الهادئة، وكانت ترى الفلاحين وهم يعملون في الحقول وقد أضناهم النصب، وكانت تقف أعلى التلة عند الغروب، وتراقب الفلاحين وهم يعودون لبيوتهم.

عندما نشأت في ذلك الدير وهي تسمع تلك الحكايات التي مُلئت بها نفسها، وشُغفت بها؛ ومعظمها تدور عن اليسوع وفقره وتضحياته ورسالاته الخالدة، وعن زاهدات تنسكن فنلن أجزل الأجر، فكانت تحلم وهي تراقب الحقول عند الغروب كيف ستصبح راهبة مضرب المثل، الخير الذي يجب أن تكرس نفسها فداءً له، كانت تكبر وتكبر الأحلام والآمال، لم تكن أحلامها شيئًا شاذًا عن عادة مجتمع الراهبات، ولكن كلما شدت شيء من علم اللاهوت اضطربت تلك الفتاة واضطربت في نفسها الأسئلة التي تريد جوابًا كافيًا؛ أين والديها كيف؟ أين أمها؟ ولكن الجواب كان صعبًا أن تعثر عليه.

كانت تسأل السيدة الطيبة ماري، فتقول: أين أمي؟ فكانت ماري هذه تجيب بإبهام واستفهام يزيد تلك الأسئلة، أجوبة كثيرة ضائعة في أجوبة ماري الغامضة، كانت تقول لها:

- صعدت كما تصعد الملائكة إلى السماء، هناك ترمقنا وهي مسرورة جذلة، تشير إلينا مبتسمة، وتهدي إلينا قبلات حنونة، فقد غدت جنسًا من الحنان وقطعًا منه.

- وهل ماما من الملائكة الآن؟

- أجل يا حبيبتي، ملكًا هناك. (ثم تشير ماري إلى السماء مبتسمة).

- وهل ترى المسيح؟

- بل مع حواريه.

ثم تبدآن تلوحان إلى السماء ويجبن تحيتها!

كان طفولة بريئة تختزل جميع الأجوبة المنتظرة، وتكتفي بالرمز، ولكن سرعان ما ذهب هذا الاعتقاد عنها بذهاب الطفولة، وسرعان ما تبين لها أن (ماري) كانت تكذب، فلم تكن أمها من الملائكة، بل لم تكن أكثر من غانية تضاجع الذين يدفعون، وفجأة تحمل، تحمل ولا تدري الذي يسكن بين أضلعها ابن من! نشأت من الخطيئة في لحظة نزوة من أبيها!

وذات يوم والجليد قد غطى القرية والجبل الذي ينتصب عليه الدير، خرجت إحدى الراهبات تتهادى نحو مخزن المؤن لتسمع صوتًا يشق عتمة الغلس، فقالت لنفسها: (لعله رجل من القرية يحمل طفله مر من هنا)، ولكن الصوت بقي مجلجلاً فتوجست، ثم بعد أن هدأت قررت المضي إلى ذلك الصوت بعد أن استرقت السمع فعلمت ألا أحد معه، فتقدمت بخطىً مرتجفة لتجد طفلاً على باب الكنيسة! فقالت وقد صُعقت: (يا يسوع، ثمرة الخطيئة، فلتمت القلوب الآثمة التي تركت هذا المولود) فإذا بها طفلة ناضرة جميلة، فأخذتها وهي تدمدم: (أي قلب يترك هذا الجمال) وكان هذا الأمر معروفًا

عندهم، تحبل المومس وتنجب فتتخلص منه على باب دير أو مسجد إن كان في بلاد الإسلام.

ونشأت مع الراهبات، ولكن نفسها قد تغيرت بعد أن عرفت أن ماري كانت تكذب وأنها ولدت لحظة خطيئة وشهوة حيوانية، ثم نكصت عن عالم الراهبات وارتدت في نفسها بعد أن علمت عن عالمهن ما لا يعلمه سواها من سوء وارتكاب الراهبات للخطايا والرزايا، في بعض الأحايين كانت تشك، هل هن قديسات أم زنديقات؟ كانت تتطلع وتسمع ما لا يسمعه غيرها، فهي لا تنسى (كاترينا) وعلاقتها السرية مع الحوذي، بينما هي ذات يوم تسير في الحديقة سمعت حركة مريبة في الاصطبلات، (لعلها حركات الخيول) ولكن سرعان ما تبين أن الخيل ليس هنا، فمضت إلى الاصطبلات، وفتحت الباب بهدوءٍ فرأت ما راعها، إذ كانت كاترينا تضاجع الحوذي، فارتدَّت راجعةً إلى مثواها وقد ثارت ضدها.

- قد شاهدتُ كلَّ شيء يا كترينا، لمَ تمارسين الخطيئة؟

فصعقت كاترينا وقالت بخجل باد:

- لم أستطع مقاومة شهواتي ورغباتي، اغفري لي.

- ليس أنا من يغفر يا كاترينا، بل الإله.

وقد حلفت كاترينا أغلظ الأيمان وحلفت بالعذراء كثيرًا أن تترك ممارسة البغاء، ولكن لم تفعل، بل بقيت تلتقي بالحوذي خلسة، ولكن ما حدث بعد أن طوت ربيعها الرابع عشر كان أفظع من أن تصدق وقوعه يومًا ولكنه وقع معها! وذلك عندما راودتها عن نفسها إحدى الراهبات! فأوغلت في الحقد على ذلك الدير وآمنت بأنه (بؤرة الخطايا)، ألم يرد في الكتاب المقدس عن المسيح: (الذي بذل نفسه لأجل خطايانا، لينقذنا من العالم الحاضر الشرير حسب إرادة الله

وأبينا)؟ وهو المسيح الذي فدى الجميع، نعود فنرتكب هذه الخطايا؟ فبدأت تبحث عن حياة أخرى بعيدًا عن الدير، حياة تنعم بالحب والسلام والوئام، وكانت تراقب الحقولَ عند المغرب عندما رأت ذلك الشاب أول مرة، كان بهيًا مهيبًا جميلاً قد اقترب من التاسعة عشر، إذا اقترب منك علمت أن في عينه الشهلاء وتصرفاته ما يبعث شعورًا قويًا بأنه من طبقة النبلاء، وأنه متعلم، وهذه مكرمة عظيمة، عندما وقف عندها وقف كما يقف حبيب جنب حبيبه، رأت في عينيه الحب قد تلألأ، رأت السلام الروحي قد شعَّ منه، فقال لها:

- هل علمتِ بالنبأ؟

- أي نبأ؟!

- المسلمون، باتوا قاب قوسين أو أدنى.

- المسلمون الكفرة؟!

- نعم، إن لهم قوة لا يستهان بها، وحاكمهم الناصر هذا يبدو أنه يريد الخلود في الدنيا، متى يموت لا أحد يعلم، أكثر من خمسة وأربعين عامًا وهو حاكم.

فقالت وقد راعها الخبر:

- وهل صحيح ما يحكى عنهم من أنهم يحرقون ويقتلون وينهبون وأن شعار قائدهم: إما طريقًا إلى النصر أو إلى القبر؟

- بل أشد من ذلك بكثير، إنهم مقتدون بأجدادهم الذين كانوا يحملون قلوبًا غلاظًا كقلوب دوابهم التي يمتطونها، جوفاء كالأرض التي يسيرون عليها، همج هامج، لا يقنعون دون أكل الأكباد وشق الصدور.

- وماذا عن الحضارة الرائعة والمدن الباهرة التي شيدها الناصر وولده؟

- شيدها المسلمون لهم، وليس لنا إلا السيف والنطع.

- إنني خائفة.

- كلنا خائفون.

ثم دلفت الكنيسة وفي نفسها دولكت مخاوف معفرة برعب شديد، لهم أكباد غلاظ، آه جاءنا جزارون لا يعلمون إلا لغة الذبح، لماذا لا أتزوج الموت قبل أن يتزوجني عربي غليظ؟!

ثم جثت أمام صورة العذراء تدعو ربها.

ومرت الأيام، وكرَّ صبح وظلام، وتسارعت الأخبار التي تتحدث عن غلاظة المسلمين وسماجتهم، واستيقظوا ذات يوم على أصوات الخيول التي تصهل، والجيش الجرار الذي وقف عند بوابة الدير، قامت صبح مرعوبة ونظرت من النافذة التي تطل على القرية وإذا بالقرية قد قلبت كتلة حمراء، ولا يسمع إلا صوت تضارب السيوف وتطاير الرؤوس، دخلت ماري عليها وهو تصرخ: إلى الكنيسة، إلى الكنيسة.

واجتمعن كلهن في الكنيسة، يتلون الصلوات، وما إن انبجس نور الصبح حتى هدأت أصوات القتال ولم يعد يسمع شيء، وفُتحت أبواب الكنيسة وإذا بالجنود المسلمين يدخلون شاكين أسلحتهم، وسقن كلهن خارج الكنيسة واقتدن، ولكن صبح بينما هي مكبلة ويقف جنبها ذلك الجندي؛ سقط فجأة مضرجًا بدمه، وإذا بذلك الشاب؛ الفتى الذي تحدث معها عند الغروب، فقال لها: لن أتركك لهؤلاء الوحوش أبدًا، وفك قيدها، وأراد الهرب ولكن سرعان ما أحاط بهما الجند المسلمون من كل جانب، فبقي الفتى شاهرًا سيفه وهو

مصعوق، ويقول لصبح: لن أتركك بين يدي هؤلاء، سأدافع عنك، لأني أحبكِ، وانبرى أحد الجنود لمنازلته، وصبح تبكي وتصرخ، وبدءا المبارزة والفتى مرتبك خائف، فأخذ يهاجم الجندي وهو مرتبك متوتر، وضرباته عشوائية غير دقيقة، وما إن تقدم ثانية وبخطواته العشوائية؛ حتى قفز الجندي وبحركة بهلوانية هوى بنصله على الفتى وفصل جسده عن رأسه، وراح يتهدى جسده وهو يرشرش دمًا، فصرخت صبح وازدادت صياحًا مجنونًا، ومضت مقيدة على هذا الحال في تلك الليلة المطيرة سبيةً إلى قرطبة وكم بكت وصرخت إلى أن دخلت إلى قرطبة.

وباعها أحد الجنود لتاجر في سوق النخاسين، وكانت عنيدة ذات شكيمة، فما إن أخذها التاجر من الجندي بعد أن أنقذته دراهمه حتى فلتت منه ومضت راكضة كالمجنونة والجندي يركض خلفها، وما مسكوها إلا بعد أن ملأت الزقاق زعاقًا وعياطًا مستهجنًا.

أما قصة التاجر معها وهو يريد تنظيفها فهذا مما يطول فيه الحديث، فلغلظتها وقوتها عضت التاجر وهو يسحبها للحمام للتنظف وتركته يصرخ ألمًا، فقرر أن يعرضها للبيع على قذارتها ووسخها، وعرضها في نفس اليوم ذلك.

وما إن عرضها حتى سمع رجلاً يتهادى نحوه وينشد:

إن كنت تبغي العيش حلوًا صافيا

فالشعر أعزبه وكن نخاسا

تنلِ الطرائف من ظراف نهدٍ

يحدثن كل عشيةٍ أعراسا

فلما رأى التاجر هذا الرجل ويعرفه نهامًا للجواري عشاقًا لهن، قال له:

- يا سيدي انظر إلى هذه الشقراء، جميلة ظريفة، بيضاء كما تحب، لها نهد البكر وتصليك متعة الثيب، وثمنها بخس، أظنها ملكة فرنجية وليست أمة.

فقال الرجل ساخرًا:

- والملكة تبقى عندك أم تسرح في ظلال الزهراء؟

- لا فرق بين الأميرة والحقيرة، المهم الشكل والجسد المغري، وأنا أنصحك بها، لا تفوت هذه.

- كم تطلب بها؟

- لن أطلب بها كثير، ولكن (ولا تنس نصيبك من الدنيا)؟

- ما شاء الله، قلب عامر بالإيمان، ولسان حافظ للقرآن.

- مئة دينار.

- مئة دينار!

- ليس بكثير.

- ليس بكثير؟! أنت لم تترك شيئًا لآخرتك.

فصرخت بهم:

- تعاملونني كدابةٍ!

وبينما هي تصرخ، وقف رجل أنيق يراقب المشهد، فنادى التاجر، ورمى له صرة المال، وقال: هي لي.

وأخذها الرجل وهي تصرخ إلى أن وصل إلى بيت أنيق هو من أروع البيوت القرطبية بهاءً ونضارةً وسعةً، وسرعان ما تناولتها

أيدي الجواري وأخذنها إلى الحمام وهو تصرخ بصلافة، وبعد برهة خرجت من الحمام وهي ترفل بثوب أندلسي فسيح، فبدت جميلة بجمالها البشكنجي وقد خالطها الجمال الأندلسي وأفرغ ما فيه من سحر إفراغًا، وللأندلس طابع خاص في الجمال تهب قليلاً لأهله، فإذا وفد إليها أحدٌ أغدقت عليه بجمالها وأفرغت سحرها الأخّاذ إفراغًا، فدهش الرجل الذي اشتراها، ووقف كالمصعوق، ثم نشد أبيات مليح الأندلس ابن عبد ربه وهو يكاد يأكلها بعينيه:

يا لؤلؤًا يسبي العقول أنيقا

ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

درا يعود من الحياء عقيقا

وإذا نظرت إلى محاسن وجهه

أبصرت وجهك في سناه غريقا

يا من تقطع خصره من رقة

ما بال قلبك لا يكون رقيقا؟

فقالت بجذل:

- أحقًا أنا هكذا؟

- أجل.

- تعني أني قاسية!

- من قال هذا؟

- أنت، ألم تقل:

يا من تقطع خصره من رقة

ما بال قلبك لا يكون رقيقًا؟

- فقال ضاحكًا:

- أجل يا عزيزتي، ألم تكوني قاسية؟ لنبدأ في العمل، عندنا عمل كثير.

- أي عمل؟ هل ستتخذني أمةً عندك وتريدني أن أخدمك؟ خسئت.

- أي خدمة أيتها البلهاء؟ بل مغنية، إنَّ لك صوتًا طروبًا رائعًا، ستكونين سيدة مجالس الغناء؟

فقالت بسذاجة:

- وهل لكم مجالس غناء وطرب؟

فقهقه، وقال:

- قرطبة مدرسة الطرب.

- أليس محرمًا في دينكم؟

- يا حبيبتي، هذا ابن عبد ربه صاحب الأبيات الرائعة التي قرأتها لكِ يقول لنا واصفًا الغناء بأنه: مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب؛ لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخذه بمجامع النفس.

أيقول مثل هذا الكلام من يحرم الغناء؟ وذاك قاضي الجماعة أيام الناصر خرج يومًا لحضور جنازة، وكان لرجل من إخوانه منزل بالقرب من المقبرة، فزاره قبل الذهاب للجنازة، وأحضر له طعامًا، وجارية تغني:

طابت بطيب لثاتك الأقداح

وزها بحمرة وجهك التفاح

وإذا الربيع تنسَّمت أرواحه

نمَّت بعرف نسيمك الأرواح

وإذا الحنادس ألبس ظلماءها

فضياء وجهك في الدجى مصباح

فطرب القاضي وكتب الأبيات على يده، ثم خرج للصلاة على الميت فرأى الناس الأبيات على ظهر يده وهو يكبر على الجنازة، وقد كان هذا القاضي من أزهد الناس وأعدلهم، بل لنا مدارس في الغناء، ولكن لم نعرف الغناء حقًا إلا بعد أن دخل زرياب الأندلس، وهو من حسنة المشارقة، فقد كان بارعًا، واختلف مع أستاذه إبراهيم الموصلي، فقدم الأندلس، فرأينا ما كنا نجهله، وعلم أهل الأندلس على الطرب الحق، والحق أن نفوس أهل قرطبة طروبة، ولكن كان ينقصنا من يؤسس لنا الطريق، فكان زرياب، وهو ذو مواهب متعددة، حيث كان يدعي أن الجن كانت تعلمه كل ليلة صوتًا واحدًا، فكان يهب من نومه سريعًا فيدعو جاريتين له، فتأخذان عودهما

ويأخذ عوده، فيطارحهما ليلته ويكتب الشعر، وزاد في أوتار عوده وترًا خامسًا اختراعًا منه، إذ كان هذا العود الذي ترينه ذا أربعة أوتار، هذا إضافةً لعلمه بالنجوم، وحوى من فنون الأدب ما لا يحصى، إضافةً إلى أدب خدمة الملوك، هذا إضافة إلى اختراعه لأنواع من الطبخ، والآن آن لكِ أن تدخلي هذه المدرسة.

- وأنت ما دخلك؟

فضحك ضحكة مجلجلة وقال:

- أنا كبير المغنين هنا، أنا تعلمت الغناء على يد ابنة زرياب نفسها، فقد عمرت إحدى بناته وتخطت المئة عام!

وبدأ يعلمها الألحان وكيف تغني وتضرب على العود، إلى أن اتقنت الغناء في وقت قصير، واختارها للغناء في حفل للأمير الحكم بن عبد الرحمن داخل القصر، وفي حديقة الزهراء الغناء وبينما الجداول الرقراقة تسقي الأشجار الوارفة وقد بدا القمر كاملاً، في ليلة رطيبة جميلة، مضى صوتها عذبًا هادئًا رخيمًا يخترق الآفاق ويسحر القلوب قبل الأسماع:

ودعتني بزفرةٍ واعتناقِ

ثم نادت متى يكون التلاقِ

وتصدت فأشرق الصبح منها

بين تلك الجيوب والأطواقِ

يا سقيم الجفون من غير سقمٍ

بين عينيك مصرع العشاقِ

إن يوم الفراق أفظع يومٍ

ليتني مِتُّ قبل يوم الفراقِ

وما إن انتهت حتى فتن بها الحكم واختارها جاريةً له بعد أن أخذ المغني مالاً طائلاً بدلاً عنها.



(١٢)

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

يدخل محمد بن أبي عامر إلى الخليفة الحكم بعد أن طلب منه، وكان ابن أبي عامر قد ارتفع ذكره في سائر البلاد الأندلسية، وما قام به في عدوة المغرب وتولي القضاء، وكانت الحرب مع الأدارسة قد استنفذت الخزائن، وابن أبي عامر قد أبلى بلاءً حسنًا فذاعَ صيته وانتشر خبره.

فقال الحكم:

- يا أبا عامر قد عزمت على أمر عظيم جسيم، وقد خصصتك به لما نعلم من بلائك وحسن تدبيرك، فأوكلته إليك.

فقال وقد تسارعت خفقات قلبه، لعله سينطقها، لعله سينطق أول الأمر نحو الغاية، والنبوءة!:

- أمر مولاي، وأنا أجتهد في خدمتكم وخدمة مولاي هشام.

- قررتُ أن أعهد إلى ولدي هشام بولاية العهد ليكون خليفةً من بعدي، وأنت أعرف الناس بهشام، فأنت وكيله منذ ولد، وتعرفه أكثر من أبويه، وأشرفت على تربيته وتعليمه وتثقيفه، فلذلك أعهد إليك بترتيب أخذ البيعة وتَجهيزها، لنأخذَهَا له من الخاصَّة والعامَّة بقرطبة وسائر كُوَر الأندلس، وما في طاعتنا من بلاد المَغرب.

- أمر مولاي.

فقال الحكم بلهجة تنم عن الضعف:

- محمد، اقترب الأجل، ولا أعلم متى تحين ساعتي، فعليك بهشامٍ، وكن يده التي يبطش بها وعقله الذي يفكر به، كن كالأب له، لُذ عنه، وقدم له المشورة، فقد عرفتك ناصحًا أمينًا، وصاحب رأيٍّ سديدٍ.

- سأبقى خادمًا مطيعًا لسيدي ومولاي الحكم وولده هشام إلى أن يحين أجلي وينقطع نفسي.

- وهذا عهدي بك يا أبا عامر.

خرج ابن أبي عامر وهو يحمل على عاتقه ملك الأندلس كلها، عليه أن يكون يد الخليفة القادم ويواجه هؤلاء كلهم، الفتيان الصقالبة، الحاجب المصحفي، والأعداء المنتظرين عند الثغر، كلهم يبغي فرض نفسه وينفرد بالحكم، ويجب أن يكون لها من يخاف على ضعيفهم وينتصر له، نبوءة جده التي دانت من التحقيق، هذا هو محمد، دخل قرطبة مع ابن عمه، ولا يحمل بين أكمامه سوى دراهم معدودة، وبين أضلعه نبوءة خفق بها قلب شيخ وهو يحتضر.

اجتمع إخوة الحكم في بيت أحدهم لمناقشة ما أُعلنَ عنه من موعد أخذ البيعة لهشام، وكانوا يأملونَ أن تبقى الخلافَةَ في أحد أولاد الناصر، لا أن تنتقل لصبي وإن كان ابن الحكم.

فقال كبيرهم:

- قد قرر أخونا الحكم، وهذا أمره وهو من يقرر، وعلينا الطاعة.

فقال الآخر:

- ولكن ستضيع الخلافة إن آلت لصبي.

فقال الآخر:

- أطال الله بقاء الحكم.

- وكيف سيطول بقاءه هو بهذا الحال؟

وكان أصغرهم أشدهم غضبًا، وهو المغيرة، شابٌ في السادسة والعشرين من عمره، وهو شاب نزق فيه طيشان وتهور وشراسة، فقال:

- كيف نسلم الخلافة؟ ملك الناصر العظيم رحمه الله بيد صبي غر لن يقوى على الحكم، ومن سيتولى أمرها؟ أمه الجاريةً البشكنجية القانية التي عشقها وهي تغني في المجالس، وابن أبي عامر ذلك الذي لا نعرف كيف ظهر وكيف ارتفع، فهل نجعل الدولة بين يد العامري وصبح؟ ألا تعلمون ما يقال عنهما؟

فقال الأخ الأكبر وقد استشاط غضبًا:

- لا تتهم الناس زورًا وبهتانًا، ولا تنسَ أن من تتحدث عنها هي أم ولي العهد.

- بالله عليك قل لي كيف يرتفع فتى مثله هذا الارتفاع بين يوم وليلة؟ لا أرى إلا أن أخانا قد غلب على أمره وصار لعبة بين يد جارية لعوب، فيفعل ما تأمره به، فرفعت العامري إلى أن بلغ هذه المنزلة الرفيعة.

رفض الأخوة اتباع هواهم ومخالفة ولي أمرهم، وإن حدثتهم نفوسهم بما يقوله المغيرة ولكنهم يعلمون عاقبة حديث النفس هذا إن

ظهر ولو سرًا، بل قرروا الذهاب إلى البيعة طائعين، فطاعة الحكم واجبة على كل حال وإن كانت أفعاله خطأ.

وليس المغيرة هو الوحيد الذي كان يرفض خلافة هشام، بل هناك الفتيان الصقالبة، كانوا يبلغون ألفًا في قصر الخليفة، وجرت العادة أن يكونوا أول المبايعين للخليفة الجديد، ولكن فائقًا وجؤذرًا وهما كبار الصقالبة قررا ألا يجعلا هشامَ خليفةً، فابن أبي عامر وصبح والمصحفي ليسوا على وفاق معهم، وأنهم سيكونون حكام الدولة الفعليين، ولما علما أمر المغيرة ورفضه قررا الوصول إليه.



يقضي محمد ابن أبي عامر ليلة أخذ البيعة لهشام وهو يُعلمه كيف يجلس جلوس الملوك عندما يقدم المبايعون أفواجًا متموجة، مع العلم أنه لم يفُته سابقًا أن يعلمه آدابَ الملوكِ وعاداتِهم السلطانية بما يبعث من هيبة وسلطان في قلوب الناظرينَ والوافدِين إليه.

وأشرقت شمس الصباح على الزهراء فبدت كعروس وقد كملت زينتها، ترفل بمأذنتها الشامخة كتأريخ بني أمية، ونهرها المتموج كعظمة جيش الحكم، والجبال الشامخات كعصر مولانا الحكم، اليوم من أعظم أيام قرطبة، ففيها سيعهد مولانا أمير المؤمنين الحكم بن عبد الرحمن الناصر بالخلافة لولده الأمير هشام، وأي أمير؟ هو لم يكمل العاشرة، هو السلطان الذي عمى عين الحكم عن الحق ورؤيته، وأي ضلال؟ هو ضلال عظيم أن تعهد بملك عظيم وارث بني أمية لصبي مع وجود من هم أفضل منه.

يجلس الحَكم في مجلس الحُكم البهي الذي بناه أبوه عبد الرحمن الناصر وما زال أعجوبة الدنيا، فما دخله سفير أو وزير أو أمير إلا

وتعجب واستصغر ما رأى في باقي الممالك، وذلك هدف عبد الرحمن الناصر رحمه الله.

وجنب كرسي الخلافة كان كرسي ولي العهد، وقد جلس عليه الأمير الصغير، وجنبه وقف ابن أبي عامر والمصحفي وفائق وجؤذر، وجموع الوزراء والقضاة والوجهاء من إخوة الحكم وسائر بني أمية.

فبدأ الحكم قائلاً:

الحمد لله رب العالمين، من اختار بني أمية لحمل لواء هذا الدين، فجعلهم خلفاءه في الأرض يحكمون بما أنزل، فأجزل العطاء والنعماء والمحبة لمن عدل؛ فقال عز وجل في كتابه بعد بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ االله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، والعذاب والبأساء لمن حاد وانحرف، حيث قال ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٥٤)، والصلاة والسلام على سيد العادلين وإمام المتقين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد:

يقول الله تعالى في محكم كتابه: (إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ الله كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا). أمرنا الله أن نحكم بالعدل وهذا دأب بني أمية منذ أن دخل جدي الداخل الأندلس، فعمرنا الأمصار كما تشاهد الأبصار، إلى أن بلغت الأندلس ما بلغت من عظمة وسلطان وعزة ومنعة وبنيان، فرأيتم ملوك النصارى عند أقدامنا راكعين مهانين.

أنا العبد الفقير الذليل المضطر الحقير المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر أعهد بالخلافة إلى ولدي هشام المؤيد بالله، اخترته لما توسمت به من النجابة والمهارة الكافية للقيام بشؤون الخلافة من بعدي، وأعلم أن هناك أصحاب مطامع ومطامح يسعون

سعيًا حثيثًا، ولكن شتان ما بين اللاهي والمتذكر، والساهي والمتفكر، وما يستوي الظل والحرور، والحزن والسرور، والظلمات والنور، فها أنا أعهد بالخلافة لولدي وعليه عهد الله وعهد رسوله والخلفاء الراشدين والمؤمنين، وأنتم عليه شهود الحق والعدل.

وبدأت مراسم أخذ العهد، فانحنت جباه القضاة وكبار القوم للصبي مبايعين، لكأن قلوبهم كانت تقول ما به يسخر منا؟ هل حسبنا بلهاء إلى هذه الدرجة؟ وهكذا تقترب الأندلس من الهاوية، وينتصر رأي صبح عند الخليفة على رأيي العقل، ويمضي بالخلافة نحو الانتحار والاندحار.

وهل يعمي حب الولد إلى هذا الحد؟ حد أن يضحي الإنسان بالوطن وكل ما يملكه، ويمضي كالمجنون بالعظمة يتخبط خبط عشواء!



(١٣)

لم نرسلك لتحقق معه، بل لتنفذ أمرنا،
غررتنا من نفسك، فانفُذ لشأنك أو فانصرف.

قرب رحيل الحكم ودنا أفوله، وذلك بعد إصابته بـ(الفالج)، فخفقت القلوب، وشاع في قرطبة أن مولانا الحكم قد مات، وكان قد قعد في فراشه لا يقوى على الحراك، فدخل محمد بن أبي عامر على المصحفي وقال وكان يعلم قلة حيلته وضعف تدبيره:

- يخرج ولي العهد في موكب مهيب، مولانا هشام المؤيد بالله، فإذا خرج في عظمته، هابته الأعداء، وخاف من كان في قلبه ذرة شك في قدرة سيدي هشام، لنسرع قبل أن تضطرب الأوضاع وتزداد الشائعات.

فقال بلا حيلة:

- ليكن ذلك.

فخرج الجيش ويتصدره ابن أبي عامر مع هشام وسط قرطبة في مشهد يبعث العظمة في النفوس والرهبة من مظهر الجيش القوي يتصدره ولي العهد، ليقول للناس أجمع إني: قادر على الحكم.

أما صبح تداري فرحتها بانتصار مكرها وكيدها وأخذ حق ولدها بالاصطبار، خاصة وأن مرض الحكم قد جاء على عجل دون

تريث، ولكن أبا عامر لم يكف عن زيارتها ولقائها فهو القائم على شؤون القصر، وبقي يزين لها منصب أم الخليفة!

والفتيان الصقالبة محيطون بالخليفة يتحينون وينتظرون لحظة الانقضاض.

غُلقت الأبوابُ، وتكتم الفتيان الصقالبة على خبر وفاة الحكم، فقال جؤذر لفائق:

- ينبغي أن نحضر جعفر بن عثمان الحاجب، فنضربَ عنقه، فبذلك يتمُّ أمرنا.

فقال فائق متعجبًا:

- سبحان اللّه يا أخي! تُشير بقتل حاجب مولانا وشيخ من مشايخنا دون ذَنب! ولعلَّه لا يخالفنا فيما نريده، مع افتتاحنا الأمرَ بسفك الدم!

- وإن لم يوافقنا فيما ذهبنا إليه؟

- عندها نقتله.

وأتى المصحفي ودخل إلى القصر. فقال له جؤذر:

- أحسن اللّه عزاءك في أمير المؤمنين، وللّه ما أخذ وما أعطى.

فقال المصحفي مسلمًا:

- مات أمير المؤمنين! لا حول ولا قوة الا باللّه، وهل هيأتم أخذ البيعة لسيدنا هشام؟

- قد عزمنا على تغيير الأمر!

فرفع رأسه متعجبًا، وقال:

- وما عزمكم؟

- أن نبايع المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، فهو أصلح للمؤمنين.

- وعهدنا للحكم رحمه الله؟ والبيعة التي رقابنا لولده؟

- لن ننكث عهد الحكم، معاذ الله، بل نعطيه الولاية بعد المغيرة، عندها سيكون قد تمرس بالسياسة ودقائقها وصار قادرًا على حكم البلاد وتدبير شؤونها، وستكون ولاية العهد له بعد المغيرة، فهل أنت معنا فيما عزمنا عليه من صرف الخلافة إلى المغيرة؟

فنظر المصحفي حوله فوجدهم متسلحين متأهبين، وأدرك بفطنته إن رفض فسيقتل.

فقال:

- هذا والله أَسَدُّ رأي وأوفقُ عمل، والأمر أمركما، وأنا وغيري فيه تبعٌ لكما، فاعزما على ما أردتما، واستعينا بمشورة المشيخة، فهي أنفى للخلاف، وأنا أسير إلى الباب فأضبطه بنفسي، وانفذا أمركما إليَّ بما شئتما.

ففرح فائق وجؤذر ووثقا به، وخرج هو وضبط الأبواب واجتمع بصحبه وبطانته وقواده الذين يثق بهم كمحمد ابن أبي عامر وابن أخيه هشام بن محمد، فأخبرهم بما عزم الصقالبة عليه، وبعد طول النقاش قال لهم:

- إن حبسنا الدولة على هشام، أمَّنا على أنفسنا، وصارت الدُّنيا في أيدينا، وإن انتقلت إلى المغير استبدل بنا، وطلب شفاء أحقاده.

فقال أحدهم:

- فلمَ وافقت على ما قاله الفتية الصقالبة؟

- لو لم أوافقهما لقتلوني من فورهم.

فقال أحدهم:

- نقتل المغيرة قبل أن يبلغه وفاة أخيه، عندها سنقطع دابرهم.

وبعد النقاش استقر القوم عند هذا الرأي. فقال المصحفي:

- من يكفنا المغيرة؟

فجبنوا وسكتوا كلهم، فبادر محمد بن أبي عامر قائلاً:

- يا قوم، إني أخاف فساد أمركم، ونحن تبعٌ لهذا الرئيس (وأشار إلى المصحفي)، فينبغي ألا نختلف عليه، وأنا أتحمَّل ذلك عنكم إن أنفذني، فخفّضوا عليكم.

ففرح المصحفي من شجاعته وبسالته وتبعيته له، فقال له:

- أنت أحقُّ بتولّي كبره، لخاصتك بالخليفة هشام، ومحلَّك من الدولة.

وقام ابن أبي عامر من فوره وأرسل المصحفي معه ثلة من الفرسان الشجعان الثقات، واقتحم ابن أبي عامر دار المغيرة، فوجده ساكنًا مطمئنًا لم يدرِ بشيء بعد.

وذعر من رؤية الجند مع ابن أبي عامر، فقال أبو عامر:

- رحم الله أمير المؤمنين الحكم، قد توفاه الله منذ قليل.

فقال المغيرة مذعورًا وقد أدرك أن الصقالبة فضحوا أمره:

- رحمه الله!

- وقد اعترف عليك الفتى جؤذر وفائق، من نكص بيعة أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله أعزه الله، وأن الخلافة تطلبها لك.

فقال متوسلاً:

- قد غرر بي يا أبا عامر.

- المصحفي وسائر أهل الرأي والمشورة بعثوني للتأكد من صحة الخبر.

فقال وهو يرتعش خوفًا وذعرًا:

- أعلمهم أني سامع مطيع، واف ببيعتي فتوثقوا مني كيف شئتم، ناشدتك اللّٰه يا أبا عامر احفًظ دمي وإني لخادم مطيع لكم وخادم لمولانا هشام.

ورقَّ ابن أبي عامر لتوسلاته وكانت زوجه تقف أمامه هي وأطفاله، فكان منظرهم وهم يبكون مدعاة لرأفة ابن أبي عامر، فأرسل رسولاً يخبر المصحفي بأمر المغيرة، فقال المصحفي بغضب:

- قل له لم نرسلك لتحقق معه، بل لتنفذ أمرنا، غررتنا من نفسك، فانفُذ لشأنك أو فانصرف.

فقرأ محمد جواب المصحفي وناوله للمغيرة، فخرج وأمر جنوده أن يقتلوه خنقًا، فعلقوه في مجلسه، فكان منظره كمن شنق نفسه، وأشاع عمال ابن أبي عامر المدسوسون بين العامة أن المغيرة شنق نفسه بعد أن أكرهوه على مبايعة ابن أخيه، ولم يستطع حرم المغيرة وأهله أن ينكروا أو ينبسوا ببنت شفة حفاظًا على أنفسهم.

واستقبل المصحفي أبا عامر وهو فرح مبتهج بما أفاء عليه من حفظ ملكه ومنصبه وضياعه، فالمغيرة كان يبغض بطانة وحاشية أخيه الحكم.



ودهش جؤذر وفائق من وقع الخبر، فقال فائق:

- هل يعقل أن المغيرة شنق نفسه؟!

- أيها الأبله بل قتلوه وسفكوا دمه.

- وما العمل؟

- قد نصحتُ لك، فلم تسمع مني.

ومثلا بين يدي المصحفي وهما يعتذران، فقال جؤذر:

- إن الجزع قد أذهلنا عمَّا أرشدك الله إليه، فجزاك الله عن ابن مولانا خيرًا، وعن دولتنا وعن المسلمين.

- حصل خير، والآن جهزا أمير المؤمنين الحكم للدفن.



(١٤)

(سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)

أشرقت الشمس على قرطبةَ فبدت حزينةً كئيبةً، ساكنة كجثة هامدة بعد ليلة صاخبة، بعد أن كادت تتغير مصائر الأندلس، وكانَ عرشًا الخلافة كسعف النخيل الذي يتقلب في الهواء، ولكن أبا عامر أثبت بأسًا وجدارة في المواقف العصيبة نالت حظوة عند المصحفي، الذي صار يعتمد عليه ويتوجس منه في آن واحد؛ يعتمد عليه فهو الوحيد الذي لا يهاب المهام الصعاب ويظهر ولاءه له، ويتوجس من فطنته ودهائه وسعة حيلته، يخاف أن يستحوذ على ما بين يديه، يخاف من كرم وسخاء وعطايا ابن أبي عامر إذا قيس ببخله وقلة إنفاقه. لا يسمع في الزهراء غير البكاء والعويل واللطم إضافة إلى الصراخ العالي، وهذه صبح تبكي وها هو الجمال يرى الدموع!

إنه صباح يوم الاثنين لأربع خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمئة، وسيجلس فيه مولانا أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله بن الحكم، وأقبلت جحافل المبايعين ولم يتخلف أحد أبدًا.

كانت جثة المغيرة المعلقة في بيته قد بعثت الرهبة في قلوب أهل قرطبة، وصار عبرة لكل طامع في الخلافة من المروانيين وغيرهم، وإن لم تنطق بالحادثة الألسن وتشاهدها الأعين، ولكن القلوب وعت الدرس جيدًا.

كان الناس في المقبرة متوشحين بالبياض كعادة أهل الأندلس، هم يتقنون الحزن لدرجة أن خصصوا ثيابًا له، هنا يحتفون بالموت، أليس هو الحقيقة الراسخة التي لا تحيد؟ ألا يستحق أن نرتدي له زيًا؟ البياض لباس حزن في أندلسنا وهذا من الصواب، ألم ترَ الشيخ يحزن على شبابه بلباس الشيب؟ ككهل ودَّع شبابه بشيب حزنًا؛ تودع الأندلس شبابها الذي انتهى بلبس البياض، كان الحكم آخر ربيع أموي وهكذا ودعه أهلها، وهل علموا أن الحكم هو خاتمة ربيعهم المثمر الغدق؟

وبعد صلاة الظهر حملوا الحكم، الربيع المزهر لأندلسنا، كان جبلاً راسيًا شامخًا كجبال قرطبة فكيف ستحويه الأرض؟ كيف ستحوي جبلاً انتصب أمدًا فوقها؟

رحل خليفتنا، الموت؟ كيف أنت؟ قل لي بربك كيف استطعت أن تخطفه منا ليتحامله الناس هذا الذي ركعت بين يديه الأمم، وخضعت الطغاة له يرحل؟ ليدفن الحكم، وتوضع لوحة عند رأسه ويكتب عليها: (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)، هذا قبر أمير المؤمنين الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، غفر الله له ولوالديه وللمسلمين.

وأُخذت البيعة لهشام وهو جالس لا يدرك شيئًا، ولم يشغل قلبه إلا أبوه الذي دفن منذ قليل، ألا يحق له أن يبكي كما يبكي الأبناء على آبائهم؟

وهو يرى أعاظم الرجال تقبل يده وتخضع له كان يحدث نفسه: لمَ يا أبا عامر حذرتني من البكاء والنحيب؟ تقول: أنت سلطانٍ ولك هيبة، والبكاء يسقط هيبة الخليفة في أعينٍ رعيته، ولكني طفلٌ قبل أن أكون خليفة، لم أعقل من الدنيا بعد شيئًا حتى أقيد بهذه الآداب السلطانية، أريد أن أصرخ، أن أبكي كما يبكي الناس العاديون على

موتاهم، أنا لم أشاهد أحدًا يبكي على فراق أحد، لأني لم أرَ أحدًا يفارق حبيبه أو خليله، ولكن شيئًا في أعماقي يريد أن يصرخ أن يبكي كثيرًا، لأني أتعذب كالشعراء الذين قرأتُ سيرتهم وهم يعانون من ألم الوجد، مات أبي وعليَّ ألا أبكي أمام أحد، كي لا تسقط هيبة الملوك، وفوق هذا يجب أن تبايعني كل هذه الجموع الغفيرة، هل سأقضي عمري وأنا أتحلى بأدب الملوك والخلفاء؟ إذًا متى ألعب مع الصبيان؟ ومتى أجرب كلّ تلك الألعاب التي يتقنها هشام بن معمر الوراق ولم يعلمني إلا الشيء اليسير؟ يقول أن كل صبيان قرطبة يعرفونها وأنا الذي أحكم كل قرطبة لا أحسن ما يحسنه الصبية، وإن لم أحسن ما يحسنه الصبية فهل سأحسن تدبير الملك والسلطان؟ ولكن أنا لا أدبر شيئًا، أبو عامر هو من يدير كل شيء، منذ أن وعيت على هذه الدنيا وأنا لا أصنع شيئًا غير ما يريده ويشور به محمد، حتى هذه الجلسة هو من قال لي هذا، إني صبي فلمَ يتوجب عليَّ أن أقوم بما يبهر الرجال الكبار؟

محمد بن أبي عامر هو القائم بشؤون البيعة مع المصحفي، وما أن فرغ كبار القوم من بيعة هشام على السمع والطاعة في المنشط والمكرب حتى أشار ابن أبي عامر إلى القاضي ابن السَّليم، فقام وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهلٌ له، وبيّن للقوم فضل اجتماع الكلمة على سلطان واحد، وأوصاهم بالطاعة لأمير المؤمنين هشام المؤيد.

- مولاي أرى خير ما تفتتح به عهدك هو تقربك للرعية، والعطف عليهم، وأول ما ينبغي فعله هو أن نعفيهم من دفع ضريبة الزيت، فقد أثقلت كاهل الضعفاء من الرعية.

كان ابن أبي عامر يتحدث وهشام مطرق لا يعي شيئًا وجنبه أمه ووصيته صبح، فقالت:

- نعم يا ولدي، ما قاله محمد هو الصواب.

فقال أبو عامر وقد اطمئن للهجة صبح ولثقتها به:

- يجب أن يكون السلطان كريمًا منفقًا، ومن كان أول عهده رفع الضرائب وتحرير العباد من ثقلها فعهده سيكون مشرقًا بإذن اللّه تعالى.

فقالت صبح:

- وهذا هو الرأي يا ولدي.

ووُضِعت ضريبة الزيت عن العامة ففرح العامة واستبشروا بأيامه.

حتى إن هشام بن معمر الوراق سأل أباه:

- كل الناس تثني على صديقي هشام الذي أعرفه؟!

- يا ولد قل مولانا هشام.

- ولكنه صديقي، ولا كلفة بيننا.

فقال معمر مترفقًا:

- يا ولدي إن وطئت قصره ورأيته فبالغ في الاحترام والمجاملة، واحذر من طيش الصبيان ونزقهم، فأنت تصاحب أمير المؤمنين، وربما رفعك مكانًا عليًا إذا توثقت الصحبة كما فعل أمير المؤمنين الحكم مع المصحفي، فهذا المصحفي (ثم بصوت خفيض) رجل شحيح، خالٍ من صفات الكرم والمروءة السامية، فلم يبلغ ما بلغه حتى وصل إلى الحجابة بمهارة أو سياسة أو

شجاعة، فهو بخيل جبان، لم يغزُ يومًا، إنما بلغ ما بلغ بصحبة الحكم رحمه الله، كان رفيق طفولته وشبابه، هل فهمت؟

فقال هشام ببلادة:

- فهمت، تريدني أن أكون كالمصحفي، أليس كذلك؟

فضرب معمر جبهته براحته وهو يقول:

- ساعدني يا ربي، وأعوذ بك من البله والخرق والحمق، وجنب ولدي هذا الأخرق من الغباء الموغل، وارزقه ذكاءً وفطنة كابن أبي عامر.

- فهل تريدني أن أكون كأبي عامر؟

فقال بصوت عالٍ:

- لا أريدك أن تكون شيئًا، اللهم أعنِّي عليه.



(١٥)

نحن نركع للقوي، فنقدسه ما دام حسامه مسلولاً.

- والرأي عندي يا مولاتي أن نختار المصحفي حاجبًا، فما زالت شوكته قوية وله أنصار كثر، ولا تنسي أن ولده صاحب المدينة، وابن أخيه من أهل العقد والتدبير في دولتنا، وتعلمين أن المصحفي من شيوخ الموالي، وما زالت له كلمة مسموعة في قومه على فساده وشحه، وقد كثر الفساد والشر في قرطبة منذ أن تولى ولده أمر المدينة.

فقالت صبح:

- فلمَ لا نعزل ولده؟ ونبعد ابن أخيه، فيبقى وحده منعزلاً، وقبل أن يعرف ماذا حصل له نهوي عليه بالضربة القاضية، وهذا لن يصعب عليك يا محمد، فتريح وتستريح.

- التريث التريث يا أم هشام، لسوف تبقى هذه الدولة كلها لمولانا هشام لا ينازعه فيها أحد إلا وقسمته، وأنا عليم بأمور رجال الدولة.

- مستقبل ولدي بين يديك يا محمد.

- وهل عرفتِني إلا خادمًا مطيعًا؟

فقالت مستسلمة:

- بلى.

- والآن ليصدر قرار تولية المصحفي الحجابة.

- ألم تجهز كتابًا؟

- بلى، هذا، ولا يحتاج إلا توقيع أمير المؤمنين، وهذا الآخر.

- وما هذا الآخر؟

- تقليدي الوزارة.

وأُعلن تقليد المصحفي الحجابة وابن أبي عامر الوزارة، ولم يلبث أن خطط الاثنان لمحق الصقالبة، فلم ينسَ المصحفي فعلة جؤذر وفائق من محاولة قلب نظام الحكم، ووصلت إلى أسماع المصحفي، فضيقا على الصقالبة وأغلقا الباب المخصص لهم للدخول والخروج، وكله بتوقيع هشام وختمه.

ثم إن جؤذرا استأذن هشام أن يترك خدمته وأن يستعفيه فعفاه من فوره، وكان يظن أن الخليفة يهتم به أو يقيم له وزنًا.

وبمكيدة من أبي عامر جاء كبير فتيانهم واتهمه بأخذ أراض اغتصابًا وجبرًا، وأتى أبو عامر بالشهود، فتجاذبا وكاد يقتل أبي عامر بعد أن تمكن الفتى منه، فصاح على الجند وجاؤوا وقبضوا عليه، وأعادوه إلى داره وقتل من ليلته، فنكل ابن أبي عامر بهم، ولاحقهم، وقتل الكثير منهم.

وما كادوا يفرغون منهم حتى جاس العدو أرض الأندلس وتمادى، فغضب محمد بن أبي عامر.



- العدو وصل إلينا، بالقرب من قرطبة، ألا ننازله ونرده؟ وقد رأى اضطراب البلاد بعد وفاة الحكم رحمه الله، ظن أننا لا نقدر على رده، وغالب الناصري وجيش الثغر لا يحاربونه، ينتظرك أنت.

- وغالب؟ ما عمله؟

- بل أنت ما عملك؟

- أليس هو رأس الجيش، جيش الثغر، وهذا العدو قادم لا محالة، فلينبري له هو، وليقاتلهم كما يتوجب عليه.

- يا أبا الحسن، جيش العدو ليس من جهة الثغر الأوسط الذي يتولاه غالب، ثم إن غالبًا ينتظرك أنت، أليس بحوزتك جيش الحضرة؟ ينتظر هذه اللحظة أن تقف عاجزًا، فيقول للناس أجمع: هذا المصحفي الذي تولى أمر دولة أمير المؤمنين هشام لا يستطيع أن يرد جيشًا لم يكن يستطيع أيام الحكم أن يتفوه علينا بكلمة بل كان يطلب الصلح والأمان، والآن يتقدم نحو قرطبة، وهذا المصحفي وبحوزته جيش جرار عاجز عن رده، ثم سرعان ما سينبش الحقد القديم الذي بينكم، أم تراك نسيت؟ نسيت المشاحنة والمباغضة القديمة؟

فقال المصحفي متأثرًا بخطبة ابن أبي عامر تأثرًا يفضي للاستسلام:

- سنجهز جيش الحضرة للخروج، فمن يقود الجيش؟

فسكت كل أعوان المصحفي ومنهم ابن أخيه، فقال ابن أبي عامر:

- أنا لها يا أبا الحسن.

- وهل تقدر؟!

- بإذن اللّه ولكنَّ لي شرطان: الأول أن أختار من يخرج معي من الرجال، والثاني أن آخذ مئة ألف دينار للغزو.

فاعترض ابن أخي المصحفي قائلاً:

- مئة ألف دينار كثير.

فردَّ أبو عامر كالسهم:

- خُذ ضعفها وامضِ، وليغن غناؤك.

فوافق المصحفي على مضض، إذ لا حل سواه، فغالب الناصري القائد العظيم، كان بينه وبين المصحفي منافسة، فهو يرى أنه أحق من المصحفي بتلك الرتب، فهو يحاول ذله، لأن المصحفي لا يحسن القتال فضلاً عن قيادة جيش وردّ عدو، وعرف ابن أبي عامر كيف يستغل هذه العداوة، فما إن انتهز لقيادة الجيش حتى اشترط أن يختار الرجال، كي يختار أشجعهم، ومئة ألف دينار ليبهرهم بكرمه وسعة جنوده، فيبقوا له أوفياء.

وبعد ثلاث وخمسين يومًا يدخل محمد بن أبي عامر قرطبة ظافرًا منتصرًا، بعد أن نازل الأعداء وانتصر عليهم، وسبى وغنم، وسط ترحيب العامة به، والهتاف له، وكانت العامة تهتف له: أبو عامر يا منصور.

فهو الذي ردّ العدو وخرج مجاهدًا يوم قعد المصحفي ورهطه وهو أولى بالمهمة.

هذا هو أبو عامر، قد حاز النصر، ودخل متوجًا بالهتافات والنداءات، وما أكثر ما ستهتفه قرطبة للقواد؟

هم يصفقون للقوي دائمًا، لمن يجلب النصر، وما أكثر تصفيقهم؟ وما أكثر تقلبهم؟ يصفقون اليوم له، وقد يبصقون غدًا عليه، وهم أنفسهم، نفس الوجوه ونفس الحناجر ونفس الأسبال، نحن نركع للقوي فنقدسه ما دام حسامه مسلولاً.

(١٦)

سيظهر لك بهذا الفتح اسمٌ عظيمٌ وذكرٌ جليلٌ.

في حدائق الزهراء المخصصة للحريم وقد حفتها الزهور من كل جانب فبدت نضرة جلس محمد بن أبي عامر مع صبح يشرح لها خلاف المصحفي مع غالب الناصري، وما له من آثار على الأندلس، فقال لها:

- علينا أن نختار واحدًا منهما، أما الناصري أو المصحفي، ومن نختاره يكون هو الأثير المكين عندنا، أما جعفر المصحفي فلم يؤتَ حظًا من الشجاعة التي يمتلكها الناصري، وإن فضلناه وأبقيناه مقدمًا في دولتنا، ويتمتع هو وأبناء قومه من الموالي خسرنا غالب الناصري، وهو حامي الثغور وقائد جيوشها، فإذا ضحينا به في سبيل المصحفي ازدادت الدولة ضعفًا، وهزلاً، وفسادًا، حسبك أن تعرفي نسبة السرقات في قرطبة وطيش الزعار منذ أن تولى ابن المصحفي أمر المدينة، بل قيل لي يا مولاتي إنه يجلس مع صحبه من الزعار والفساق في المكان المخصص للحكم، يلعبون ويشربون، وآن أن نتخلص منهم.

فقالت صبح:

- وكيف ستتجاوز المصحفي وله ما له من الأنصار والأعوان؟

- الآن سنصدر قرارًا بتولية غالب الناصري الوزارتين، وتلقيبه بهذا اللقب، عندها سيدرك المصحفي عظم الخطب الذي وقع به، وأنه لا مناص من المواجهة.

- هذا بمثابة إعلان الحرب عليه.

- وهو كذلك يا سيدتي، يجب أن نتخلص من المصحفي وأعوانه.

وقع الخبر على المصحفي، فغم غمًا شديدًا، وأدرك أنَّ أبا عامر قد عزم على الفتك به، فهذا أمر الخليفة يقلد غالبًا خطة الوزارتين ويطلب من غالب التعاون والتدبير على الصوائف، فابن أبي عامر يقود جيش الحضرة، وغالب جيش الثغر.

جيش الحضرة!

كان المصحفي يتحسر على هذا الجيش الذي أضحى بين يوم وليلة تحت إمرة ابن أبي عامر، ولكن ألم يعلم المصحفي أن الجيش للشجعان؟

والتقى في الغزو ابن أبي عامر وهو على رأس جيش الحضرة بغالب الناصري، فمضيا فاتحين، وأبلى غالب بلاءً حسنًا، وخدم ابن أبي عامر خدمة لا توصف، إذ نسب كلَّ انتصاراتهم لابن أبي عامر، وكتب بذلك غلى الخليفة، يشرح له شدة بأسه وقوة نكاله بالأعداء، ولم يكن تنازل الناصري لابن أبي عامر من فراغ، فقد وعده أن يقضي على المصحفي ونفوذه، وأول ما يبدأ به هو محمد ين جعفر المصحفي صاحب المدينة ومدبر شؤونها، فقد ظهر فساده وغيه، حتى أن غالبًا قال لابن أبي عامر عند وداعه: سيظهر لك بهذا الفتح اسمٌ عظيمٌ وذكرٌ جليلٌ، يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصَّة، فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلَّدَها دونه.

فعاد ابن أبي عامر وقد ذاع صيته، وصار القائد الأوحد، ولم يعد يهاب المصحفي أو غيه، فمعه العامة والجيش، وفوق ذلك أم الخليفة صبح.



وما إن وصل ابن أبي عامر إلى قرطبة حتى صدر أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر وتولية محمد بن أبي عامر ذلك، وكله دون علم المصحفي وهو الحاجب ومدبر الدولة، وكان محمد بن جعفر جالسًا في أبهته، فدخل عليه ابن أبي عامر بأمر العزل، فكان مشهده أمام أهل قرطبة مذلاً له ولأبيه، وظل يذكر أهل قرطبة هذا المشهد وكيف طرد مهانًا، وما أكثر الظالمين الذين ولوا أمر قرطبة ثم أذلوا؟

وبدت حرب صامتة بين الرجلين، المصحفي ومحمد بن أبي عامر، كيف له أن يغلب ابن أبي عامر؟ فمخالفة ابن أبي عامر وحدها انتحار، الجاه والقوة، الذكاء والحيلة، النفوذ وقوات الجيش كلها تحت أمرته، ومن بعدهم أم الخليفة وقد شغفها حبًّا، فكيف للمصحفي أن يواجهه؟ منذ أن تولى أمر المدينة قد ضبطت أحوالها، وارتاع زعارها، ولم يجدوا غير السجن مأوىً ومثوى، وأقام العدل، فأمنت البلاد من شر السراق والفسّاد الذي شاع أيام ابن المصحفي، وسدَّ باب الشفاعات وقمع أهل الفسق والفجور، وأقام الحدود، حتى أنه عثر على ابن عم له فأقام عليه حد شرب الخمر، وجلده بيده جلدًا مبرحًا، فانتهىً الشر في أيامه.

وفكر المصحفي في سر بلوغ ابن أبي عامر المراتب وارتفاعه، ليصلح أمره الذي بدأ يخرج من يده، فأدرك عداوته لغالب الناصري، فقال لولده وابن أخيه:

- نجدد العهد مع الناصري، ونصاحبه بالمصاهرة!

فقال ولده ببلاهة وصفاقة بعد:

- وكيف هذا؟

فرد المصحفي كاظمًا غيظه:

- له بنتٌ حسناء!

فقال هشام ابن أخيه:

- فكرة حسنة يا عماه، نبعث إليه بذلك.

وكاتب المصحفي غالبًا، وكاد الأمر يتم، ولولا أن كشف ابن أبي عامر الأمر سريعًا، وبعث له يطلبها له، فاستشار الناصري ابنته ففضلت محمد ابن أبي عامر، وكانت أسماء هذه من أجمل النساء، فزفت إلى محمد، فكان عرسًا فخمًا، وصار حديث الناس.

وسرعان ما أخرج الخليفة أمرًا بتوليته الحجابة بالاشتراك مع المصحفي، وتولية ابن عمه عمرو بن أبي عامر أمر المدينة!



(١٧)

هذا وقت إجابة الدعوة!

وماذا بعد هذه القرارات إلا عذلي والتنكيل بي؟ ها أنا أجلس في بيتي بين أهلي، لا ملك ولا سلطان، بل أنتظر لحظة الختام، لم يعد في اليد حيلة، ولم يبقَ لي عمل إلا أن أنتظر نهايتي.

(هكذا كان يحدث المصحفي أهله) وبينما هو ماضٍ في كلامه سُمِعَ طرق عنيف، فقال: وصلوا.

فُتح الباب وإذا بابن أبي عامر وجنده، فقال له: جعفر بن عثمان المصحفي، أصدر أمير المؤمنين أمرًا باعتقالك أنت وولدك وابن أخيك.

فتبسم المصحفي وقال: كنت أنتظرك، إني آتٍ، سأودع أهلي.

فالتفت إليهم مبتسمًا ابتسامةً باهتة مجروحة: هذا وقت إجابة الدعوة! وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة!

فسُئل عما ذكره؛ فقال ونفسه الناكبة عن الرشد تعترف:

رفع على فلان أيام الناصر وسعى به إليه؛ فأشرفت على أعماله؛ فآل أمره إلى ضربه وتغير نعمته وإطالة حبسه، فبينما أنا نائم ذات ليلة، إذ أتاني آت؛ فقال لي: (أطلق فلانًا؛ فقد أجيبت دعوته فيك؛ ولهذا أمر أنت لَا بدَّ لاقيه!) فانتبهت مذعورًا، وأحضرت الرجل، وسألته إحلالي؛ فامتنع عليَّ؛ فاستحلفته على إعلامي بما خصني به

من الدعاء؛ فقال: (نعم! دعوت الله أن يميتك في أضيق السجون كما أعمرتنيه حقبة) فعلمت أنه قد وجبت دعوته، وندمت حيث لا ينفع الندم، وأطلقت الرجل؛ ولم أزل أرتقب ذلك في السجن، وعندما رأيت ابن أبي عامر هذا الذي يقف في الباب وسيذلني جاءني خاطر ذاك الذي ظلمته، ولكني لم أخشَه لأنه كان صغيرًا، فانظر إلى الأقدار.

وخرج المصحفي مقيدًا مصفدًا مذلولاً، وسرعان ما ضُرِبَ عنق ابن أخيه هشام بن محمد لعداوته الشديدة لابن أبي عامر.

وما إن أغلقت أبواب السجن عليه وجلس وحيدًا في محبسه، ولا يكاد يبصر أطرافه من الظلمة الحالكة كليل المظلومين حتى قال:

لا تَأمَنَنَّ مِن الزّمانِ تَقَلُّباً

إنَّ الزَّمـانَ بأهِلـهِ يَتَقَلَّبُ

ولَقَـد أراني والليوثُ تَهَابُني

وأخافني من بعد ذاك الثَّعَلبُ

حَسبُ الكَرِيمِ مَهَانـةً ومَذَلّـةً

ألاَّ يزال إلى لَئِيـمٍ يَـطْلُبُ

وأُخِذَ ماله، ولم يعد له شيء، وكلُّ ذلك وهو لا يمل من كتابة قصائدَ الاستعطاف، فبعث له يومًا:

عَفَا الله عَنْكَ ألا رَحمةً

تَجُـودُ بعَفْـوِكَ أن ابعَدَا

لئن جَلَّ ذَنبٌ وَلَمْ أعتَمِدهُ

فَأنتَ أجَلُّ وأعـلَى بَدَا

أَلَمْ تَرَ عَبداً عَدَا طَورُه

ومَولي عَفَا ورَشِيدا هَدَى

ومُفسِدَ أمرٍ تلافيتَه

فَعَاد فَأصلَحَ ما أفسَدَا

أقِلني أقَالَكَ مَن لم يَزَلْ

بَقِيكَ ويَصْرِفُ عَنكَ الرَّدَى

فقال أبو عامر:

- يحسبني أعفو عنه بهذا الكلام!

فقال ابن عمه:

- أبا عامر، إن جعفرًا من أشدِّ الناس حبًّا للدنيا، حتى أنه يتوسل لك أن تجعله ولو مؤدبًا لولديك.

فتبسم المنصور ساخرًا، وقال بحزم:

- أراد أن يستجهلني ويسقطني عند الناس، وقد عهدوا مني ببابه مؤملاً؛ ثم يرونه اليوم بدهليزي معلما!

- ناقشه فيما ارتكب.

ثم جد ابن أبي عامر في مكروهه، وأدق حسابه، وأمر بإحضاره إلى مجلس الوزراء بقصر الخلافة، ليناظر بين أيديهم فيما ادعى عليه من الخيانة؛ فتردد إلى هذا المجلس مرارًا، وأقبل آخر مرة إليه، وواثق الضاغط يزعجه، والسن قد هاضاه، والموكل به يحذوه

ويستحثه؛ فيقول له جعفر: يا بني رفقًا؛ فستدرك ما تريد! ويا ليت أن الموت بيع، فأغلى الله سومه.

وبعد طول النقاش لم يسفر شيء جديد، بقي في محبسه، وكتب إليه يستعطفه بقوله:

هبني أسأت فأين العفو والكرم

إذ قادني نحوك الإذعان والندم

بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر

إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فما زاده ذلك إلا حنقًا وحقدًا وما أفادته الأبيات إلا تضرمًا ووقدًا، فصار ابن أبي عامر يتمثل بهذه الأبيات:

الآن يا جاهلاً زلت بك القدم

تبغي التكرم لما فاتك الكرم

أغريت بي ملكًا لولا تثبته

ما جاز لي عنده نطق ولا كلم

فايأس من العيش إذ قد صرت في طبق

إن الملوك إذا ما استنقموا نقموا

نفسي إذا سخطت ليست براضية

ولو تشفع فيك العرب والعجم

وما لبث أن خرج من سجنه ميتًا، وقيل مات مسمومًا، ولكن لا أحد يعلم، وما أكثر أسرار قرطبة أيام ابن أبي عامر!

يقف كليث منتصر ظافر، يتحدى الأعداء فهل من مبارز؟ كلهم جبنوا وانكسروا، من عانده وخالفه قسمه، ومن انحرف بطش به، لم يبقَ إلا صديق صدوق، أو عدو لاذ بالصمت جبنًا وخوفًا من نكاله.

لم يعد هناك من يقدر عليه، يصعد في سلم العظمة والمجد سريعًا.

وهكذا تمضي أيام قرطبة أثناء حكم الحاجب محمد بن أبي عامر، رخاء وأمان وسلام ووئام، أيامها هادئة مستقرة، يغزو صائفًا وشاتيًا، وفوق ذلك يهابه النصارى.



السِفر الثالث



(١٨)

إنما الحكم عقلٌ وسيفٌ، فإذا فقدت أحدهما اختل السلطان.

كان ابن أبي عامر يركب فرسه مع ابن عمه، ومضيا إلى طرف قرطبة وعلى نهرها الكبير، حيث الهواء العليل يداعب أشجارها، وعند الأصيل وليلة قرطبة البهيج قد أقبل وبما يحمل بين طياته من المرح والسرور، فقال ابن أبي عامر:

- ستكون لنا هنا مدينة ملوكية عظيمة، أريدها أن تكون أضخم من الزهراء، ننقل فيها الدواوين وشؤون الدولة كلها، وتكون حاضرة ملكنا.

- ولِمَ يا أبا عامر؟

- الزهراء من مآثر الناصر رحمه الله، وأليس هو من كان يتغنى بهذه الأبيات؟:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم

مُلك محاه حوادث الأزمان

إنَّ البناء إذا تعاظم شأنه

أضحى يدل على عظيم الشان

أجل، ألسن البنيان، سأجعلها حاضرة يتغنى بها الشعراء، وتنسيهم الزهراء، ولا تنسَ أن الزهراء من مآثر بني أمية، وفيها الخليفة هشام المؤيد، وكلما دخل أحد لها ورأى الزهراء وتذكر الناصر رحمه الله وأيامه والحكم وعهده، عاد يسأل أين هشام، ألم يبلغ الحلم؟ فتكون الزهراء كالمنبه؛ تذكرهم ما حاولت أن أنسيهما، أريدهم أن ينسوه تمامًا، هذا هدفي.

- وإن بقي هشام وحيدًا في قصره ألن يحصل له ما تقول؟ ألن يصل إليه من يقلبه عليك؟ وحتى إن لم يقلبه عليك؛ فلسوف ينفث فيه ما يقلبه ضدك، حتى إذا اشتد عوده وعرف حقه أخرج ما في نفسه من دفائن قد نُفِثت فيه.

- وهل سيصل إليه أحد؟ ألا تعلم منذ أن وُلي الأمر وهو وحيد في قصره، لا يصل إليه أحد من أهل النفوذ إلا أنا وأمه.

- وأنت قلتها، أمه! أم هشام هي الخيط الرفيع بين الذروة والحضيض، وهذا الخيط الرفيع أنت دائم الشد عليه بلا هوادة؛ فلا بدَّ أن ينقطع يومًا.

- ماذا تعني؟ تريد أن تقول ...

- نعم، ولمَ لا؟ أم حسبت أنها ستبقى أبد الدهر طائعة لك، تسير خلفك من غير تفكير؟ مهما طال خداعك لها ستفيق يومًا؟

- ومن قال أني خدعتها وخدعت هشام؟

- بل خدعتهم، يوم عزلت هشام عن المعترك وتركته وحيدا في قصره أسيرًا، وإن لم يكن خداعًا فماذا تسميه إذًا؟ ولا تحسب الناس لا تعلم ما قمت به، ولكنهم يهابونك، يهابون بطشك.

- لو علمت أن هشامًا قادرٌ على الحكم لما بقيت لحظة إلا خادمًا مطيعًا له، وما زلت مطيعًا، ولكنه لا يحسن التدبير، وأنا أعلم بنفسي منكم، أنا أعلم أني قادر على خدمة الإسلام أفضل من سائر الذين ذهبوا المصحفي، المغيرة، الصقالبة، كلهم يظنون أن المنصب والملك هو غنيمة، يريدون مغانمها دون مغارمها، فهل ترضى؟ لو بقي الحال ولم أفعل ما فعلت لما بقي إسلام في الأندلس، ولن تبقى أندلس إذا حكمها أناس طامعون في المغانم والمال وأبهة السلطان، دون أن يلجوا ساحات الوغى، إنما الحكم عقل وسيف، فإذا فقدت أحدهما اختل السلطان.

- وإن قامت السيدة صبح وصحت من سباتها؟ أنت تعلم أنّ صبحًا لا يهمها الإسلام أو الأندلس بل يهمها ولدها، تريده سلطانًا حقيقيًا، فإذا بلغ الرشد وأضحى رجلاً طالبت بحقه؛ عندها ستكون كالثور الهائج إذا أفلت.

فقال أبو عامر ساخرًا:

- وماذا ستفعل آنذاك؟

- تجمع أنصار الخليفة، أم نسيت أنك عظمت أمر الخليفة وصار الكل يهاب قوته؟ أم تريدنا أن نكذب الكذبة ولا نصدقها؟

- صدقتها العامة.

- وهل تحسب أنهم لا يعلمون أنه كذب؟ ولكنهم يصدقون الكذب بالقوة.

- وقوته هي قوتي، وقوتي قوته، وأنا من صنع قوة زائفة له، وليس هو، وبعد بناء مدينتي الملكية لن يبقى شيء في الزهراء، صاحب الشرطة، الدواوين، السجلات، وكل شيء في مدينتي، وستغلق الزهراء ولن يدخل لها أحد، فأنى لها القوة؟

والحق ما قاله أبو عامر هو الصواب، فلم يعد هناك منافس، ولا يزال ذاك الشاعر الذي تناقل بعض أعداء أبي عامر أبياته همسًا:

اقتربَ الوعدُ وحانَ الهلاك

وكُلُّ ما تكرهُه قد أتاك

خليفةٌ يلعب في مكتب

وأمه حُبلى وقاض يناك

عبرةً لغيره، إذ ما لبث أن عرفت أعين الحاجب ابن أبي عامر قائلها، ولم يعرف من يومه أين هو، وهكذا يمضي وهو يقطع كل من يعاديه أو ينكر عليه، إلى أن استقرت الأندلس على يديه، وسكنت من الزوابع، فلم يبقَ إلا النصارى وهو ماضٍ بالفتك بهم.

يدرك ابن أبي عامر أن حديثًا يجري عند الكثير من أهل عن قرطبة عن علاقة بينه وبين صبح البشكنجية أم الخليفة، ولكنه حديثٍ طفيف لا تجرؤ الألسن على نطقه، ومن نطقه كان مصيره مجهولاً كمصير ذلك الشاعر، ولكن على أي حال تحدثت به نفوسهم.



(١٩)

رَمَيْتُ بَنفِسي هَوْلَ كُلِّ كَريهةٍ

وخَاطَرت والحرُّ الكَريمُ مُخاطرُ

وفي سنة ٠٧٣، انتقل محمد بن أبي عامر إليها وسماها (الزاهرة)، ونزلها بخاصته وعامته؛ فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته، وأمواله وأمتعته، واتخذ فيهَا الدواَوين والأعمال، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه، وقواده وحجابه؛ فاقتنوا بأكنافها كبار الدور، وأجمل القصور، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة، والمتنزهات المشيدة.

وقامت بها الأسواق، وكثرت فيها الأرفاق؛ وتنافس الناس في النزول فيها، والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة، وتناهى الغلو في البناء حوله، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت فيها الإمارة.

وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم، وصير ذلك هو الرسم الذاهب العافي، ورتب فيها جلوس وزرائه، ورؤوس أمرائه، وندب إليها كل ذي خطة بخطته، ونصب على بابها كرسي شرطته، وأجلس عليه واليًا على رسم كرسي الخليفة، وفي صفة تلك الرتبة المنيفة.

وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك الأموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب

الحوائج، وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة أحد، فانحشد الناس إليها من جميع الأقطار، وتم لمحمد بن أبي عامر ما أراد، وانتظم بلبة أمانيه المراد؛ وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصبره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجدَّ في خبر ألا يصل إليه، تلك دولته، ولم يفته أن صنع ما يصنعه الملوك والخلفاء من حشد الأدباء على بابه.

وفي ليلة من ليال الزاهرة العامرة البهيجة؛ وما أكثر ما ابتهجت الزاهرة؟ وقد بدت منيرة كالقمر يجمع أبو عامر الوزراء والأدباء والقواد للسمر، فترقص القيان، ويأتي كل أديب ببضاعته. أهل قرطبة من أشد الناس ولعًا وشغفًا بالسهر والسمر، أليس شاعرهم من قال:

لا تنم واغتنم ملذَّةَ يومٍ

إنَّ تحتَ التراب نومًا طويلًا

فلا تكاد تمضي صلاة العشاء حتى يبدأ البهج والأنس، فهم أهل طرب ووله، ولا يكاد يخلو بيت أمير أو عظيم من رقص القيان وضرب العودان، ودائمًا تكون هناك جارية لعوبة جميلة تغني روائع الغزل، وبعضهن لا يغنين منه إلا أفحشه، فإذا سكن الليل وجلسوا يتنادمون ويتسامرون، وغنت حسناء كان صوتها أعذب من خرير مياه الجنة، ينساب في آذانهم عذبًا دافئًا.

ابن العريف النحوي يدخل على المنصور بالعامرية وعنده صاعد اللغوي البغدادي، وعلى ابن أبي عامر سمة الملوك وجلستهم فأنشده وهو طامع في عطائه راجٍ رضاه:

فالعامرية تزهى

على جميع المباني

وأنت فيها كسيف

قد حل في غمدان

فضحك أبو عامر ضحكت المسرور الذي دانت له الدنيا.

فقام صاعد اللغوي البغدادي وكان منافسًا لابن العريف وندًا له، فقال:

- أسعد الله تعالى الحاجب الأجل! ومكن سلطانه! هذا الشعر الذي قاله قد أعده وروى فيه، أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالاً.

فقال له المنصور وهو باسم، فكثير ما كان يستأنس بحديث الشعراء في ليل الزاهرة البهيج وخاصة إن كان المتحدث صاعد:

- قل ليظهر صدق دعواك.

فقال مرتجلاً:

يا أيها الحاجب المع

تلي على كيوان

ومن به قد تناهى

فخار كل يمان

العامرية أضحت

كجنة الرضوان

فريدة لفريد

ما بين أهل الزمان

ثم مضى في الشعر إلى أن قال في وصفها:

انظر إلى النهر فيها

ينساب كالثعبان

والطير يخطب شكرا

على ذرا الأغصان

والقضب تلتف سكرا

بميس القضبان

والروض يفتر زهوا

عن مبسم الأقحوان

والنرجس الغض يرنو

بوجنة النعمان

وراحة الريح تمتار

نفحة الريحان

فدم مدى الدهر فيها

في غبطة وأمان

فاستحسن ابن أبي عامر ارتجاله، وقال لابن العريف:

- ما لك فائدة في مناقضة مَن هذا ارتجاله، فكيف تكون رويّته؟

فقال ابن العريف:

- إنما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك.

فقال له صاعد:

- فيخرج من هذا أن قلة إحسانه لك أسكتتك وبعدت عليك المأخذ.

فضحك المنصور وقال:

- غير هذه المنازعة أليق بأدبكما.

وكان من الحضور في هذه الجلسة الشاعرية الأنيسة ابن حُدير، من له الفضل في التوسط عند ابن السليم ليجد عملاً لابن أبي عامر، وكان ابن حدير معجب به منذ قدم عليه لأول مرة، إذ هو صديق قديم لأبيه.

فقال ابن حدير:

- أعز الله الحاجب المنصور وأدام ملكه ودولته، بعد أن سمعنا الشعراء ألا نسمع شعرك؟ ونعلم أنك أديب أريب قبل أن تكون صاحب سياسة وتدبير.

فقال صاعد:

- مرحى مرحى، سنسمع شعر الحاجب.

وكان مزاج أبي عامر معتدلاً فلم يحب أن يرد طلب ابن حدير، وكثيرًا ما لحَّ الشعراء عليه ليسمعهم نظمه ولكنه يردهم ردًا جميلاً أو صارمًا.

فقال وقد تداخلت صور الخصوم والأنداد في باله:

رَمَيْتُ بَنفِسي هَـوْلَ كُلِّ كَريـهـةٍ

وخَاطَرت والحرُّ الكَريمُ مُخاطرُ

وما صاحِبي إلاَّ جَنَانٌ مُشَـيعٌ

وأسـمرُ خَـطِيٌّ وأبيـض بَاتِـرُ

وإني لَزَجَّـاءُ الجيـوشِ إلى الـوَغَى

أسُـودٌ تُلاقِيهَا أسُـودٌ خَـوَادِرُ

لَسُدتّتُ بنفسي أهل كُلِّ سِيَادةٍ

وكَاثَرتُ حَتَّى لَم أجِدْ مَنْ أُكاثِرُ

وما شِـدتُّ بُنياناً ولكِـنْ زِيَادةً

على مَا بَنَى عَبدُ المَلِيك وعامِرُ

رَفَعنا المَعَـالِي بالعَـوَالِي حَديثةً

وأورَثَناها في القَديـمِ مَعَافِـرُ

فتعجبوا من شعره وبراعة نظمة، وأثنوا عليه، ولكن شاعرًا منهم اعترض قائلاً:

- أعز الله الحاجب لو ذكر تلك المفخرة العظيمة لتم فخره.

فاشرأبت الأعناق نحوه فإذا هو الشاعر القسطلي، وكان مقربًا من أبي عامر، فقال أبو عامر:

- ويحك يا ابن دراج، ما هي؟

- أمك تميمية وقد حزت الشرف من طرفيه، لم تذكرها وقد ورثتها.

فضحك أبو عامر ورد جذعه الذي انتصب من استفزازه، ولكن القسطلي لم يمهله إذ ارتجل أبياتًا متممة لقوله دون تفكر أو تدبر:

تَلاَقت عَليه مِنْ تَميمٍ ويَعرُبِ

شُموسٌ تلألا في العُلَى وَبُدُورُ

مِنَ الحِميريينَ الذِينَ أكُفُّهُم

سحائبُ تهمِي بالنَّدى وبُحُورُ

ويستمر السمر وضرب العودان، وإذا بصاعد اللغوي يقول:

- مولاي الحاجب إن نفسي لم تعد تطيق منظر هذه الحديقة الرائقة.

- ولمَ؟

- كلُّ هذا الجمال وتريدني أن أصبر؟

فقال ابن أبي عامر ضاحكًا:

- اسمعنا!

يَا أيُّها المَلِكُ المَنصُورُ من يَمَنٍ

والمُبتَنِى نَسَباً غيرَ الذي انتَسَبَا

بغَزوةٍ في قُلوبِ الشِركِ راتِعةٍ

بَينَ المنايا تُنَاغى السُّمرَ والقُضُبَا

أما تَرَى العَينَ تَجرِي فَوقَ مَرمَرِها

زَهـوا فَتُجـرِي على أحسـائها الطَّرَبَا

أجرَيتَها فَطَمَا الزاهِي بجِريتَها

كَمَا طَمَوتَ فَسُدتَّ العُجمَ والعَرَبَا

تخَالُ فيه جُنودَ الماءِ رافِلةً

مُستَلئماتٍ تُربكَ الدَرعَ والبَلَبا

تَحُفُّها من فُنُونِ الأيكِ زَاهِرةٌ

قد أورقت فِضَّةً إذ أثَمَرَت ذَهَبَا

بَديِعةُ المُلكِ ما يَنفَكُّ ناظِرُها

يَتلُو على السَّمْعِ مِنها آيةً عَجَبَا

لا يُحسِنُ الدَّهرُ أن يُنشِي لَهَا مَثَلاً

وَلضوْ تَعَنَّتَ فيها نَفسَهُ طَلَبَا

فقال أبو عامر:

- سمعنا نظمك وسنجزل لك العطاء بما يليق بك.

ويستمر مجلسه وقد طاب له السمر، فقال أحد خدمه: مولاي ألا تنام فيرتاح جسدك؟

فقال له: لو قضيت الليل نائمًا لا ساهرًا لما بلغت ما بلغت، إذا نامت الرعية وجب على ملكهم أن يكون مستيقظًا.

كان صاعد البغدادي هذا كذابًا لا يثق به، وضاعًا، يكذب دون أن تختلج نفسه، فلما دخل قرطبة أعرض عنه العلماء، ولا اقتربوا منه ولا اقتدوا به ولا أخذوا عنه، إلى ان طرق أبواب المنصور بن أبي عامر، فلما تكلم عنده قليلاً؛ عرف أنه عالم، ودعاه إلى مجلس أنسه في الزاهرة.

في تلك الليلة حضر مجلس المنصور أبو بكر الزبيدي، والعاصمي، وابن العريف، فقال لهم المنصور:

هذا الرجل الوافد علينا صاعد يزعُمُ أنه متقدم في هذه الآداب التي أنتم سُرُجها الضاحية، وأهلتهم السارية، وأحب أن يمتحن ما عنده.

وأشار إليه فاشرأبت الأعناق نحوه، فقال المنصور:

- هل تعرف السيرافي؟

- نعم يا مولاي، وقد قرأت عليه كتاب سيبويه.

- هذا حسن، أيها العاصمي، سله.

فبدأ العاصمي بعرض مسائل من كتاب سيبويه فلم يجب، فقال مرتبكا:

- اعذرني يا حضرة الملك الكريم، فإن النحو ليس جُلَّ بضاعتي، ولا رأسَ صناعتي.

فبادر الزبيدي قائلاً:

- فما تحسن أيها الشيخ؟

- حِفظَ الغريب.

- فما وزن أولقَ؟

فقال صاعد ضاحكًا:

- أمثلي يُسألُ هذا السؤال؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب.

- فقد سألناك، ولا نشك أنك تجهلُه.

فتلعثم وتردد، وقال:

- أفعَل.

فقال الزبيدي ساخرًا:

- صاحبكم مُمخرِق!

- أخال الشيخ صناعته الأبنية؟

- أجل.

- وبضاعتي أنا حفظ الأشعار، ورواية الأخبار، وفك المُعمّى، وعلم الموسيقى.

فانبرى ابن العريف له، فمضى يجيبه، وجعل لا يقول كلمة إلا وقال عليه شاهدًا أو شعرًا.

فضحك المنصور وازداد إعجابًا، فحمل المنصور كتابًا ضخمًا، وقال:

- هذا كتاب النوادر لأبي علي القالي، رحم الله الحكم كان يحبه، وأنت يا صاعد، كأنك تحفظه.

فقال صاعد وهو يداري غروره:

- إذا أراد المنصور أمليتُ عليه مقيدي خدمته وكُتّاب دولته كتابًا أرفع منه قدرًا، وأجل خطرًا، لا أدخل فيه حبرا مما أدخلَهُ أبو علي.

- لك ما طلبت، وسأجعل هؤلاء العلماء رقباءً عليك، وستمليه هنا في الزاهرة.

- أنا خادم المنصور.

ومضى في العمل وسماه (الفصوص) إلى أن أكمله، ودخل العلماء على المنصور، فقال لهم:

- سمعتُ أن صاعدًا قد أتم الكتاب الذي وعدنا فيه، فكيف رأيتموه؟

- سيدي المنصور، صاعد البغدادي رجلٌ مقتدر على تأليف الكذب، من عيون الأدب، يُسندها إلى شيوخ لم يرهم ولا أخذ عنهم.

فقال أحدهم:

- والرأي عندي يا مولاي أن نسفر كتابه بكاغد أبيض وتغيير بهجته ليدل على القدم.

وتم تجليده، وكتب على غلافه: (النكت. تأليف الغوث الصنعاني).

فلما جلس صاعد جنب المنصور، ناوله الكتاب، فقرأ عنوانه وقال:

- إني والله قرأته في بغداد، على يد أبي حيان التوحيدي. وبهذا الخط، سبحان الله!

فأخذه المنصور، وقال:

- إن كنت رأيته كما تزعم، فعلامَ يحتوي؟

- ورأسك لقد بعد عهدي به لا أنص منه شيئًا، ولكنه يحتوي على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر.

- أبعَدَ الله مثلك! فما رأيت الذي هو أكذب منك، هذا كتاب الفصوص، أيها الحارس، ارمه في النهر.

فقام شاعر وقال:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص

وهكذا كل ثقيل يغوص

فرد صاعد بديهة:

عاد إلى معدنه إنما

توجد في قعر البحار الفصوص.

وكان في مجالسه هذه يتحدث المنصور أمامهم عن إنجازاته وفضله وقوة شكيمته، فيبارك له محبوه وأنصاره، ويذعر من في نفسه شرًا. فقال لهم هذه المرة: زعم أناس أن عهد أمير المؤمنين هشام المؤيد أيده الله مقفر إذا قسناه بعهد أبيه وجده! وهذه محض أوهام ترمى جزافًا، لا يقصد منها إلا تشويه صورة دولتنا، فنحن لا نجيبهم بحد السيف، بل بالحجة والبرهان، فهذه رسالة لشاب فرنسي يتعالج في مستشفى قرطبي أرسلها لوالده في باريس، أيها الساقي، خذ الكتاب واقرأه على مسمع من رجالنا.

فقرأ:

«والدي العزيز

لقد ذكرت في رسالتك بأنك سوف تبعث لي بعض النقود كي أستعين بها في علاجي، لكني لا أحتاج إلى النقود مطلقاً؛ لأن المعالجة في هذا «المستشفى الإسلامي» مجانية!

بل إن المستشفى يدفع إلى كل مريض تماثل للشفاء مبلغ ٥ دنانير، وملابس جديدة حين يغادر المستشفى؛ كي لا يضطر إلى العمل في فترة النقاهة!

والدي العزيز

لو تفضلت وجئت لزيارتي فسوف تجدني في قسم الجراحة ومعالجة المفاصل، وسوف تشاهد بجانب غرفتي مكتبةً، وصالون للمطالعة والمحاضرات، حيث يجتمع الأطباء فيه يومياً للاستماع إلى محاضرات الأساتذة.

أما قسم الأمراض النسائية فيقع في الجانب الثاني من ساحة المستشفى ولا يُسمح للرجال أن يدخلوا إليه.

وفي الجهة اليمنى من الساحة تجد صالوناً كبيراً مخصصاً للمرضى الذين تماثلوا للشفاء؛ حيث يقضون فيه فترة النقاهة، ويحتوي الصالون على مكتبة خاصة وآلات موسيقية.

والدي العزيز

إن كل نقطة وكل مكان في هذا المستشفى غاية في النظافة، فالفراش والوسادة التي تنام عليها مغلفة بقماش دمشقي أبيض، أما الأغطية فمصنوعة من المخمل الناعم اللطيف.

وجميع غرف المستشفى مزودة بالماء النقي الذي يصل إليها بواسطة أنابيب خاصة! وفي كل غرفة مدفأة لأيام الشتاء!

أما الطعام فهو من لحم الدِجاجِ والخضار، حتى أن بعض المرضى لا يريدون مغادرة المستشفى طَمَعاً بالطعام اللذيذ!»

فقال المنصور بعد أن أتم خادمه قراءة الرسالة: فهذا هو عهد أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله!

والحق أن هذا العهد هو عهد بني عامر الذهبي، وهو يعلم أنه عهده والناس أجمع تعلم أن لا يد لهشام في هذا، ولكنه كذب صار صدق بالقوة!



(٢٠)

لا تُعطِيَنَّ الصَبِيَّ واحِدَةً

يَطلُبُ أُخرى بِأَعنَفِ الطَلَبِ

ما زال يذكر ذلك اليوم، يوم ولي الخلافة، محفورًا في ذاكرته، كانت وقفته وجلسته وأخذ البيعة وسائر المراسيم هي من تعليمات ابن أبي عامر، لم يكن له من الأمر شيء، وكيف له ذلك وهو لمّا يبلغ العاشرة بعد؟ لم يكن آنذاك قد تعلم شيئًا إلا النزر اليسير من القرآن والسنة والفقه والشعر، وكان كثير الملل، سريع الغضب، وما ذاك إلا لأنه رأى رعايةً في غاية التدلل، فالكل يخافه ويهابه، والكل يجلس بين يديه خاضعًا طائعًا مهطعًا.

ومنذ اليوم الأول يأتي ابن أبي عامر إليه ومعه الكتاب يطلب منه أن يوقع عليه، وكان يخبره أول الأمر عن القرار وماهيته ولكن سرعان ما ضجر من هذه الطريقة، لأنه لا يفقه شيئًا بعد في أمور الدولة حتى يستطيع القبول أو الردَّ، وأمه كانت مع ابن أبي عامر مؤيدةً أول الأمر، تخبر هشام بما يجب عليه فعله، وكيف له أن يدرك أن أمه هي الأخرى لا تفقه شيئًا في السياسة لا قليل ولا كثير، إنما تسير كالأعمى خلف ابن أبي عامر، فأتاه ابن أبي عامر ثاني يوم توليه الخلافة ما زال حزينًا على فقد أبيه، فقال أبو عامر:

- مولاي أرى خير ما تفتتح به عهدك هو تقربك للرعية، والعطف عليهم، وأول ما ينبغي فعله هو أن نعفيهم من دفع ضريبة الزيت، فقد أثقلت كاهل الضعفاء من الرعية.

كان ابن أبي عامر يتحدث وهشام مطرق لا يعي شيئًا وجنبه أمه ووصيته صبح، فقالت:

- نعم يا ولدي، ما قاله محمد هو الصواب.

فقال أبو عامر:

- يجب أن يكون السلطان كريمًا منفقًا، ومن كانت أول عهده رفع الضرائب وتحرير العباد من ثقلها فعهده سيكون مشرقًا بإذن اللّه تعالى.

فقالت صبح:

- وهذا هو الرأي يا ولدي.

فوقع على القرار كما أرادا، بل لا قرارَ له فما قاله أبو عامر وبتَّ به هو ما سيسير وينفذ، وما عداه زائل.

حاول أن يتقرب منه غيرهما، ولكن أبا عامر كان بالمرصاد، فذاك الفتى فائق يتقرب منه مرارًا، ولكن هشام لا يستطيبه، إلى أن قال يومًا:

- أعفني يا أمير المؤمنين من خدمتك.

فقال بغير تردد أو مبالاة:

- قد أعفيتك!

ولكن لم يعد أحد يدخل عليه من رجال السياسة والتدبير، حتى المصحفي نفسه، مُنِعَ من الدخولِ على الخليفةِ، صار يقضي نهاره

بين الدرس واللعب مع الصبية، إذ سمح أبو عامر لبعض الصبية بالدخول واللعب مع هشام، ليقضي وقته. أما إذا أقبل المساء فقد وجد أبو عامر متنفسًا لهشام يقضي به الليل، فقد حبب إليه الغناء وشعر الغزل الماجن، وكله وصبح موافقة راضية، ولا ينسى ذلك اليوم عندما جلس هو وأبو عامر للتبسط والسهر ومجالس السمر، يجلس معه وتضرب العودان وترقص القيان باديات الصدر والنحر، وتدار الكؤوس، وإذا بجارية حسناء ندية الصوت جميلة بكل مفاتنها، مغرية بكل تفاصيلها تغني أبيات أبي نواس بصوت عذب طروب وكأنه خرير أنهار خمر الجنة، وكان يستعذب أبو عامر صوتها:

سَأَلتُها قُبلَةً فَفِزتُ بِها

بَعدَ اِمتِناعٍ وَشِدَّةِ التَعَبِ

فَقُلتُ بِاللَهِ يا مُعَذِّبَتي

جودي بِأُخرى أَقضي بِها أَرَبي

فَاِبتَسَمَت ثُمَّ أَرسَلَت مَثَلاً

يَعرِفُهُ العُجمُ لَيسَ بِالكَذِبِ

لا تُعطِيَنَّ الصَبِيَّ واحِدَةً

يَطلُبُ أُخرى بِأَعنَفِ الطَلَبِ

وسكر هشام حتى الثمالة، ولم يبلغ الحلم بعد، وتقوده تلك الجارية إلى مخدعه، إلى أن بلغ سريره وهو يقول:

- سألتها قبلة ففزت بها   بعد امتناع وشدة التعب

فقالت بإغراء:

- ولكني لم أبخل عليك بقبلة وأنت لم تطلبها حتى تفوز بها.

فقال هشام بلهجة سكير متعربد:

- ولكني أمير المؤمنين وأطلب ما أشاء ومتى أشاء.

فقالت بتغنج ودلال:

- ولكن متى يشاء أمير المؤمنين وهو يلعب كالأطفال؟ متى يترك لعب الصغار ويبدأ بلعب الكبار؟

- أهكذا تقولين عن مولاكِ وسيدكِ؟

- وماذا أقول عن أمير المؤمنين إن لم ينفذ ما يقوله؟

- وما الذي قاله ولم ينفذه أميرك أيتها الحسناء اللعوب؟

فقالت بصوت يستعذبه قلب أمير المؤمنين الطري:

- سألتها قبلة ففزت بها بعد امتناع وشدة التعب، ولكنك لم تسأل ولم تقبل.

- فهاتي قبلة.

ثم أبدأت تقبله من فيه وهي مستمتعة ولكن سرعان ما ارتد عنها وجسده يرتعش، فقالت بنفس الإغراء:

- لم يتم الأمير قبلته.

فقال لها:

- اخرجي، هيًّا، وقبح الله القائل:

سألتها قبلة ففزت بها

بعد امتناع وشدة التعب

فليتني لم أفز بها ولم أذقها.

وسرعان ما حفه الندم وأرهقه ولكن صباح الزهراء المنعش وتناول الفطور في روضها وعلى مسمع من خرير ماء حوضها النازل من النهر الكبير كفيلٌ بأن ينسيه ذلك الندم العابر، ويوم طلب أبو عامر عزلٍ محمد بن جعفر المصحفي عن أمر المدينة وتقليده إياها تردد قليلاً، فالمصحفي صديق الحكم، ولكن صبحًا أمه أقرته فوقع على عزله.

وتمضي الأيام وهو يقضيها لهوًا ولعبًا وحفظ أشعار الغزل والاستماع إلى الأناشيد التي تنشدها تلك الجارية مستعذبًا صوتها، وكلما تذكر تلك اللحظة حين هبطت على فيه يشعر بالقرف نحوها وكيف تقبله بجنون استقبحته نفسه وبغضته، فصار يمنعها من رفقته إلى الغرفة أو الاقتراب منه، ولم يطردها خوفًا من أن يعلم ابن أبي عامر وأمه سبب طردها، وحسِب بطفولته البريئة الساذجة أن أبا عامر لا يعلم!



(٢١)

إنَّ الأرحامَ الرديَّةَ تُفْسِدُ الذُّرِّيَّة

رموه تحت قدميه مكبلاً مذلولًا، وقال الجندي: عبد الرحمن بن المطرّف يا مولاي.

نظر إليه ابن أبي عامر نظرة الغضب والتي لم ينظر بها لرجل إلا ومحقه، فقال الرجل المكبل:

- مولاي الحاجب، أنا بريء فيما اتهمني به هؤلاء الرجال، أنا لا أعرفهم فكيف أكون قد أخذت حقهم واغتصبت أرضهم.

فقال أبو عامر:

- أعلم أنك بريء مما رماك به هؤلاء الرجال، فأنا الذي دبرت شهادتهم، ولكنٍ جرمك أعظم وأشنع، وأنت تعلم أني لا أنسى الخيانة، ومن يخُن فمصيره معروف.

فعرف الرجل مآله، وقال:

- العفو يا مولاي.

فقال بتؤدة وأناة:

- كان ولدي عبد الله مقيم عندك في سرقسطة، وكان ساخطًا ناقمًا عليّ، لأنني ظلمته إذ قدمت عليه عبد الملك أخاه وفضلته وأدنيته مني دونه، وما إن علمت بهذا حتى خدعتك نفسك، وزخرفت لك جمال السلطة وبهرجها ومغانمها، فصورت لك

السلطة على أنها مال ولعب ولهو، ومن ملكها حاز الدنيا بما فيها، ولم تدرك أنك أمام فارس الأندلس الأوحد محمد بن أبي عامر، من خاض الصعاب وأركع النصارى، فجازفت بنفسك وولدي، فاتفقتما على الوثوب عليّ، والإطاحة بي، وبعدها تقسما الأندلس إلى قسمين، الحضرة لعبد الله ولدي، والثغر لك، أليس هذا ما حصل؟

- العفو يا مولاي المنصور.

- ولم تعتبر بالمصحفي وغالب الناصري، وابن حمدون.

وأشار للحارس فأدخل عبد الله ولده فدخل، فإذا به شاب في الثانية والعشرين، وتلحظ في عينيه لأول وهلة اختلاف شديد عن أبيه، فلا تجد فيه تلك الملامح العامرية التي تجسدت في عبد الملك بن المنصور.

فقال أبو عامر:

- عفوت عن ولدي ولكن لن أعفو عنك، أيها الحرس اضربوا عنقه.

وأخرجوه وهو يصرخ: العفو يا مولاي.

فنظر المنصور محمد بن أبي عامر إلى ولده الثائر عليه، وقال: عفوت عنك مرة ولن أعفو ثانية، ثم قال بصوت ينم عن عطفه الذي سبق غضبه:

أتعرف لمَ عفوت عنك؟ لأن نفسي لم تطاوعني، أنا أقوى منك وأستطيع البطش بك ولكنك ولدي، فإن أخطأت مرة أخرى ونازعتني نفسي فلن استمع لها، بل سأكبحها بسيف عظمة الملك ولن أراك على أنك ولدي، لا، بل ستكون عدوًا حاول انتزاع ملكي.



اشتبك الجيشان، ذاك المنصور بن أبي عامر ببسالته وشجاعته يضرب الأعناق، وجيش النصارى في تراجع وتخاذل وهو دأبهم منذ انبرى الحاجب المنصور لجهادهم، وسرعان ما علت راية المسلمين عند ذاك الحصن.

وجاء جندي مسرع إلى المنصور، وقال له: سيدي، ولدك عبد الله، هرب مع غلمانه إلى عدو الله غرسية بن فرذلَند صاحب ألبة، فغضب أبو عامر وشعر أن الأرض تكاد لا تستقيم تحته.

فقال:

- ابعثوا له فليسلمنا عبد الله.

- ولكننا بعثنا له.

- وماذا؟

- رفض تسليمه لنا! بل فرح به.

فقال المنصور وهو يتفجر غضبًا وسخطًا:

- والله لآتينه في عقر داره، وأفتح حصنه، وأخرب بلدته وأنا أبو عامر.

ووصل بجيشة إلى ألبة، وطالبه بولده، ولكن غرسية رفض أن يسلمه، وأصرَّ على المواجهة، وسرعان ما نشبت معركة بين الجيشين، وظفر جيش المنصور على خصمه، وارتد غرسية على عقبيه، ودخل حصنه، فاضطر غرسية أن يسلمه.

ووقف عبد الله ولده بين يديه، وعلى رغم اختلافه عن أبيه تمامًا بنزعه إلى الطيش واتباع هواه إلا أنه يمتلك صلافة مستمدة من شجاعة أبيه.

فقال المنصور:

- ألم تعدني أن تتوب وتعود إلى الحق فعفوت عنك؟ ألم تخن مرة فأصفحتُ؟ وقلت لك أني لن أعفو ثانية.

فقال عبد الله بلا مبالاة:

- وأنا لم أطلب عفوك ثانية.

- لماذا تفعل بي هذا؟ لماذا تجبرني على قتلك والفتك بك، ألا تعلم أن خسارة الملك أفدح من خسارة الولد ألم تتعلم أن البقاء لي، يا ولدي إن نزاع البقاء يؤدي إلى الفناء، وها أنت ستفنى.

فقال بلهجة تفضح غيظه وحقده:

- لأنك لم تعدل يومًا، لم تنصفني، فضلت أخي عبد الملك علي وأنا أحق منه بالتقديم، فهو لم ينفرد عني بذكاء أو دهاء، بل أنا، أنا الذكي الفطن النبه، ولكنك لم تشعرني يومًا أنك أبي فضلاً عن تقديمك لي.

فقال المنصور ساخرًا منه ومن سذاجته:

- رأيتُ ذكاءك!

- هذا هو الذكاء بعينه يا أيها المنصور المبجل.

فقال غاضبًا:

- ولن يغني ذكاءك عنك شيئًا، ستموت.

- سأموت بشرف! ولن أركع لك كعبد الرحمن، ولن أتوسل بك كالمصحفي والمغيرة، ولن أخاف منك أو أهابك كعامة قرطبة.

فأمر المنصور بضرب عنقه، وجاء من ينفذ، واستدار ابن أبيٍ عامر كيٍ لا يشاهد لحظة قطع عنقه، فجاء صوت عبد الله مزلزلا مجلجلا وهو يقول له: لقد ملكت الدنيا، وحكمت الأندلس، وألجمت

الخصوم، وقضيت على الأعداء، ولكنك لم تستطع أن تكون أبًا، كنت ظالمًا لأولادك، وسيكتب التاريخ الذي تعتز به مع ما سيكتب لك من عظمة الطموح وبراعة الوصول إلى الغاية أن الملك المنصور بن أبي عامر قتل ولده، ولم يفلح في الحفاظ على بيته، لن تطول دولتك، فمن لم يحافظ على ولده لن يحافظ على الأندلس.

وكان يسمعه وهو يعتصر وكأن كلماته التي ينطقها سحابة صيف تمطر فجأة لتوقظه من سكرة العظمة والملك والسلطان، كان يتعذب كأن لم يسكن قصور الزاهرة، يتألم كأن لم ينتصر يومًا، يتمزق كأن لم يصل لغاية يومًا، من ذاك الصوت الجنوني الذي يمزق قلبه المتعربد بنشوة الانتصارات، يعريه من شخصيته العظيمة المستبدة، ويذر مجده في تلك الرياح كأن لم يكن، بل يجعله قاعًا صفصفًا.

ويأتيه صوت عبد الله ولكن هذه المرة خافت ضئيل، فقد أحكم الجند تقييده:

أنت عارٌ على الأندلس، مذلول لا منصور، سالب ملكٍ لا ملك.

فانبعث من المنصور صوتًا مخنوقًا بلا شعور: اقتلوه.

وما هي إلا لحظة حتى انقطع صوت عبد الله، فاستدار ليجد رأسه يتدحرج وجسده يرفس وهو مضرج بالدماء، فقال بصوت متهدج يقطر حزنًا وكمدًا:

إنَّ الأرحامَ الرديَّةَ تُفْسدُ الذُّرِّيَّة، اكتب إلى أمير المؤمنين هشام بأمر الفتح مع رأس عبد اللَّه.

وغمت قرطبة لهذا الخبر، وتسلل الرعب إلى قلوبهم، وملئت نفوسهم وحشةً وذعرًا، ولم يعد يقدر أحد حتى على الهمس في شأن ابن أبي عامر، فولده الذي من صلبه قسمه ولم يبال، وصارت جملته «إنَّ الأرحامَ الرديَّةَ تُفْسِدُ الذُّرِّيَّة» كلمة مرعبة، ولكن يبقى سؤالًا

أسيفًا يحدثون أنفسهم والذي لا يبوحون به حتى لأزواجهم خوفًا من جنده وأعينه: من أين استمد صلابته حتى قتل ولده ولم يبالِ؟!

وبقي أمر عبد الله يشغل الناس، إلى أن سأله بعض خاصته في مجلس:

- أيد الله المنصور! لقد صرت من قتله في غاية يعدم الصبر في مثلها، فما سبب ذلك؟

فقال:

- لا أعلم أن له سببًا، إلا أني لما عُرضت أمه، عَلقتُ بها، وتمكن من قلبي حبها تمكنًا لم أقدر أن أسلوَ عنه، فابتعتها، متجاوزًا النهاية في ثمنها، وجعلتها عند قريبة لي، وكنت كل يوم أخطر عليها أتعرف استبراءها؛ فلما أحست بحبي لها، وكلفي بها، توخت رضائي، وذكرت لي أنها قد استبرأت، وهي كاذبة في ذلك، تريد بذلك موافقة مساري واستعجال مرادي؛ فدخلت بها، وهي لم تستبرئ؛ فكنت شاكًا فيه.

فصمت جميع الحضور، فشعر المنصور بتوجسهم وذعرهم من تصرفه، فقال لنفسه: شقينا بهذا الملعون في حياته وبعد موته!



(٢٢)

فالناس يا مولاي على دين ملوكهم

إن صلحوا صلحت الرعية وإن فسدوا فسدت

تمضي الأيام ويبقى هشام المؤيد أسيرَ قصره، لا يعلم عن الحياة شيئًا، ولكن هشام بن معمر الوراق كان يعلم كلَّ شيء، فكان يخبر هشام بما هو واقع خارج أسوار الزهراء، وكم وقف أمام أسوارها، فارعة الطول عظيمة البناء، يتأمل ويحلم أن يخرج خارجها، يسمع أصواتًا مختلفة خارجها، من نداءات البائعين وضجيج الحياة وصخبها، وإذا دخلت جيوش قرطبة بقيادة أبي عامر منتصرة على الأعداء -وهذا دأب ابن أبي عامر، فهو لم يهزم في غزوة قط- علت الأصوات شاكرة داعية، وتبدأ الأفراح، مع الدعاء له بالنصر المبين.

كان يسأل نفسه دومًا: عجيب هو أبو عامر، ينتصر ويجعلهم يدعون لي، وكلما ازداد فتحًا وبالأعداء فتكًا زاد تعظيم الناس لي مع العلم أنهم لم يروني، فلمَ يعظمونني هكذا؟ غريب أمر الناس كيف تركع للقوة هكذا؟ لأنهم لم يروني ولكن أبا عامر فرضني عليهم، فغدت الكل تهابني وأنا لا شيء، كسراب في الفيافي.

سأل معمر الوراق مرة عندما زار المكتبة الأموية مع هشام بن معمر وزار مكان الحكم (رحمه الله)، فقال معمر: يا أمير المؤمنين إن أبا عامر يعظم شأن الخلافة ومقامها في أعين الناس، فكلما زاد مقامكم رفعةً وعزةً سمت الأمة بكم، فالناس على دين ملوكهم، ألم

تسمع يا مولاي ما رواه الطبري في تاريخه عن أجدادكم رحمهم الله، إذ يحكي أن الوليد بن عبد الملك رحمه الله كان يحب العمارة والبناء، فبنى المسجد الأموي وكان حاضرة عصره وأعجوبة زمانه، فصار الناس يحبون البناء والعمارة، وما إن ولَّج كرسي الخلافة سليمان شقيقه وكان يحب الزواج والنساء والطعام، حتى أكب الناس على حب الزواج، فلا تجد رجلاً إلا وله أكثر من امرأة، وإذا رأى الرجل الرجلَ، سأله: كم زوجة عندك، وكم تملك من المال.

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وكان زاهدًا ورعًا، يعيش حياة النسك والزهد، ولم يذق من الحياة إلا شظفها وخشانتها، ولم يذق من السلطة إلا مغارمها دون مغانمها، صار الرجل يلقى الرجل فيقول له: كم تقيم من الليل وكم مرة تختم القرآن في الشهر؟! فالناس يا مولاي على دين ملوكهم إن صلحوا صلحت الرعية وإن فسدوا فسدت، فتعظيم مقامكم هو تعظيم للإسلام، وهذا الذي يريده الحاجب محمد بن أبي عامر ويطمع في الوصول إليه، فإذا بلغت رجلاً راشدًا، وصرت قادرًا على تحمل القيادة والريادة وأمور الرياسة والسياسة؛ سلمك السلطة الفعلية وهو خادم لك ولعرشك.

بقي هذا الحلم يراوده وهو الخروج خلف أسوار الزهراء العظيمة، وأن يرى بشرًا من العوام.

يقرأ في كتب التاريخ أن من الناس فقراءً ونساكًا، قتلةً وسفلةً، تجارًا وأصحابَ مهن، ويعلم أنَّ كلَّ العالم فيه: أثرياء وطبقة متوسطة الحال وفقراء. ولكنْ أين هم؟ هو لا يرى أحدًا إلا الجواري والقيان والخدم وأمه وابو عامر والمعلمين، وإذا اراد الخروج قالوا له: سل تعطَ، اطلب ما شئت كله سيأتي بين يديك.

ولكنه يريد شيئًا أعظم من ذلك كله، يريد حريته المسلوبة، وطفولته الضائعة بين طيات هذا القصر العظيم وهذه المدينة الملوكية، ولكن

سمع من مدرس التاريخ أن خلفاء المسلمين الأوائل كانوا يعيشون كما يعيش الناس، يقتاتون ويأكلون مما يأكل عامة شعبهم، وقد يجلس الخليفة فيأتي السفير ولا يعرف أيهم الأمير، الآن تغير الحال، وصار الخليفة حبيس هذا المكان، ولكن لم يسكت على هذا الحال، إذ أمر معمر الوراق أن يخرجه من القصر سرًا، وسرعان ما صعق معمر من أمر الأمير، وقال له:

- كيف ذلك يا مولاي؟

فقال هشام بلهجة الأمر التي تعود عليها ولا يتنازل عنها إلا عندما تطلب منه أمه:

- الأمير يطلب ذلك ولا تطيعه يا أبا هشام؟

فقال معمر مرتبكًا:

- معاذ الله يا أمير المؤمنين، ولكن أنا لست موكلاً بهذا، هناك خدم كثر ينبرون لهذه المهام.

- وتستنكف عن خدمتي؟

فقال معمر وهو يرتعش خوفًا:

- استغفر الله! ولكن.

فقاطعه قائلاً:

- انتهى! صدر أمرنا، سأخرج غدًا معكما، أنت وولدك، وتعال مبكرًا، كي نخرج عند الضحى.

- والحرس؟

- سألبس لبس العامة.

- ولكن الحرس يعلمون أن لي ولدًا واحدًا يأتي معي.

- وهل يعدون عدد الأولاد؟

ثم مضى، وبقي معمر وهو خائف من مكر أبي عامر إن علم، ونظر إلى ولده وكان مشاغبًا فبدا هذه المرة هادئًا وبين فكيه ضحكة فارة فضحت صمته، فقال معمر:

- أنت من وضعت الفكرة في ذهنه أليس كذلك؟

فقال الولد وهو يهم بالهروب من أبيه خوفًا من ضربة مباغتة:

- هو من يلح عليَّ؛ أخبرني عن الخارج أخبرني.

خرج هشام مبكرًا إلى المكتبة الأموية بعد أن أخبر الحرس أنه لن يأتي على الغداء، بل سيبقى في المكتبة يدرس، وكان ابن أبي عامر في إحدى غزواته، وصبح ذهبت منذ يومين إلى قصر قرطبة لغرض ما، وصل إلى المكتبة فوجد معمر ينتظر وهو قلق وولده ساكن لا يتحرك بعد الضرب المبرح الذي أصابه في الأمس، كما أن تعليمات والده صارمة.

خرج معمر ومعه الهشامان، والاثنان نفس الملبس؛ إلا أن هشام المؤيد تعجر عمامة عادية وستر جزءًا من وجهه، واجتازوا باب الزهراء فكانت دنيا ثانية في نظر هشام المؤيد، أناس عاديون كثر، أخلاط وأمشاج ومن مختلف البقاع، كبار وصغار، حكماء ومجانين، كلهم هنا، ولفت نظره عدد من كتَّاب الرقاع، فوقف ينظر إليهم وهم يخطون للناس، هو لا يرى هذه المرحلة من أعداد الكتب التي يجلبها ابن أبي عامر ليوقع عليه، كان هشام المؤيد يسير خلف معمر وهو متعجب مستغرب، تحكم الأندلس باسمه ولكنه لا يعلم أن الدنيا بعد

باب الزهراء غير الدنيا التي في الزهراء، وكان معمر متوجسًا فهو لا يستطيع أن يأمره أو يزجره، كما لا يقدر أن يتركه، فإن أرجعه وتخلص من مكر أبي عامر مكر به هذا الصبي نفسه، وإن سار معه واكتُشف أمرهم فقد وقع بيد أبي عامر، فأين المفر؟

وبينما هم سائرون جاء متسول يطلب المساعدة، فقال له معمر: قبحك الله من رجل، أما تستحي وأنت تسأل الناس وتطلب المساعدة؟ وفوق ذلك معافى لا تشكو من علة؟ استحِ واذهب واعمل، هيَّا.

فقال هشام المؤيد:

- لمَ زجرته؟

- يا أمير المؤمنين، من المعيب على الإنسان أن يطلب من غيره وهو صحيح معافى، فليتعلم صنعة يقتات منها أو يطلب علمًا ينتفع به وينفع غيره ويعمل مدرسًا أو قاضيًا، والعمل كثير، إضافة إلى ما تفرضونه من عطايا وصدقات لهم، وفوق كل ذلك يسأل الناس! قبحها الله من عادة، هذه عادة مشرقية.

- وهل في المشرق هم كثر؟

- نعم، وأعجب ما سمعته عنهم مع انتشار الشحذة والمتسولين إلا أن مدرسيهم لا يأخذون أجرة على التدريس في الجامع ويرونه عيبًا، ومن يأخذ أجرة فإنما يأخذها على مضض قد ألجأته الحاجة لأخذها مع العلم أنه حقه! هناك مفرطون في كل شيء.

فقال محاولاً أن يداعب معمر:

- لعلها عنصرية مغربية يا أبا هشام، فرفعت من أمر الأندلس على ما فيها من بخل وشح، واستصغرت من أمر المشرق على ما فيه من كرم فياض.

فقال ضاحكًا:

- مولاي، إنما هذا الحق ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ فأهل الأندلس يتبعون من الأمر أوسطه، وخير الأمور أوسطها.

وشاهدوا صبية يركضون، فنظر إليهم هشام، وقال:

- إلى أين هم ذاهبون؟

- أعتقد إلى الكُتّاب يا مولاي.

- ما أجمل لعبهم!

فقال هشام بن معمر:

- لنركض معهم.

ففرح هشام المؤيد واحمرَّ وجه معمر، فقال معمر لولده محاولاً كظم غيظه:

- عيب يا هشام، هذه ليست أخلاق الملوك أن يلعبوا.

فقال هشام المؤيد:

- أريد أن ألعب!

يا مولاي هذا ليست من شيم الملوك.

ولكن نزق الصبية قد تسلط على هشام المؤيد، فقال هشام بن معمر: الحقني.

وصار يركض وسط السوق وهشام المؤيد يلحق به ومعمر يركض وراءهما كالمجنون ويكاد يبكي هلعًا وفزعًا ويصرخ: مولاي، مولاي.

ويصلان إلى سوق الخضار وهشام بن معمر يركض بكل خفة ويتجاوز الدكاكين ويقفز من فوق بضاعتهم، ولكن هشام المؤيد لا

يتقن الركض كقرينه، فصار يجوس البضاعة وقد يعثر بإنسان، ومعمر خلفهم يركض ويتعذر لهذا أو ذاك، إلى أن ضجر أهل السوق إذ تحول إلى ساحة مطاردة، وابن معمر يعيد الكرة ويقفز بخفة وهشام خلفه إلى أن اصطدم برجل ضخم الجثة مهيبًا، فمسك هشامَ المؤيد من أذنه، وهو يقول:

- أيها الصبي الشقي قلبت السوق رأسًا على عقب، تقفز كالقطط وتهرب، من أنت وأين أهلك الذين سيبوك؟!

فقال هشام المؤيد وهو يتألم:

- اغرب عني أيها الرجل، ألا تعلم من أنا؟

- ومن ستكون إلا شقيًا ابن شقي؟

- أنا أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله بن الحكم!

فضحك من كان موجودًا من أهل السوق، وقال أحدهم ساخرًا:

- مرحى مرحى يا أمير المؤمنين.

فشَّد الرجل على أذني هشام أكثر وهو يقول:

- وأنا محمد بن أبي عامر قاهر الأعداء.

فقال هشام:

- اسكت وإلا أمرت رجالي أن يزجوا بك في السجن.

فضحكوا مجلجلين من حديثه، وجاء معمر راكضًا، فقال لهشام:

- أنت هنا؟

فقال الرجل الضخم:

- هذا ولدك المنفلت الشقي؟

فقال معمر:

- قصر لسانك أيها الرجل.

- وإن لم أقصر لساني فهل سيزج بي أمير المؤمنين في السجن؟ وهل شكلكم شكل أمراء أمويين؟

فاستدار معمر ذاهبًا وهو يمسك بيد هشام المؤيد، فوضع الرجل يده على كتف معمر، وقال: أنقدني ما أتلفه الصبي وإلا شكوتكم عند القاضي.

فأخرج معمر صرة من النقود ورماها له، ومضى.



وقبيل أن يصلوا إلى الدكان، همس معمر في أذن هشام المؤيد:

- يا أمير المؤمنين ترفق بي قليلاً، فإن أعصابي لم تعد تتحمل، فإذا وصلنا الدكان ووجدت أبي العجوز فلا تتحدث أمامه بشيء، وأنا سأقول له ولغيره أنك ابن صديق لي، وأن أباك ذهب في مشوار وسيعود العصر لأخذك.

- على بركة الله.

كانت لهجته تستوي بين الفينة والأخرى وترتفع من طيش الصبية إلى آداب الملوك، فيشعر معمر لوهلة أنه يسبقهم بأمد قصي في الآداب والحديث، فهو يتمايل وينخفض ويرتفع من غير استواء.

وصلا إلى سوق الوراقين، ودار رأس هشام لكثر الناس ونداء الباعة وتعامل الناس في البيع والشراء، ودخلوا الدكان.

فقال الرجل العجوز:

- من ذا الصبي؟

فقال معمر:

- هذا ابن رفيق لي، رحل أبوه في مشوار قد يستغرق إلى العصر وتركه عندي.

فقال أبوه وكان داهية ذا بصيرة:

- وكأن أباه من أهل الجاه، أو هو مشرقي، ولولا المبالغة لخلته من أولاد الكبراء والوزراء.

فتلعثم معمر، وقال:

- وكيف ذاك يا أبي؟ هو أندلسي.

- أما ترى العمامة في رأسه؟ وهل يرتدي العمامة في الأندلس إلا الفقيه أو الأمير أو صاحب منصب أو مشرقي النشأة؟

فقال معمر وهو يداري ارتباكه:

- أجل، صحيح ما تقوله، ولكن، نعم، أبوه مشرقي وفقيه، وهو يأمل أن يكون فقيهًا مثله، عائلته مشرقية مشهورة بالفقه، وما زالت تتمسك بعاداتها كأهل المشرق.

فقال العجوز:

- هذا حسن، ومن هو أبوه وجده؟ فأنا خبير عليم بكل علماء قرطبة، وأنا في دكاني هذا منذ أن تولى عبد الرحمن الناصر الخلافة رحمه الله، تعال يا ولد، من أبوك؟

فقام هشام المؤيد إلى العجوز ولكن معمرًا مسكه برفقٍ وشدَّه وهو يقول:

- يريد أن يلعب، لنتركه يا أبي ولا نزعجه بالأسئلة، أبوه هو الفقيه أبو محمد المشرقي.

- أبو محمد المشرقي؟! ولكني لم أسمع بهذا الاسم إطلاقًا، ما اسمه واسم عائلته.

- لا أعلم، منذ أن عرفته في المكتبة الأموية وهكذا ينادونه.

ولم يمضِ من الوقت إلا أقله حتى دخل رجل على معمر، يتعامل بشأن كتاب، فَنظر إلى هشام المؤيد، وقال:

- يا ولد ما قلة الأدب هذه؟!

فقال معمر:

- أصلح اللّه الرجل، أي قلة أدب في هذا الصبي؟

- كل هذا وتقول أي قلة أدب؟ ألا تراه متعجرًا عمامته وكأنه فقيه، وسائر الأندلس مكشوفة الرأس.

- عادة مشرقية، وأبوه مشرقي.

- بئست العادة، بل هي قلة أدب، فليحمل الكتب إلى دكاني مع صبيك.

فقال معمر:

- ولدي هشام احمل الكتب، هيا.

وقام هشام المؤيد معه لحمل الكتب، فقام معمر بحمل كتاب معهم وهو يكاد يتمزق حياءً ووجلاً، وهمس في أذن هشام المؤيد: اخلع عمامتك.

وسارا في السوق، الرجل ومعه هشام المؤيد وهشام بن معمر ومعمر يحملون الكتب، وكان هشام المؤيد مبتهج بحمل الكتب التي

أصر على حملها، إذ يجتاحه شعور ينبهه بأن مثله كمثل الخلفاء الأوائل يعيشون مع العوام ويأكلون مما يأكل فقيرهم. وسلم عليهم رجل، وكان صديقًا لذلك الرجل صاحب الكتب، فقال:

- الحمد للّه، منذ أن تولى محمد بن أبي عامر أمر المدينة طابت نفوسنا، وصرنا نأمن على أنفسنا من شرور الزعار والسراق، وكله بفضل أبي عامر، وها هو غدا الحاجب.

فقال الرجل صاحب الكتب:

- الحمد للّه الذي استبدل العامري بابن المصحفي.

- ابن المصحفي كان يجلس مع أهل الشرور وهو مسرور، ما عدا الرشوة والواسطة، وكأن الدولة ورثها عن أبيه، وهذا دأب الطغاة، يظنون أن البلاد لهم، وكأنها مزرعة ورثوها عن آبائهم.

فقال معمر ساخرًا:

- يقال أن المصحفي بعث كتابًا إلى أبي عامر؛ يطلب منه أن يجعله مربيًا لولديه.

فضحكوا ساخرين.

قال أحدهم بصوت خفيض:

- ابن أبي عامر منذ أن تولى وهو يسير بخطىً وئيدة في سبيل إرضاء أهل قرطبة، فما إن تولى أمر المدينة حتى حرق جميع كتب الفلسفة التي كانت في المكتبة الأموية.

فقال معمر بحسرة:

- آه، كم تعب الحكم رحمه اللّه في جمعها!

فتابع الرجل بذلك الصوت الخفيض:

- أعرف رجلاً كان تلميذًا في المسجد الجامع مع ابن أبي عامر، يقول إن أبا عامر كان يشتغل بالفلسفة والمنطق، ويرغب فيها، وكان من أشد المدافعين عنها.

- فلمَ حرقها إذًا؟

- تقربًا وزلفىً لأهل الأندلس، فهم مبغضون كارهون للفلسفة وأهلها!

ولم يمضِ النهار على معمر إلا بشق الأنفس، وعاد إلى الزهراء عند العصر، وارتدى هشام ملابسه الملكية في إحدى حجرات المكتبة وودع معمرًا وهو يقول: كان يومًا جميلاً يا أبا هشام، سنكرره إن شاء الله.

وعاد إلى مثواه وقد ملئت نفسه بتلك المشاهد عن حياة عوام قرطبة، وجلس يفكر في تلك الحياة الرحبة الأنيسة، وتسلل إلى مسمعه صوت تلك الجارية التي يستعذب صوتها ويبغض صورتها وهي تنشد أبيات ابن عبد ربه في ليل قرطبة البهيج:

أَعطيتُهُ ما سأَلا

حكَّمتهُ لوْ عدلا

وهَبْتُهُ روحي فما

أدري بهِ ما فعلا

أسلمتهُ في يدهِ

عيَّشَهُ أمْ قتلا

قلبي بهِ في شُغُلٍ

لا مَلَّ ذاكَ الشُّغُلا

قيَّدهُ الحُبُّ كما

قَيَّـدَ راعٍ جَمـلا

(٢٣)

اقتَربَ الوَعدُ وحانَ الهَلاك

وكُلُّ ما تَكرَهُه قَد أتاك

خَليفة يلعبُ في مكتب

وأمه حُبلَى وقاضٍ

يقضي جلَّ وقته لعبًا ولهوًا، وَالقليلُ من العلم، وخاصة بعد أن عرف لهوًا أكبر متعة لحياته الملوكية؛ فذات يوم رأى في منامه ذلك المشهد؛ عندما غنت أمامه تلك الجارية التي استعذب صوتها، وبعد السمر أخذته إلى مخدعه وطلبت منه أن يقبلها فقبلها وانفض منها، ولكن في هذا المنام لم يقرف من تقبيلها، بل تلذذ واستمتع، وتكررٍ ذلك المشهد إلى أن سأل هشام بن معمر فأعلمه أنه صار رجلاً راشدًا.

وكثر لهوه وعربدته مع الجواري الحسان، فصار يحب الرقص ويدمن الخمر، وهو ابن السابعة عشر، وأبو عامر قد توسعت سلطته وصار هو الحاجب المنصور، والفارس الذي لا يغلب، وما إن بلغ وزاد لهوه حتى ازداد طيشه، وهو الذي كان لبلاهته يتعفف تعفف الصالحين، فذات يوم وهو لم يبلغ الحلم بعد قالت له أمه:

- أتحب الغناء يا هشام؟

فقال لها:

- أما سمعتي قول الشاعر؟!:

اعتزل ذكرى الأغاني والغزل

وقل الفصل وجانب من هزل

فقهقهت صبح واعتلت ضحكاتها، وبينما هو على هذا الحال دخلت لبنى؛ كاتبة الحكم سابقًا، وهي مقربة من صبح، فقالت لبنى بعد أن سمعت القصة:

- مولاي هؤلاء الشعراء يمرحون في شبابهم، فإذا كبروا وشاخوا، بدأوا يدبجون القصائد في الزهد والعفاف علمًا بأنهم نفسهم كانوا غير عفيفين في شبابهم، هل سمعت بشاعر الأندلس يحيى الغزال؟

- نعم.

- ماذا تحفظ له؟

- لعمري ما ملكتُ مقودي الصبا

- فأمطو للذاتٍ من السهل والوعر

- **ولا أنا ممن يؤثر اللهو قلبه**

فأمسي في سكر وأصبح في سكر

وبالله لو عمّرتُ تسعين حجة

إلى مثلها ما اشتقت فيها إلى خمر

ولا طربت نفسي إلى مزهر ولا

تحنن قلبي نحو عود ولا زمر

فضحكت لبنى برقة، وقالت:

- وماذا تحفظ له أيضا؟

-إن الفتاة وإن بدا لك حبها

فبقلبها داء عليك دفين

وإذا ادعين هو الكبير فإنما

هو للكبير خديعة وقرون

فضحكن كثيرًا، ثم قالت لبنى:

- هل تعلم يا مولاي أن حديثه هذا ناجع عن تجربة عاطفية ناءت بالفشل؟ وانه قد قال:

قالت: أحبك قلت: كاذبة

غريب ذا من ليس ينتقد

هذا كلام لست أقبله

الشيخ ليس يحبه أحد

يا مولاي، هذا الغزال فشل في الحب، فكتب هذا الشعر.

وقال ذات يوم لهشام بن معمر:

- ما رأيك أن نخرج من القصر دون مساعدة والدك؟

فاستغرب هشام، وقال له:

- وكيف ذاك؟

- مع الداخلين والخارجين.

- وأبو عامر؟

- أبو عامر في الغزو.

- أعلم، أعني رجاله.

- لا يدخل عليَّ أحد سوى أمي وهو، أما أمي فتعلم، ولن تستطيع الرفض.

ولكن صبحًا أبت أن يخرج خوفًا عليه، وقالت:

- أنت لا تعرف أحدًا، وكيف لك أن تدور على الرعية؟

فقال هشام:

- واللّه لأخرجن ولو اجتمعت الجن والإنس.

ولم يكن هناك خيار أمامها سوى الموافقة، وكانت تريد أن تبعث خلفه رجالاً يلحقون به، ولكن خوَّفها منهم، فكلهم رجاله وقد اختارهم بحنكة.

وخرجا من الزهراء، وهم متخفون بزي موظفي المكتبة، وما إن ابتعد هشام المؤيد قليلاً عن بابها حتى صار يركض في أزقتها كأسير فر من السجن، ويقول: ما أجمل الهواء العذب؟ إلى أن وصلا إلى النهر الكبير، ونظروا إلى جمال النهر، فقال هشام المؤيد:

- أتعب نفسه جدي عبد الرحمن عندما أتى بماء هذا النهر من هنا إلى الزهراء، وكأنه كان يعلم أني سأكون حبيسًا فأتى بماء النهر لكي أراه في قصري، انظر إلى قرطبة ما أجملها! انظر إلى طبيعتها!

فقال هشام بن معمر:

- وهؤلاء كلهم شاكرون لك ولعهدك، فلولاك لما كان هذا العهد من الرخاء.

فقال هشام المؤيد ساخرًا:

- وهل نصدق كذبة ابن أبي عامر ونحن نعلم أنه يكذب؟ الكل يعلم سيطرته عليَّ وعلى ملكي، وأنه المالك الحقيقي للدولة لا أنا، فعلامَ نعانق الملك زورًا؟

- لا بدَّ أن يعود الحق إلى نصابه.

- وكيف سيعود؟ وهل من مثلي قادر على مجابهة من مثله؟ أنا أقضي وقتي بين الخمر والسهر والشعر وأحضان النساء، وهو بنى مجده في غفلتي.

وقفا عند بياع الفاكهة في السوق ليشتريا فاكهة، فقال هشام المؤيد للبائع الذي كان يزن:

- ما الأخبار؟ وكيف حال السوق هذه الأيام؟

- وكيف تريده أن يكون؟ أعز الله الحاجب المنصور، خير من عرفنا من الحُجاب والخلفاء.

- ولكنه ليس خليفة، إنما يأتمر بأمر أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله أعزه الله.

فقال البائع ساخرًا:

- هشام المؤيد؟ أنت تسخر مني يا رجل؟ الكل يعلم أن أبا عامر استبد بالملك وصارت الدولة له، وانتهى ملك بنِي أمية في الأندلس والمغرب كما انتهى بالمشرق من قبل، ولم يبقَ إلا القليل ويعلن كما سمعت (فتقرب منهم وخفّض صوته) الخلافة له وسيفتك بهشام وأمه كما فعل مع المصحفي والصقالبة وسائر الخصوم.

فقال هشام وقد غلى دمه:

- ماذا تقول أيها الرجل؟!

فقال البائع همسًا:

- ويقال أن أم هشام على علاقة غرامية بابن أبي عامر، فقد شغفها حبًا، وكانت تخون الخليفة الحكم مع صبيها هذا العامري، حتى بلغ ما بلغ من القوة والفتوة، أما سمعت ذاك الشاعر الذي يقول فيهما:

اقتَربَ الوَعدُ وحانَ الهَلاك

وكُلُّ ما تَكرَهُه قَد أتاك

خَليفة يلعبُ في مكتب

وأمه حُبلَى وقاضٍ يُناك

ففار وثار هشام من قوله ومسكه من تلابيبه بقوة وصار يضربه بقوة وبلا هوادة وهو يصرخ بوجهه: ألا تعلم عمن تتحدث أيها الحقير، أم مولاك وأميرة هذه الدولة، بنو أمية هم من فتح هذه البلاد وجعلوك أنت وأمثالك تقفون ها هنا، خذها مني يا وغد، حقير.

ومضى به ضربًا ولطمًا ولكمًا، واجتمع الناس على صراخ البياع وجاء العسس يركضون ففرَّ الهشامان مسرعين.



ينظر إلى قرطبة من علٍ، فقال هشام بن معمر قاطعًا الصمت الكئيب:

- اقترب المساء، هيًّا لنعد إلى الزهراء.

فقال هشام المؤيد بصوت متهدج:

- كيف أعود؟ ألا تسمع ما يقولون؟

اقتَربَ الوَعدُ وحانَ الهَلاك   وكُلُّ ما تَكرَهُه قَد أتاك

خَليفة يلعبُ في مكتب   ....

ثم يدخل في نوبة بكاء هستيرية، ويقول بصوت عالٍ وقد تبدد في ذلك الفضاء المنشرح:

- قرطبة، لماذا لم أرَ خيرًا منكِ؟ لماذا لم أرَ منكِ إلا بؤسًا وكمدًا؟ هل يجب أن تصفقي للقوي وترفعيه؟ وتذلي الضَعيف وتدعسيه؟ رفقًا بي.

ثم يستدير إلى صاحبه وهو يقول: قل لي يا هشام ماذا أصنع؟ مَن السبب؟ أبي الذي عهد لي بهذا الحمل الثقيل وتركني وحيدًا؟ أجبني! أم ابن أبي عامر؟

له علاقة غرامية مع أمي، وساعدته المقادير، واستمال الأمراء والجيش بالأموال، ودانت لهيبته الرجال، وبقيتُ أخرقًا لا أحسن شيئًا.

ثم جلس يبكي على نفسه.

مضى وقت وحلَّ المساء وهشام المؤيد ينظر إلى قرطبة من مكان عالٍ خارج أسوارها، فقال هشام بن معمر:

- لنعد الآن، فلربما يبحثون عنك الآن.

- يبحثون! فليبحثوا.

ورجعا إلى الزهراء فوجدا الأبواب موصدة! وعادا يتسكعان في الأزقة، فقال هشام المؤيد:

- خذنا لحانة يا هشام.

- حانة!

- نعم، ألا تسمع؟ أرشدني إلى حانة نسهر فيها ونقضي أوطارنا.

- لا يوجد!

- ماذا؟

- منذ أن تولى الحاجب ابن أبي عامر أمر المدينة أمر أن تغلق وتمنع وتهرق في الطرق، وكان القرار بخط يدك، ألا تعلم؟

فقال بيأس:

- أعلم! ومن أين لي أن أعلم ذلك؟ لا عمل لي إلا التوقيع على قراراته التي يتخذها مع أمي، يا هشام هل تصدق أني أحسد أبسط رجل في قرطبة على ما له من حق وحرية؟ ها أنا أخرج من قصري متخفيًا هاربًا، لأروح على نفسي بشيء من التبسط، فإذا تأخر الوقت قليلا لم أستطع أن أدخل قصري، قل لي يا هشام ناشدتك اللّه:

أَلَيسَ منَ العَجائب أنَّ مثلي

يَرَى ما قَلَّ مُمتَنعًا عَلَيه

وتُملَك باسمه الدُّنيا جميعًا

وما من ذاك شيءٌ في يَدَيه

وفوق ذلك أمي، أتسمع أهل قرطبة وما يتحدثون ويتكلمون به عن أمي وعنه؟ يا للعار، واللّه إني لأهم الآن أن أهوي من فوق جبل

فلتقطني الطير خير لي من أن أنظر إلى أمي وتكون في رأسي تلك الأبيات المشينة.

- صبرًا يا أمير المؤمنين، فستكبر غدًا، وتستلم الحكم وتباشره بنفسك.

- ومتى ذلك؟

- لم يبقَ إلا القليل.

وبينما هم سائرون نحو بيت معمر الوراق رأوا فتاةً في الخامسة عشر من عمرِها وهي هائمة على وجهها، وما إن رأتهما حتى تسمرتَ كأنها لم ترَ بشرًا من قبل، ملابسها تنم عن التشرد والبؤس، بل كل شيء في جسدها ينم عن ذلك البؤس الشديد، جسدها الهزيل النحيل، وشعرها الأشعث المشرأب بصفرة فرنجية، وعيناها الزرقاوان، ومن يتفحصها جيدًا يدرك أن فيها جمالاً غائرًا خلف هذا البؤس.

فقال هشام المؤيد:

- من أنتِ؟ وماذا تفعلين هنا؟

فلم تجب، بل بقيت صامتة وتضع راحتيها على فيها، وتشير إلى الطريق، وإذا برجل سكير خلفها، فقال لها زاجرًا:

- تعالي أيتها البلهاء.

فتقدم هشام نحوه وقال:

- دعها واغرب من هنا.

- ومن أنت أيها اللص الزعر، (ثم مخاطبًا الفتاة) خذنُ من أخدانك يا بنت الزانية.

فضربه هشام المؤيد ضربة قوية سقط على إثرها مغشيًا عليه، وأخذ الفتاة ومضوا مسرعين إلى بيت معمر.

جلست تأكل الحساء بنهم بادٍ، ومعمر يقف عند الباب يراقب الطريق وهو متوتر خائف.

فلما سألا الفتاة بعد أن سكن جوعها ومُلئت معدتها، قالت:

أنا شُعب، لا أهل لي ولا أعرف أحدًا، منذ أن فتحت عيني وأنا لا أعرف لي أبًا، أمي امرأةٍ فرنجية، تعمل في حانة هنا، عندما كانت حانات وعندما كان لها طُلاب، ولكن صاحب المدينة منعها، ولاحقوا كلَّ من يمارس الدعر والعهر، ولكن ماذا تصنع أمي وهي لا تحسن سواها، وما تتقن عداها؟ هي فرنجية أتت سبية إلىٍ قرطبة، وعملت عند صاحب حانة، وأنا أتيت صدفة، أو ولدت خطأً، لا أعرف أبي، فأنا نزوة من نزواته بثها في عاهرة، وبقيت أمي تمارس مهنتها خفاءً، ولكن رقباء صاحب المدينة كانوا لها بالمرصاد مرارًا، فلم تخرج من السجن منذ أن سُجنت قبل شهرين، ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش على الصدقات، إلى أن وجدني هذا الرجل الذي كان يلاحقني فآواني مقابل أن أخدم زوجته، ولكنه يتقرب مني مرارًا، فعلمت زوجته بي، واتهمتني بأني أحاول خطف زوجها منها، فحبستني، تضربني كثيرًا وتعذبني، إلى أن تمكنت من الهروب قبل قليل.

كان هشام المؤيد يستمع إليها وقد تأثر بحديثها.

معمر ينتظر الصباح بأحر من الجمر، ولا يعلم ماذا سيحصل غدًا، هل يقطع رأسه؟ إنه لا يستطيع أن يتخيل ما سيُفعل به، ولما رأى عطف هشام المؤيد على الفتاة، احتار، حتى أنه قال لزوجه:

- عجيب هذا الفتى، تارة أقول أنه ساذج طائش متهور، لا يفقه من الحياة شيئًا فضلاً عن أمور السلطان والملك، حتى أني لأسأل

نفسي: لولا الحاجب محمد بن أبي عامر وقوته وصلابته وبطشه بالخصوم ماذا حل بالأندلس؟ وتارة أقول أنه يعلم ما تضمره السرائر فضلاً عن الظاهر، ولكني أعطف عليه جدًا وعلى أمه، نعم، لو خُلق رجلاً من العامة أفضل له من هذه الحياة، وهل تحسبين أنَّ صبحًا تصمت على استحواذ ابن أبي عامر على ملك ولدها كما تزعم؟

فقالت زوجته:

- وهل الملك إلا لولدها؟

فتبسم معمر، وقال:

- هكذا يظن الناس، ولكن الملك لمن يستحقه، الإسلام جعل تداول الملك شورى لا وراثة.

وفي اليوم التالي ومنذ الصباح الباكر وصل خبر إلى قرطبة مفاده أن أبا عامر سيصل قرطبة هذا اليوم!

وملكتهم الحيرة والدهشة، وقال معمر وهو مرعوب: مولاي أمير المؤمنين عُد الآن ولا تدعنا نخسر أرواحنا، الحاجب أبو عامر هل تدرك بطشه؟

ففكر قليلاً، ثم قال: والفتاة؟

فنظروا إليها، فقال معمر: دعها عندنا، أنا أعرف أين أدعها.

فخرج متخفيًا متلثمًا، إلى أن وصل إلى الزهراء وكان الحاجب قد وصل وبث رجاله في كل مكان باحثين عنه.

وما إن وصل إلى بابها حتى أحاطت به الجند، ومسكوه، فقال صاحب الشرطة: تأخرت يا مولاي، أبو عامر ينتظرك.



(٣٤)

أبني أمية أين أقمار الدجى

منكم وأين نجومها والكوكب

غابت أسود منكم عن غابها

فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

وخوت الزهراء على عروشها كأن لم تغن في الأمس، وأغلقت أبوبها وفرغت، ونقلت الدواوين وشؤون الحكم إلى (الزاهرة) المدينة العامرية الجديدة، وطوقت الزهراء بأسوار عالية متينة، ولم يعد هناك منفذ أو مخرج منها.

الهدوء يلف المكان، يجلس هشام أمام باب الزهراء، يتأمل الحياة في قرطبة وكيف تسير، يحلم أن يأتي ذلك اليوم الذي يخرج فيه ويتحرر من هذا السجن، وقد علم أن أبا عامر أشاع بين الناس تفرغ الخليفة إلى العبادة وأنه فوضه أمر البلاد، وصدقه الناس إذ لا شيء يستطيعون فعله غير التصديق، ميمونة وخالدة وسعاد، هل بقين ينتظرن أن أحقق وعدي؟

هشام بن معمر وأبوه صارا من الماضي بعد أن تم طرد معمر من المكتبة الأموية، هو يشعر دائمًا بالندم لأنه تسبب لمعمر الوراق بقطع الرزق وربما قطعت رقبته، من يدري!

تحول القصر كله إلى مكانٍ كبير للخمر والسكر، فلا أحد في القصر والزهراء سواه هو وخدمه وأمه.

وبينما هو يتأمل أسوار القصر تسلل إلى أذنه صوت رقيق عذب:

- مولاي.

فاستدار نحوها، وطوقها بيديه وهو يقول:

- سبحان من توجك بالسحر الحلال، هل تعلمين يا شُعب كيف أنبسط وأسعد في هذه الحياة؟ عندما أراك، ما الفرق بينك وبين السحر؟ إلا أن سحرك نقبل عليه في فرح ومرح، كفرحة الشيخ إذا أدبر الشباب ورأى في منامه ما يراه الصبي أول بلوغه الحلم.

فقالت بتغنج وتدلل:

- لا تبالغ يا مولاي.

- للمولى معنيان: فتارة تعني سيدك وتارة عبدك، وأنا الثاني بالنسبة لك. هل تذكرين ذلك اليوم؟ يوم التقيتك في أزقة قرطبة؟!

فضحكت وقد توردت خدودها وبدت قمراء تنير قلب هشام، هي اليوم مختلفة تمامًا عما كانت في ذلك اليوم، فقد عملت الصنعة يدها وضمت إلى جواري القصر، وسرعان ما تنظفت وتلمعت فبدا جمالها الغائر ساحرًا، وهكذا دأب الزهراء وهكذا صنعها مع الحسناوات تفرغ لهن من سحرها، كان يعشق ضمها إليه؛ لأنه يشعر بنقاوة سريرتها وبراءتها الشاحبة.

ولكن طارئًا جديدًا قضَّ عليه مضجعه وزاد بؤسه، وهي أمه، فبعد مرور سنين عددًا أدركت أن الأمر خرج منها ومن يدها، وأنه لم

تعد سلطةٌ بيدها وهي أم الخليفة والسلطانة، ولم يمتلك ولدها شيئًا من السلطة، وأن تدبيرها مع أبي عامر قد فاز بمغانمه هو وحده دونها هي وولدها.

فلم يعد باليد حيلة إلا الوقوف في وجهه، ليتحول الحبيب القريب إلى عدو لدود، ذلك الرجل الذي سارت خلفه دون أن تبصر، وداست معه على كل خصم أو ند قد انقلب وانفرد بالملك وحده، هل هي بلهاء لهذه الدرجة؟ بطشت معه، فإذا استقامت الدولة ومضت في ربيعها تركها وحيدة، تصارع خيالاتها وحلمها بالسلطة، وهذا هو نهاية الحب إذا نشأ على مطمع.

فقالت لأبي عامر يومًا:

- أريد أن يباشر هشام الخلافة بنفسه، ويمتلك السلطة الفعلية.

- هو فعلاً يمتلك سلطة وتحكم الدنيا باسمه.

- تحكم باسمه لكنه لا يحكم شيئًا بيده.

- وأنا أكفيه مغارمها ومثالبها وله مغانمها.

- وكيف ذاك؟ ولو كان على هذا فقط لهان، ولكنك تأسره في بيته، وتشيع بين العامة أن الخليفة تفرغ للعبادة وتلاوة القرآن، وأنه فوض أمر الخلافة إليك دون سائر الأمويين وهم أولاد الخلائف.

- وأولاد الخلائف لا يريدون خيرًا بكم بل مكرًا.

- وأنت ماذا تريد بنا؟

فقال بهدوء ينم عن خيبة:

- بعد كل الذي صنعته في سبيله؟! ثم تقولين لي هذا، لم أفعل ما فعلته إلا وفاءً مني لحقه وحق أمير المؤمنين الحكم المستنصر، قضيت على خصومه وحطمتهم وناجزت الأعداء بعد أن كاد يطأ

الجلالقة قرطبة أيام المصحفي، فقاتلت وما زلت أقاتل، وتأتين وتقولين هذا!

- لم تفعله إلا في سبيل غرضك.

- إذا كان كما تقولين فلمَ أبقيته حاكمًا؟ وما غرضي إلا طاعة أمير المؤمنين وتوطيد دولته، وهذا دأب الحاجب المطيع.

- أبقيته حاكمًا اسميًا خوفًا من العامة وثورتهم.

فتركها وخرج، فصرخت به: كنا قد صنعناه معًا، أنا وأنت، صبح وكاتبها الفتى محمد بن أبي عامر، في سبيل هشام، فلمَ أخذتها دونه؟

أدرك الحاجب المنصور بفطنته أن صبحًا لن تبقى هادئة مستقرة، وستسعى بكل ما أوتيت من بأس ورجاحة عقل لتقليب الناس عليه وتحطيم مجده التليد.

وخرجت لتقول لهشام قم واستعد ملكك، لتجده بين أحضان شُعب، والأخيرة كانت تنشد أبيات أبي نواس:

يا ساحر المقلتين والجيد

وقاتلي منك بالمواعيد

توعدني الوصل ثم تخلفني

فوا بلائي من خلف موعودي

حدثني الأزرق المحدث عن

شمر وعوف عن ابن مسعود

ما يخلف الوعد غير كافرة

وكافر في الجحيم مصفود



تدور الفكرة في رأسها، تتردد في الإقدام على هذه الخطوة، ولكن يجب أن تفعل ما لا بدّ منه، فعزمت أمرها على الخروج الى أشياخ بني أمية لتجهز ثورةً على ابن أبي عامر، ملك ولدها ضائع، ودولة بني أمية في الأندلس تحتضر عمّا قليل، فلم يكفه بناء مدينة ملوكية، والحجر على الخليفة وتسمية نفسه (الحاجب المنصور) ثم (الملك المنصور) بل عهد لولده بولاية العهد وكأنه خليفة، بل وصل إلى سمعها ما زلزل كيانها؛ وذلك خبر اجتماع المنصور برجال كثر من علماء وقضاة وأهل الرأي والمشورة، وأنبأهم بعزمه على أخذ الخلافة له؛ وإنهاء بني أمية في الأندلس، ولكن بعض الفقهاء عارض ذلك، خوفًا من العامة وسوء منقلبهم عليه، ولئن ركد هذه الفترة فلن يركد كثيرًا حتى يطبق أمره بقوته ولكنها لن تنتظر، بل ستحاول أن تصنع ثورة ضده، هي تعلم أن أهل قرطبة متقلبو الأهواء منفلتو الجماح لا يكبحهم إلا خليفة قوي ذو شرعية.

تقف صبح أمامَ أشياخ بني أمية ومواليهم فتقول محاولة كسبهم:

يا بني أمية، أولاد الخلائف وأهل الحل والعقد، هل ترضون ما يحصل لخليفتكم؟ ملك بني أمية في زوال وأنتم خاضعون لهذا المستبد الطاغية، الذي حبس الخليفة وأعلن للناس أنه متفرغ للعبادة، وانفرد بالملك وسمى نفسه الملك المنصور وعهد لولده بالحجابة، وها أنتم قد رأيتم كيف ضرب أنداده بعضهم ببعض حتى فرغ الملك ووقف يزأر: هل من منافس؟

أين أنتم يا أحفاد صقر قريش؟ هل ضيعتموه وفرطتم في حقه؟ حتى تركتم الشاعر يقول دون خوف أو وجل:

أبني أمية أين أقمار الدجى

منكم وأين نجومها والكوكب

غابت أسود منكم عن غابها

فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

هل أدركتم حجم المصيبة؟ ملككم في طريقه إلى الزوال، فأنقذوا ما يمكن إنقاذه وأدركوا خليفتكم وولي أمركم أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله، فهذا عهد الحكم رحمه الله فيكم.

فقال رجل منهم:

- وما العمل ولم يترك لنا المنصور بابًا إلا وأغلقه علينا، فشتت شملنا ودمر جمعنا، فكيف لنا القيام عليه وهو في هذه القوة ونحن في هذا الضعف؟

فقالت:

- هناك، في المغرب أعظم أمرائها ملكًا وأشدهم لبني أمية ولاءً؛ (زيري بن عطية)، وربما لا تعلمون أن زيري بن عطية قد أضحى أعظم أمراء المغرب بعد أن قضى على ألد خصومه وهم بني يفرن وأميرهم يدُّو بن يعلى، فلما هزمه وأرسل رأسه لابن أبي عامر عظم ملكه، وشيد لنفسه مدينة وجدة جنوبي شرقي مليلة، وبنى لنفسه قصرًا ويعيش كالملوك، ولكن ظاهره مع ابن أبي عامر وباطنه ضده.

- وكيف عرفت أنه غير موالٍ لابن أبي عامر في باطنه؟

- هل تذكرون قدومه إلى قرطبة قبل بضعة سنين عندما أرسل له ابن أبي عامر؟

- أجل.

- عندها أكرمه وأنزله في قصر المصحفي وخلع عليه لقب الوزارة.

- وهذا يدل على صلتهم القوية.

فقالت باسمة:

- ولكن زيري لم يبتهج، بل غضب وأضمر في نفسه شرًا وعداوةً لابن أبي عامر، لكنه لم يصرح بها علنًا خوفًا منه، لأنه يرى نفسه أهلُ للإمارة لا الوزارة، فلذلك: نفسه تجيش بما تجيش به نفوسنا وتنقمه على ابن أبي عامر، فإذا أعطيناه شرعية وطلبنا منه أن يجتاز بجيشه ويدخل الأندلس ليحرر خليفتكم من شر ابن أبي عامر واستبداده، وأمددناه بمالٍ وفير ليشتري وفاء وحب جنده، عندها ستجتمع القوة معنا من الخارج، وأنتم من الداخل تنخرون ببنائه، وتصفون شره وغيه وتجبره واستحواذه على الملك زورًا وبهتانا للعامة، فإذا أقبل زيري بن عطية بجيشه يزمجر قوةً وبأسًا استعد ابن أبي عامر لنزاله، فإذا خرج من قرطبة هو وجيشه انقضضتم على الزاهرة وأسقطموها وحررتم خليفتكم، ثم تُغيرون عليه من ظهره فيطبق عليه.

واقتنع سائر الأشياخ والموالي بما قالته صبح، وخاصةً بعد اضطهاد المنصور لبني أمية وحرمانهم من المناصب وإبعادهم عنها، وكيف لا يقنعون وصدورهم تنطوي على جذوة دائمة الاشتعال لا يطفئوها إلا سطوة الملك؟



(٣٥)

ماذا تريد من رجل يصعد إلى الملك على أكتاف النساء؟!

ودخلت صبح إلى خزينة الزهراء وإذا بها مليئة بالذهب والنقود، وجهزت عشرة صناديق كاملة، وكتبت معها كتاب إلى زيري، وخرج بها الغلمان خفية، وكانت قد بعثت قبله كتاب وتأكدت من وفائه وولائه المطلق.

كانت صبح قد أعلنت الحرب على المنصور وهي تدرك في أعماق نفسها أنها لا تستطيع أن تقاوم أمامه، أو تصمد أمام طغيانه الذي لا يحده حد أو سقف، تدرك أنه قوي كشجرة ضربت جذورها في أعماق الأرض ورأسها ناطح الجبال فلا تزعزعه ريح تحف بضعف وتسير في ظلال الوجل، ولكن الضعيف إذا أحصر لا يمتلك حلاً إلا المقاومة بما أوتي من ضعف!

ولم يمضِ يوم حتى أصبحت صبح لتجد الزهراء مطوقة بالجند، ثم دخلوا كالسَيل العرم مسرعين مقتحمين بوابة القصر بلا وجل من (أمير المؤمنين)، ودخل عبد الملك بن محمد بن أبي عامر ومعه رجال الدولة وزراءً وقضاةً.

ودخل إلى مجلس الخليفة في الزهراء.

وجاء هشام وهو خائف من قدومهم واقتحامهم الزهراء.

فقال عبد الملك وكان حدثًا ولكنه قوي كأبيه:

- مولاي أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله، قد عثرنا على أموال طائلة مع فتيان من هذا القصر، وعلمنا بعد التحقيق أن هذه الأموال ذاهبة لعدو الله زيري بن عطية، الذي أعلن العصيان ضد الدولة وضدك، فهل أنت من أرسل هذا المال ومن دبر لتقلبوا نظام الحكم؟

فقال هشام وهو خائف متردد:

- معاذ الله أن أحرض ضد دولتي وسلطاني.

فقاطعه قائلاً:

- أنت لا تحرض ضد دولتك، بل ضد الملك المنصور أعزه الله، فبعثتم إلى زيري بن عطية ليدبر ضدنا، أهذا عهدنا بك؟ أهذا هو جزاء المنصور منك؟ ألم تكن طفلاً تحبو والمنصور من علمك وأدبك؟ ألم تتولَ الخلافة وأنت صغيرٌ لا تحسن التدبير فكفاك شرها، وقضى على أعدائك في حين أن الجلالقة أيام المصحفي كادوا يدخلون قرطبة؟ فقام المنصور وانتصر؟

- بلى، وأنا على عهدي.

- إذًا فعليه تُأخذ أموال خزينة الزهراء كلها، لأننا نعلم من يدبر الأمر، أما عدو الله زيري بن عطية فنحن من سيكفيكم إياه، وعليه يشهد جميع الوزراء وقاضينا ابن ذاكوان.

وحملت تلك الأموال الطائلة وصبح تصرخ خلفهم: اتركوها، إنها أموال أمير المؤمنين.

ولكن دون مجيب، فقد سبق الحزمُ الرأفةَ.

ودخل أبو عامر الزهراء مزمجرًا بكتابٍ بيده، فخلا بهشام، وقال له:

- ماذا فعلت؟

- وأي شيء فعلته؟

- ألا تدري؟

فقال متهكمًا:

- أنا متفرغ للعبادة، ألا تدري؟

فقال المنصور بتريث:

- إن الأموال التي في الزهراء كانت هي للمؤمنين، تُصرف في شؤونهم ومصالحهم، لا للعصاة المتمردين.

فقال هشام بلا مبالاة:

- لم أفعل شيئًا.

فقال المنصور وقد تملكه الغضب:

- ولكن أمك التي فعلت، والآن ستخرج إلى القضاة والفقهاء وهم جالسون في مجلس الخلافة وتوقع على كتاب لا لبس فيه، مفاده أنك عهدت لي بتدبير شؤون الدولة كافة، وأمام الشهود، فإذا كان من الغد فسيخرج أمير المؤمنين في موكب مهيب تحفه العظمة من كل جانب، ليرى العامة أنه بخير لا كما يشيع أندادنا ومن يمكرون بنا.

فقال بلا مبالاة:

- كما تريد.

وخرج إلى مجلس الخلافة ووقع على القرار بلا مبالاة، وفي اليوم التالي خرج هشام المؤيد بالله في موكب عظيم يتقدمه المنصور بن

أبي عامر وولده عبد الملك وعن اليمن والشمال جيش كثيف، وهكذا قطع المنصور شكوك خصومه بيقين ملكه.

(هذا وقد قطعنا عنه رزق الوزارة، ومحينا اسمه من الديوان، واعتبرناه خارجًا عاصيًا، بعد أن قطع ذكرنا في الخطبة وطرد عمالنا في المغرب، وأعلن الخروج والثورة. وقد انتدبتك لقتاله، لما نعلم من قوة بأسك وشدة ولائك، وأمددتك بالأموال والذخائر، فإذا عبرت البحر بقواتك ووصلت إلى طنجة فلسوف تنضم إليك جموعٌ غفيرة من بربر عمارة وصنهاجة وسيحالفونك على قتال عدو الله وعدو أمير المؤمنين وعدوي وعدو المؤمنين زيري بن عطية، فسِر على بركة الله)

فسار واضح فتى المنصور ومولاه بجيش كثيف عظيم بعد أن تلقى تعليماته الأخيرة إلى أن اجتاز البحر ووصل إلى طنجة وانضمت له جموع عظيم من صنهاجة وبربر عمارة.

وادي زارات - جنوب طنجة:

يقف زيري بن عطية أمام جيشه الكثيف العظيم وقد اقتربت ساعة الفصل، فجيش الأندلسيون أمامهم بقيادة واضح.

فقال بصوته الجهوري وهو يحرض جيشه ويسير بين صفوفهم راكبًا فرسه:

يا رجال الحق الصادقين، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، واعلموا أنكم على الحق ماضون، فمن مات منكم فهو

الفوز العظيم، ومن عاش فهو المنتصر، فإما طريقًا إلى النصر، وإما إلى القبر، وهذا أبو عامر الذي لقب نفسه بـ (المنصور) لا نصره الله، وسمى نفسه (ملكًا) وهو لا يملك شيئًا، قد جاءكم قواده بعد أن استصرخت بنا واستنجدت أم الخليفة هشام المؤيد بالله، وهذا كتابها (فأخرج كتابًا) تقول فيه أن ابن أبي عامر لم يكفه الاستحواذ على ملك ولدها بل زاد في شره وغيه وبطشه واستبداده؛ إذ حبس الخليفة في قصره بعد أن بلغ وصار راشدًا قادرًا على الملك.

كان خليفة صبيًا فانفرد في الملك، فقلنا وصية الحكم، فإذا بلغ وعرف طرق التدبير سُلمت الخلافة والإمارة له، وعلى هذا عاهدنا وبايعنا، ولكن أبا عامر أخذ الملك له واستأثر به دون أميرنا، والأدهى والأمر أنه حبس عليه، وأشاع بين العامة والناس أجمعين: أن الخليفة تفرغ للعبادة، وإذا أراد الخروج من قصره خرج وهو مرتد برنسًا كالنساء، خوفًا على نفسه، حتى صار الشاعر يهزأ ببني أمية الذين بايعناهم ويقول:

أبني أمية أين أقمار الدجى

منكم وأين نجومها والكوكب

غابت أسود منكم عن غابها

فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

فقاتلوا قتال من خسر ماله وأهله، ولا ترضوا إلا باجتياز البحر ودخول قرطبة واستعادة الحق إلى نصابه، فأنتم تكثرون وقت الفزع وتنفرون وقت الطمع، وهذا عهد خليفتكم هشام المؤيد بالله أعزه الله وأمه، الله أكبر.

وأُخرجت السيوف من أغمادها وعلت تكبيرات الجيشين: اللّٰه أكبر.

والتحم الجيشان وبدأ القتال عنيفًا، وبين صهل الخيول وتطاير الرؤوس؛ كان هشام في قصره وتُدار في مجلسه الكؤوس، في ساحة الوغى جيش زيري يقاتلون قتال من فقد أهله في سبيل هشام وهو في أحضان شُعب يترنح وينشد شعرًا ماجنًا، فذاك يفقد كلتا يديه ولم يعد يقوى على حمل السيف فينزل ويركض نحو الجيش المقبل عليهم ليكون جدار صدٍ لأصحابه فيصيبه سهم في رقبته فيسقط مضرجًا بدمه.

وينظر زيري إلى جنوده فيراهم مقبلين على عدوهم بكل بسالة وشجاعة، فيصرخ بهم بعين تسيل منها الدمع فرحًا: قاتلوا فواللّٰه لن يخذلكم اللّٰه، فإن هُزمتم فلا خير بالعيش بعد إخوانكم.

ويفتك فتكًا مروعًا بالجيش الأندلسي، ويبدأ الجنود بالفرار من ساحة القتال.

مضت ثلاثة أشهر من المعارك الدامية، انكسر جيش الأندلس وعاد واضح إلى الجزيرة الخضراء، بعد خسارة الألوف من كلا الجيشين، وهكذا تسير الحياة، يسكن الشهداء القبور في سبيل من يسكن القصور.



(٢٦)

ليته يأتي سريعًا فأريح وأستريح

الجزيرة الخضراء! بلدته ومسقط رأسه، ها هو يعود إليها مجددًا، يطوي السدود والحدود والقيود، ولكن هذه المرة يعود وهو ملك عظيم تهابه الأمم، يعود ليسير جيشًا جرارًا نحو المغرب، يلتقي بولده ليداري خيبة جنده وانكسارهم، هذه القرى المترامية وهذه السهول المنبسطة، وهذه الجبال والوديان، كلها تشكل ذكريات الطفولة ومطلع الشباب.

يصل إلى ذلك البيت الخاوي، طلل باقٍ، هذه الأطلال البائسة هي مسكنه، من هنا كان يحلم بالملك العظيم، حلم لم يقف بوجهه حد، بل كان محفوفًا بنبوءة شيخ فانٍ، لم يكن لدى صاحبيه وابني عمه أي شيء عدا الفخر بأبي زراعةً جدهم صاحب طارق بن زياد، فإذا حدثهم أحد أو لمزهم وهم في فقرهم المدقع، صرخوا بوجهه: ألا تعلم من نحن؟ نحن أحفاد عبد الملك المعافري، الذي لولاه هو وصحبه لما كنتم هنا.

أما هو فكان يريد أن يبلغ غايته، لم يكن ذكاؤه بدعًا من قومه، ولكنه حصيف يعرف ما يريد وإلى أين يصل، كان جده لأمه رجلاً زاهدًا عابدًا، وبينما هو يرى محمد ولمّا يبلغ الثالثة بعد، قال لأمه:

- ولدك هذا لن يرضى بهذه القرية.

فقالت له أمه:

- يا أبتاه، إن تعلم العلم وصار فقيهًا كأبيه، فهذه غاية مأربي، وسيكون قاضيًا بإذن الله فإذا بلغ القضاء لم أخشَ الفقر بعد.

فقال لها:

- أي قضاء وأي فقر؟؟ ولدكِ هذا سيملك الأندلس كلها.

فقالت باسمة:

- لو لم تكن أبي، لقلت أن فيك مسًّا، ولكني أعرف حكمتك وبصيرتك، ولكن أقول لك قد أخطأت التقدير هذه المرة، فنحن لا نملك شيئًا، إلا هذا الصوف الذي لا نبيعه إلا بعد شقاء ونصب.

- (ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً)، وسترين.

ومضت الأيام، وبدأ ذلك الصبي بالذهاب إلى الشيخ في المسجد، فحفظ القرآن في أشهر قليلة، وبدأ بحفظ الشعر، ودراسة الفقه، فأبدى حصافة ونباهة فاقت أقرانه؛ إذ درس كتاب سيبويه على يد شيخ في قرية نائية، ولكن تبين للشيخ هذا أن محمدًا يستوعب ويفهم ما لا يفهمه هو نفسه من كتاب سيبويه، فقال له:

- يا ولدي إن لك عقلاً راجحًا، ونباهةً قَلت عند أقرانك، وأنت أكبر من العلم الذي عندي، فولِ وجهك إلى منارة العلم والعلماء، وانهل من جامعها.

- قرطبة!

- أجل يا محمد، قرطبة، من لم يزُر قرطبة؛ لم يرَ الدنيا، وأبوك يعلم ذلك، ألم ينصحك؟

- أبي رحل منذ شهور إلى الحجاز حاجًا، ولم يعد إلى الآن، وقد عاد الحجيج منذ زمنٍ غير قليل.

- أبوك له معارف كُثُرٌ، لعله أقام في بلدة مان قل لأمك عن هذه الفكرة.

عاد إلى البيت، فرأى جده يعالج سكرات الموت، فقال له:

- يا محمد، سوف تبلغ غاية عظمى ومنصبًا يجعل أهل الأندلس كلهم بين يديك، فإذا تحققت فراستي فيك ووليت أمرهم فاعدل بينهم، واجعل الناس تترحم على أجدادك فإن لهم باعًا في العلم والجهاد.

فثقلت عليه السكرة وهو يوصيه: الغاية يا محمد.

ومات جده، وقبل أن تمضي شهور جاءهم خبر وفاة أبيه، فحزن محمد حزنًا بالغًا، وبقي معينًا لأمه، وطول تلك الأيام التي قضاها بحمل الصوف إلى السوق وبيعه والعمل بأرضهم الصغيرة يُقلب تلك الفكرة، وبقي يفكر بوصية جده، جدّهُ الذي له فراسة لا تخطئ تنبئ له بهذه الغاية، وما حديث الشيخ إلا أول علامات تلك الفراسة التي لا تخيب.

- ترحل إلى قرطبة وتتركني وحيدًا؟ ومن الذي سيبقى عندي إن رحلت وتركتني؟

- أماه، عامان وقد تزيد قليلاً، ثم أعود، بعد أن أنهل من نبع قرطبة وعلمها، مثلي مثل أبي، لم يعد شيء هنا يمكن تحصيله، والشيخ نفسه قال لي هذا، نفسي يا أماه تواقة للعلم الوفير، جهابذة العلماء هناك، حتى أبو علي القالي نفسه يجلس في مسجدها الكبير، فهل أفرط في نفسي وما وهبني الله من ذكاء قابل للعلم ومواهب عظيمة، وهذه الكتب التي عندي فرغت منها وأعدتها،

وأريد كتبًا جديدة وكثيرة، وبعضها نفيس لا أجده إلا في قرطبة، ولكن إذا أردتِ أن أبقى سأبقى بين يديك.

- لا والله، لن أقف عثرة في طريقك، امضِ على بركة الله، ولكن لا تتأخر عليَ.

ومضت الأيام وأقنع ابني عمه بالذهاب معه، وطال التفكير في أمه، واضطربت نفسه، فدخل عليها في ليلة سفره، وقال لها:

- أماه لن أذهب إلى قرطبة!

فقالت هلعة:

- لمَ؟ هل حصل مكروه؟

- لمن أتركك؟ قد أطلت التفكير، فرأيت جدي رحمه الله قد رحل وكان عونًا تركنين إليه، وسندًا تأوين إليه، وأبي زوجك الذي تسكنين إليه قد توفاه الله، وأنت هنا على هذا الحال من القلة والعوز والضنك، فكيف سأترككِ؟ والله لا يفعلها إلا قليل البر.

- لا تقل هذا، بل ستذهب، وتصبح فقيهًا عالمًا وقاضيًا، وتتعرف على علماء الدنيا، لن تبقى قابعًا ها هنا، اذهب، عندي بقرة وهذه الأرض الصغيرة وعملي في الصوف، وهذه تدر عليَّ مالاً وفيرًا، ثم إن أعمامك هنا، هل نسيت؟

وعند الوداع قال لها:

- هل توصيني بشيء؟

- طاعة الله والإخلاص في العمل.

- فهل تطلبين شيئًا من قرطبة إن عدت؟

- أطلب منها أن تعيدك لي كما ذهبت، طاهر السريرة، خاشع القلب طيبًا، وإن قدر اللّه وتحققت فراسة جدك فيك، فلا تظلم، لأن الظلم إثم عظيم، وهذا جسدي النحيل إذا ردم عليه القبر فلا يستطيع تحمل عذابه، ويلٌ لي إذا قال لي ربي: كيف ربيتِه؟ أخشى أن تظلم الناس فيحاسبني اللّه بذنبك.

- كل نفس بما كسبت رهينة، لا تخافي.

ثم ابتعد عنها، وصوتها يملأ نفسه: يا محمد، إن كان في الأجل بقية وسعة تلاقينا، وإلا فترحَّم علينا.

يمضي والنبوءة نصب عينيه، نبوءة جده، يقطع الطريق من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة وهو يتأمل؛ هل حقًا سيأتي ذلك اليوم؟ يوم يمتلك هذه الأصقاع، فتأتمر بأمره وتركع بين يديه، يرى الفلاحين المنهمكين في حرثهم، ويرى الطرق المعبدة، والترع الممتدة، وذلك النهر الممتد، وتلك الأشجار المتناثرة على طول الطريق، وتلك الاستراحات التي أنشأتها الدولة للمسافرين.

إلى أن يصل قرطبة فيرى العجب العجاب، هي حقًا كما وُصفت، جنة ونعيم، ولكنها للفقراء جحيم، يتسكعون في أزقتها وفي أسواقها، وترك ولدي عمه وذهب إلى وزير في الدولة!

كان مسكن ابن حُدير فارهًا، فلما دخل محمد وجلس على الأرائك الأثيرة بهر بعظمة مسكنه، كأنه مسكن ملك عظيم لا وزير.

- أنا محمد بن أبي عامر، والدي هو عبد اللّه بن أبي عامر، رفيقك أيام الطلب.

فقال ابن حدير:

- أهلا بابن أعز رفيق، أين أبوك؟

- تُوفي منذ سنة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- وأنا هنا أطلب العلم في قرطبة، وأبحث عن عمل.

وسرعان ما وجد له عملًا عند القاضي ابن السليم والذي وجد له هذا الأخير عمل الزهراء.

انقطع سيل الذكريات عندما أتى حارس مقبرة القرية، فقال له المنصور:

- هل تعرف قبر أمي؟

- أجل يا سيدي.

- قدني إليه.

وتهادى نحو المقبرة وهو محفوف بالجند والأعوان في منظر مهيب، فأمر الجند الوقوف على باب المقبرة ودخل مع الحارس وحيدين. قد تجددت ذكرها، كانت تخاف من هذه اللحظة، لحظة تحقق فراسة جده، تخاف أن تحاسب وهي في قبرها، ها هي نفسه تحدو نحوها، تعتصر نفسه وتتقافز الذكريات حية أمامه، أيام الصبا، أيام القرية والفقر.

يشير الحارس إلى قبر منزو وحيدًا كالغرباء تحت شجرة وارفة، دفونها في آخر المقبرة وحيدة، فلَما بعث عماله يسأل عنها وعلم أنها ماتت، أمرهم أن يحيطوه بالزهور والأشجار النضرة، وقف أمامه وحيدًا، وجثا على ركبتيه، فقال بعيون دامعة:

أماه، لم أستطع أن أفي بالوعد وأعود بعد سنتين، ها هي أكثر من ثلاثين عامًا قد مضت إلى أن حان اللقاء، أماه إنكِ قابعة في أركان الروح، ونائمة في حنايا هذا القلب، بيني وبينكِ خيط رفيع، مقدار ما تصعد الروح، تصعد بأسرع من إطلاق السهام، كنتِ خائفة أن أكون مستبدًا طاغيًا، بل كنتِ خائفة أن تتحقق فراسة جدي، وها قد تحققت، ولكن صدقيني أنَ الثمن كان باهظًا، ولو كان المرء يعلم قدره لما قمت بالسعي إلى الملك، لأني خسرت كثيرًا، قتلت ولدي، قتلته وهو مستحق، ولكني أنا من دفعته من حيث لا أدري، إلى الموت، ليته يأتي سريعًا فأريح وأستريح، وتصعد هذه الروح التي أضناها السعي في توطيد هذا الملك العضوض، ربما تقولين: فلمَ لا تتركه؟ لأني لا أستطيع، الملك تملكني، واستقر بين جوانحي، فكيف لي أن أتحرر منه؟ إن له هوىً في القلب وسلطانًا على العقل، يجعلني أتصرف بجنون في سبيله، فكان الثمن غاليًا، كم وددتُ أن أعود فأرضخ بين يديك وأقبل رأسك، أنا الآن أسير، أسير الرغبة، رغبة السلطان، ولكني أتوق إلى حنانكِ، ها أنا قد عشت أكثر منكِ، وخسرت أكثر منك كذلك، ولكن أتعلمين ماذا يحز في نفسي ويجعلني أتمنى أن أعود صغيرًا كي أطيعكِ وأرضخ بين يديكِ وأبقى عاملاً في أرضنا الصغيرة؟ هو أنت، أخشى أني غدوت مستبدًا، وأنتِ تعذبين في ثراك! فليرحمك اللهَ، لكأن قلبي غدا حجرًا صلدًا كبيدٍ انحبس عنه المطر؛ ولكن الآن وقد وقفت عندكِ قد لان، فقد تفتحت في هذه البيد أروع زهرة كانت على عطش البقَاء تكافح وتنافح، ولم يبق لي إلا لقياكِ.



يعود الجيش الأندلسي بقيادة عبد الملك بن محمد بن أبي عامر إلى طنجة بعد أن أرسل معهم المنصور معظم الجيوش الأندلسية وأكثرها تمرسًا في القتال لقتال زيري.

وقف الجيشان، فقال عبد الملك:

- يا زيري، أيها الخوان، تعال وبارزني إن كنت رجلاً، فقد قلت عن الملك المنصور أعزه الله إنه جبان خواف بعث لك فتيته وغلمانه، فها أنا عبد الملك بن المنصور، تعال ونازلني، فقد جئت لنزالك أنا، ابن المنصور وفلذة كبده ووريثه.

فقال زيري متهكمًا:

- أخشى على أبيك (ثم ساخرًا) الملك المنصور أن يحزن فيموت كمدًا وحسرة، فقد قتل ابنه من قبل، وسأكون أرفق بولده منه ولن أقتلك.

- تعال أيها الجبان.

فغضب زيري من تلك الكلمة، وأخرج أشجع فرسانه لينازله، ولكن عبد الملك الفارس المغوار سرعان من صرعه وضربه بسيفه ففصل رأسه عن جسده وتركه يترشرش دمًا.

فعلَت تكبيرات ومعنويات الجيش الأندلسي، ونشب القتال بين الجيشين، فدارت الدائرة على زيري وقومه، وفي منتصف القتال رأى عبد الملك زيري بن عطية، فتبارزا، وبينما هم يتقاتلان، قال زيري:

- لم يصعد أبوك إلى الملك بشجاعة بل بالتملق إلى النساء والتقرب منهن، فماذا تريد من رجل يصعد إلى الملك على أكتاف النساء؟!

فقال عبد الملك بعد لكزه بقدمه سقط على إثرها:

- وأنت تقاتلنا بأمر النساء.

فضربه عبد الملك بضربة لم تقتله، بل أثخن جرحه، فغار زيري وسط جنده الكفيف الذي سرعان ما نكص على عقبيه موليًا وهاربًا.

وجاس عبد الملك خلال الديار، ليبعث إلى المنصور كتاب النصر الذي انتشى وزاد عظمة بعد أن وقف شاعره أمامه مهنئًا وقائلاً:

لئن صديت قوم ببغيهم

فسيف الهدى في راحتيك صقيل

فإن يحيى فيهم بغى جالوت جدهم

فأحجار داوود لديك مثول

هدىً وتقى يؤدى الظلام لديهما

وحق يدفع المبطلين كفيل

يجمع له منه قائد النصر عاجل

إليه ومن حسن اليقين دليل



- لم يبقَ شيء، كل شيء انتهى وولى، لقد سحقتُ ومحقتُ، وها أنا أجلس ذليلة منكسرة، سأتفرغ للعبادة والعزلة مثلك، أكفكفُ دموعي بالتلاوة، وأكفر عن ذنوبي بالعبادة إلى أن يحين الأجل.

هكذا خاطبت صبح البشكنجية هشام، فقال لها هشام:

- نحن أوهن من أن نغلب ابن أبي عامر، ولم يكن حراكنا إلا إذنٌ منك بأن يضربني الضربة القاضية، فها هو قد أخذ ما يريد، وصارت السلطة له مطلقة، وكله لأنك...

فقاطعته:

- لأني ماذا؟ هل تصدق ما يقوله المرجفون والناقمون علينا؟

- كيف لا أصدقه؟ والكل يقول ويروي عن حبك له، ثم عداوة، لماذا هذا التناقض بينكما؟ حبيب قريب ثم عدو لدود، أنت من صنعتِه، والآن التباين بينكما والبعد كالليل والنهار، كالجنة والنار.

- كفى لا تقتلني.

فنظر إليها بعينٍ دامعة. فصرخت به:

- لا تبكِ كالنساء.

- وهل عملت شيئًا طول حياتي إلا ما تفعله النساء؟



(٢٧)

﴿فلمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ للجَبَل جَعَلَهُ دَكًّا وخَرَّ مُوسَى صَعقًا﴾

بعد أن ازداد مهابةً في قلوب الخلق، ولم يعد هناك منافس، يعانق ابن أبي عامر العظمة، فلم يكفه أن سمى نفسه (المنصور) ولم يكفه عهد الحجابة لولده عبد الملك من بعده، بل سمى نفسه (الملك الكريم)، وتمضي الأيام، ويتعاقب نور وظلام، وتعظم الأحلام، حتى منّى نفسه بملك المشرق، هناك في بغداد وسامراء ودمشق والقاهرة قد سرح بصره، فقال يومًا وهو ساهر مع جلسائه في المنية العامرية:

منع العَينَ أن تذوقَ المَنَاما

حُبُّها أن تَرَى الصَّفَا والمَقامَا

لي دُيونٌ بالشرق عِندَ أُناسٍ

قَد أحلُّوا بالمشعرينِ الحَرَاما

إنْ قَضَوْها نالوا الأَمانِي وإلاّ

جعلوا دُونَها رقاباً وهَمَا

عَنْ قَرِيبٍ تَرَى خُيولَ هِشامٍ

يَبْلُغُ النِيلَ خَطْوها والشامَا

فقال ابن حُدير:

- ليست هذه الغاية ببعيدة على أبي عامر.

- فليُدم الله علينا الزاهرة.

- أصلح الله سيدنا الحاجب، لمَ يقول هذا الكلام؟

فقال أبو عامر بعد أن تغير حاله من السرور إلى الفتور في آن واحد:

- رأيت منامًا بشعًا، هذه زاهرة الحسن لم يبق منها إلا الأطلال، فلما سألت ابن الهمذاني، أنبأني بخرابها.

ثم بصوت متهدج: سبحان من يدوم ملكه وحده ﴿فلمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ للجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.

- أبعد الله الهموم والغموم عن مولانا الملك.

فنظر المنصور إلى الزاهرة وهي مضيئة منيرة، وقد تم حسنها وكمل، فقال بصوت خفيض:

- وَيهًا لك يا زاهرةَ الحُسن! لقد حَسُن مرآك، وعَبق ثراك، وراق منظركَ وفاق مخبرك، وطاب تربك وعذب شربك، فيا ليت شعري، من المريد الذي يهدمك ويهدم جسمك ويعدمك؟

- يا أيها المنصور هون عليك، فهذه مجرد أضغاث أحلام وأوهام.

- كأنك لم تسمع بهذا يا أبا عمرو؟ هو عندك وعند سلفك من صاحبك الحكم ولكنك تتجاهل، نعم، سيظهر عليها عدوُّنا فيهدمُها ويلقي حجارتها في هذا النهر.

وظلت هذه الأفكار تؤرقه وتزعجه دائمًا، وبقيت قرطبة في سائر أيامه مطمئنة لا يكدرها شيء، ومن ذا الذي يقدر على التخريب في دولة أبي عامر؟!



(٢٨)

أنتِ كأعمال المؤمن لا تُدرك إلا يوم الحسابِ

وجاء أبو عامر وقد تخطى الستين، كان صلدًا كجبل راس لا تصدعه العواصف ولا السيول، عظيما شامخًا فقد وصل إلى ماً لم يصله ملكٌ قبله، جلس في حديقة الزهراء الخالية الخاوية.

جلس عند صبح وقد بدت كهلة مكفهرة منكسرة، هذه هي صبح البشكنجية، أين جمالها الذي أسر الحكم؟ أين همسات حبها المستبدة التي جعلت الحكم يعهد بالخلافة لفتىً صغير؟ كله غار مع الأيام وطوته السنون، فلم يعد إلا جمالاً يذكرها بعهد الأيام السالفة.

فقالت:

- أخيرًا يا محمد انتصرت! كنت أعلم أنك منتصرٌ لا محالة.

فقال بحسرة:

- فلمَ الحرب إذًا؟ لمَ جعلتِ النفوس تزهق هدرًا؟

- لأني منذ أن أنجبت هشام وأنا كالملوك، أحكم دون اسم وأُسير الأمور كما أريد، ولم يفضل عني الملوك إلا لأنهم رجال، فجعلتك تبلغ المراتب والمناصب كما كنت أريد، فلمَّا بلغتَ الذروة وقد جعلتُك تبلغها في سبيل هشام؛ أنزلتنا إلى أسفل السافلين وبقيت أنت وحدك سلطانًا، فهل يرضاها عقلك حتى يرضاها قلبي ونفسي التي لم ترضخ لأحد؟ ولكنك قلبتَ المعادلة فجعلت ولدي

خليفة اسمًا ولكنه لا يملك شيئًا، عندها سألت نفسي: هل كان عقابًا لي لما اقترفته بحق الأندلس؟ ولكني لم أتنازل عن ملك ولدي بالرفق والهوادة، لأن الطموح لا يقنع بالركود والجمود، والورد يأبى إلا أن يتفتح ويزهر والشمس تأبى إلا أن تشرق.

- ولو أشرقت شمسك على الأندلس فهل ستضيئين ظلامها الحالك الذي تسبب به المصحفي وسياسته الخرقاء، أم أن ولدًا أحمقًا أخرقًا يتضلع بهذا الملك العظيم؟

- لمَ تتكلم عن مولاك بهذه الطريقة؟

- لأنك لا تقنعين إلا ببشاعة الحقيقة.

وأراد أن يهم بالقيام، فسكت كمن تذكر شيئًا، فقال بلهجةٍ متنغمة بأنغام الحب العذب في الأيام الخوالي:

- صبح!

فقالت وقد عادت أفراح روحها العذبة إلى أيام الشباب والسلطان:

- ما زلت تذكرها؟!

فقال وقد خلا منظره من قوة السلطان، بل عجوز يتحسر على أيام الشباب:

- وهل ينسى المرء مثلك؟ أنت الحبيب والعدو، الجنة والنار، الليل والنهار، المبتدى والمنتهى، الرأفة والعذاب، النعمة والنقمة، المضطهدة والمستبدة، الجمال الطري والجمال البائس الغائر، وفوق كل هذا أنت كأعمال المؤمن لا تُدرك إلا يوم الحساب، نبقى أبد العمر نحكمَ ونجزم؛ ولكن لا شيء يقين، وكلٌّ يبقى ينتصر لرأيه ومذهبه ويدعمه بحججه وبراهينه ولكن لا يقين إلا عند ربّ العالمين، هكذا أنتِ.

وقام يتخطى وقد بدا ضعفه ولعمري هل هو ضعف الشيخوخة وعمل الأيام؟ أم عذاب الغرام المرهق؟

ولم تمضِ من الأيام أقلها حتى توفيت صبح!

فحزن أبو عامر، كم هو ذو بأس وصلابة؟ ولكنه وقف في جنازتها وهو حزين كئيب، تفضحه الدموع بين آن وآن بانهمارها لتروي ذلك الخد الذي أرهقه الحب والحرب، لقد وقف شامخًا أمام كل زلازل الأندلس الفاتكة، ولكنه عجز أن يقف شامخًا أمام رحيل الحبيب.

ويأتي شاعره ليرثيها أمامه لما رأى من شدة حزنه وتأثره:

هل الملك يملك ريب المنو

ن أم العز يصرف صرف القضاء

ألم نرَ كيف استباحت يدا

ه حريم الملوك وعلق النساء

هو الرزء أودى بعزم الملو

ك مصابًا وأودى بحسن العزاء

لبيض أياديك في الصالحا

ت تمسك وجه الضحى بالضياء

فتلك مآثرها في التقى

وبذل اللهى ما بها من خفاء

جزاك بأعمالك الزاكيا

ت خير المجازين خير الجزاء

ولقيت من ضنك ذاك الضريح

نسيم النعيم وطيب الثواء



مدينة سالم ٣٩٣هـ:

تجاوز المنصور بن أبي عامر الخامسة والستين، وشعر بدنو أجله، وها هو في غزوته الرابعة والخمسين ولم يهزم في واحد منها، وفي هذين العامين الأخيرين قد أصلح الكثير من شأنه، فلم يعد يشرب الخمر، بل تركه خوفًا من الموت، ويحمل كفنه معه أينما رحل، يدرك أن أجله قد حان، يمسك بيد عبد الملك ولده والذي عهد إليه بالحجابة، فيقول له:

يا بني، لست تجد أنصح لك مني فلا تعدين مشورتي: قد جردت لك رأيي ورويتي على حين اجتماع من ذهني، فاجعلها مثالاً بين يديك. قد وطأت لك مهاد الدولة، وعدلت لك طبقات أوليائها، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها، وخلفت جباية تزيد على ما ينويك لجيشك ونفقتك؛ فلا تطلق يدك في الإنفاق، ولا تقبض لظلمة العمال، فيختل أمرك سريعًا، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة. فاقصد في أمرك جهدك، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك.

والرعية قد استقصيت لك تقويمها، وأعظم مناها أن تأمن البادرة وتسكن إلى لين الجنبة، وصاحب القصر قد علمت مذهبه، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة، ولا ترع عنها سوء ظن وتهمة،

وعاجل بها من فته على أقل بادرة، مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه؛ فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث في يمين البيعة إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة. فأما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه، فإني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة.

والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك، وعدة لحاجة تنزل بك، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عندً الشدة تخاف منها على سائر جسدك، ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة.

وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي، وأخرجته عن ولاية الثغر لئلا يجد العدو مساغًا بينكما في خلاف وصيتي فيسرع ذلك في نقض أمري، ويجلب الفاقرة على دولتي، وقد كفيتك الحيرة فيه فاكفه الحيف منك.

وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم بحسب ما قدرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي، وخلافتك بعدي أجدى عليهم مما صرفته؛ فلا تُضيع أمر جميعهم، والْحَظهم بعيني، فإنك أبوهم بعدي، فخرّج ذكورهم باستخدامك، وألحف إناثهم جناحك، جبر الله جماعتهم، وأحسن الخلافة عليكم.

فإن انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل، وسبيل السيرة، وإن اعتاصت عليك فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة، ولا تطبيك وأصحابك السلامة فتتنسوا ما لكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقطربة، فإن قاومت من توثب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم، وإن خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك إلى بعض الأطراف التي حصنتها

لك، واختبر غدك إن أنكرت يومك، وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك، فإني أعرف ذنبي إليهم.

ثم نظر إلى من حوله من الموالي وهم حاشيته وسدنته، وكانوا يبكون متأثرين ببكاء عبد الملك، فهذا المنصور العظيم الذي لم ينكسر يومًا ولم يعرفوا غيره قائدًا ينازع السكرات، فقال لهم:

تنبهوا لأمركم، واحفظوا نعمة الله عليكم، في طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم، ولا تغرَّنكم بوارق بني أمية، ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم، وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم، فليس يرأسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي، وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد وأن تكون جماعتكم كرجل واحد، فإنه لا يفل فيكم.

وما زال يكرر هذا وشبهه لطائفة بعد أخرى حتى ضعف وشغل بنفسه.

وهكذا رحل المنصور بن أبي عامر ودفن في مدينة سالم، وكتبوا على قبره أبياتًا وبقي أنصاره يرددونها دائمًا:

آثارُهُ تُنبيكَ عَن أخباره

حتَّى كأنَّكَ بالعُيُون تـراهُ

تالله ما مَلَكَ الجزيرةَ مثلُهُ

حقًّا ولا قادَ الجُيُوشَ سواهُ

ورحل عن قرطبة أعظم من مر عليها!



السِفر الرابع



(٢٩)

وكأن فكرة خلود المنصور قد تبلورت في بال الأندلسيين يومًا وصدقوها

- وقد رحل إلى رحمة ربه في مدينة سالم، ومن رحمة الله به أن قبض روحه وهو في أرض جهاد ورباط، ولم يطل عليه ألم المرض، فسرعان ما صعدت روحه طاهرةً إلى ربها، لقد رُزئنا رُزءًا عظيمًا، رحمه الله.

فقال هشام المؤيد وهو يسمع الخبر:

- رحم الله أبا عامر، لم نعرفه إلا مجاهدًا مكافحًا مقبلاً بلا أدبار، وأنت يا عبد الملك سِر على منهاجِ أبيك وكما أرادك هو رحمه الله.

فقدم عبد الملك إلى الخليفة كتاب توليته الحجابة ليوقع عليه، كان هشام وعلى الرغم من بلوغه السادسة والثلاثين إلا أنه لا يملك رأيًا يبت به، فوقع على الكتاب كما جرت العادة، وليذاع في سائر الأمصار والكور.

عاد إلى قصره الفارغ إلا من حرمه، وهو لا يكاد يصدق أو يعقل، هل حقًا مات؟ كيف يموت؟ كان العدو الذي يمني النفس بالفتك به؛ ولكنه هو نفسه الذي يريد أن يعانقه عناق الولد لوالده.

كان من الصعب عليه استيعاب فكرة موت المنصور، منذ أن ولد وهو لا يعرف سواه مربيًا ومعلمًا وقائمًا بدولته.

فقال وعادت به الذكرى بعيدًا: رحم اللّٰه أمي، كم انتظرت هذا اليوم؟ ولكنها ماتت قبل أن يتحقق!



وسار المنادي بشوارع قرطبة ومعه من يدق الطبل وينادي:

(قرر أمير المؤمنين هشام المؤيد باللّٰه بن الحكم ــــ أعزه اللّٰه ــــ تعيين عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر حاجبًا له وخلفًا لأبيه، وذلك في السابع والعشرين من رمضان المعظَّم سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة)

وغمت قرطبة لهذا الخبر، هل حقًا رحل؟ المنصور العظيم رحل؟ من قاد الجيوش وأذل الأعداء ومحقهم؟

كان نبأ موت المنصور صعب التصديق، وكأن قرطبة كانت تظن الموت لا يأتيه، وكأن فكرة خلود المنصور قد تبلورت في بال الأندلسيين يومًا وصدقوها، إلى أن رأت ولده عبد الملك وهو يفتك بالمروانيين، إذ ظنوا أن عبد الملك شابٌ ضعيفٌ لا يبلغ ما بلغه المنصور فقبض عليهم دون جهد يذكر وأمر بنفيهم إلى العدوة.

لم يكن عبد الملك يختلف بشيء عن أبيه، فهو صلب مثله، فارس شجاع، متطلع للمناصب، جواد فياض، ومن ينظر في عينيه ويمعن فيهن يرى المنصور متجسدًا، إلا أنه لم يؤتَ حظًا من العلم أو الأدب كأبيه ولو قليلاً، إذ نشأ والمنصور حاجبًا تخر له جباه الطغاة ساجدة، فانهمك في شؤون السياسة منذ نعومة أظافره وكان المنصور يدرك أنه خليفته فآثره على سائر أولاده وقدمه على عبد اللّٰه مما دفع الأخير للانتفاض.

عندما فشل عبد الملك في العلوم والأدب وشكاه المؤدب لأبيه؛ لم يخَف المنصور عليه، فقد كان يدرك المنصور بفطنته أن ولده قادرٌ على الحكم والسلطة، فقد تمرس في الإدارة والقيادة، فعلّمه ما يلزمه لأمر الرعية، إلا أن عبد الملك هذا كان رحيمًا، ينخدع بدمعة شاكٍ مستجد، وقد يهب شاعرًا مالاً طائلاً لا لجودة شعره؛ بل لأنه أحسنَ الإلقاءً، فهو لا يفهم من الأدب إلى درجة أن يفرق بين جيده ورديئه تفريق الناقد البصير، بل يعطي لمجرد الإعجاب بحسن الالقاء.

لم يواجه عبد الملك جهدًا في توطيد الأمن في قرطبة، فالدولة مستقرة مطمئنة، والأندادُ والأعداءُ راكدون ساكنون، فدولة أبيه في ذروة المجد وعليه أن يبقيها في الذروة، ورجل حصيف مثل عبد الملك هو الأقدر على هذه المهمة؛ فما إن خرج كتاب توليته الحجابة من هشام وتعميمه في سائر الأندلس حتى أصدر قرارًا بإسقاط سدس الجباية عن أهل الأندلس، وهذه عادة الخلفاء في استمالة الرعية وتحبيبهم بهم.

وجلس عبد الملك في اليوم التالي بالزاهرة العامرة مكان المنصور، مظهرًا عظمة ملكه ومتحديًا لأهل الشرور والمطامع، فقدمت الشعراء والقضاة مهنين بمنصبه ومعزين برزئه العظيم.

ودخل على أمه، فقالت له:

- هل أحدثت تغييرًا في رجالك؟

فقال باسمًا:

- لا حاجة لذلك، فالدولة تامة في ذروتها.

- وهل توثقت من ولائهم لك؟

- يا أماه هل نسيتِ المنصور؟ هل هو من يصبر على من يشك به أو بولائه؟

- وابن زيري؟

- المعز بن زيري أقررته على ما بيده من بلاد المغرب، فقد كتب لنا يعزينا ويجدد الولاء.

- كيف تثق به؟ وقد رأيت ما فعل بك أبوه من قبل.

- لم يكن ذنبه، بل مكر صبح.

- يا ولدي اسمعني واعزله.

- أبي أقرَّ أباه على ما فعل معنا ثم أقرَّ ولده، وأنا أيضًا سأتركه واليًا ما دام ساكنًا مواليًا، ثم لا أريد أن أدخل معهم في حرب لا طاقة لنا بها الآن.

- والوزراء؟

- أبقيت عيسى بن سعيد وزيري وسائر رجال أبي.

- عيسى بن سعيد لا أريده أن يبقى وزيرًا لك، فأنا لا أستسيغه، منذ أن أدخل تلك العقربة إلى دارك، أخزاه الله وقبحه من رجل، وهو شرٌّ لك.

فقال بغضب داراه ببره لها:

- أماه، من تتكلمين عنها هي زوجي، وعيسى بن سعيد لم يبدِ شرًا.

فقالت بغضب:

- وهل ننتظر أن يبدي شرًا؟ مطامع هؤلاء تبدأ من حيث بدأ هذا الرجل، ألم يطلب يد أختك الصغرى لولده؟ فماذا تسمي هذا؟ ولسوف يستأثر بالسلطة وينفرد بها دونك؟ وتراه الآن يحلم كما كان أبوك يحلم.

- كفى.

- هل تكلمت خطأً؟

كانت الذلفاء أم عبد الملك تبغض الوزير عيسى بن سعيد لأنه يسر زواج عبد الملك من جاريته التي هام بها حبًا وعشقًا، وشهدت أروقة الزاهرة قصة حبهما، كان من الصعب أن يسير ابن المنصور خلف فتاة وتسحره وتجعله يهيم بها في وجود الذلفاء وقوتها وعلمها بمكر النسًاء، وكانت (قينة) جارية حسناء ، تعمل في خدمة عبد الملك، فأعجب بها ووقع عليها، وصار لا يرى إلا هي، فجزعت الذلفاء بعد علمها، واتهمت قينة بالسحر والشعوذة ورمتها بشتى الاتهامات للتخلص منها، ولكن عبد الملك كان يتسلل إلى جناح الخادمات ليلقاها سرًا، وينفذ لها الهدايا الثمينة، وتحرك عيسى بن سعيد عند المنصور ليغلب رأيه على رأي الذلفاء عند المنصور ويتم الزواج رغم معارضتها، إذ لم يكن المنصور من يتأثر بأقوال النساء.



(٣٠)

وأكثر ما أخافه على السلطان هو همس النساء وإغراؤهن

وفي مجلسه؛ بالمنية العامرية يجلس عبد الملك مع واضح ووزيراه طرفة وعيسى بن سعيد، بمناسبة عيد الفطر، كانوا يتفكّهون، وكان عبد الملك يحب رجال أبيه المخلصين، فيثق بهم ثقة تامة.

فقال عبد الملك:

- فكرت في إنشاء جناح فخم ضخم في الزاهرة لأمير المؤمنين هشام المؤيد بالله، فإني كما تعلمون أريد أن أخرج إلى الغزو على سنة أبي -رحمه الله-، فإذا خلا هشام ودخل عليه المرجفون ومن يضمرون الشر لنا ويريدون بنا كيدًا وقد قوت نفوسهم بعد وفاة أبي وقوى هشام نفسه وربما طالب بملكه، فإذا دخل عليه من لا نأمن جانبه سول لهشام بالتمرد والمطالبة بحقة كما كانت تفعل صبح، وقد رأيتم كم كلفنا قتال زيري بن عطية من الأرواح والأموال، وإذا سُول له وإن لم يجبهم فقد علم الطرق والسُبل التي توصل إلى القيام علينا، ومعظم الثورات تبدأ بحديث النفس وهمس المرجفين والشياطين.

فقال طرفة:

- ولكن صبحًا تُوفيت، فلا تخف يا مولاي.

فقال باسمًا وفي نبرةٍ ذات مغزى:

- ماتت صبح ولكن هناك نسوة كثيرة في قصره، أم تراه يقضي ليله وسمره بلا نساء أو شراب؟ وهناك شُعب؛ الجارية الأثيرة عنده، ويقولون أنها ماكرة، وأكثر ما أخافه على السلطان هو همس النساء وإغراؤهن المبطن بأهداف وغايات لا نعلم مداها، بل هنَّ أشد وطئًا من النصارى، لأن أولئك تعلم كيف يخططون ويفكرون ونزرع فيهم العيون، أما النساء الحسناوات فلا تدرك ما يطلبن من أزواجهنّ، وكيف لك أن تعلم ما تنفث به في غرفة نومها في ظلمة الليل وقد أسكرته بسحرها الفواح فهو طائع مجيب لما تقول ولا يرى إلا هي، وهؤلاء الرجال تراهم يقاتلون ببسالة وشجاعة، ويتعاملون في السوق وهم آية في الحصافة، فإذا أرخى الليل سدوله ومضى ثلثه وجلس على مضجعه الوثير وجاءته متعطرة متأنقة، انسلخت عنه سجاياه الفكرية وحصافته التجارية وبدى كالآبق إذا عثر عليه سيده، فلا غاية له إلا رضاه، فهل نترك أمير المؤمنين (أعزه الله) بين يدي جواريه؟ ويبقين يهمسن له وهو همس يستغرق كر الملوَين، فإذا قنع دانت له الطرق، فإذا وقع ما حصل وتحققت غاية الخصوم نكون قد أضعنا الأندلس وما صنعه المنصور، فكله سيذهب سدىً، وعندها نكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، وعليه قررت أن أنزل أمير المؤمنين هشام في الزاهرة ليبقى أمامي ونأمن على الأندلس، فما تقولون؟

فقالوا كلهم:

- نِعم الرأي هو.



هشام المؤيد تخطى الخامسة والثلاثين عامًا، نضج وكبر، فهذه لحيته المدببة المشرئبة بحمرة كأبيه، وهذا شبابه قد غار ولم يكف عن لهوه ولعبه وعبادته تارةً بعد موت أمه تبدد حلمه في استعادة ملكه، ولم يعد يبالي بشئون الخلافة وأمورها، وحتى عندما دخل عبد الملك وأخبره بوفاة المنصور، لم يحاول أن يعيد ملكه، بل رضي في حياته كما هي وقنع، ولم يستسلم لضغط شُعب عندما حاولت أن تشحذ عزمه وتطلب منه أن يستعيد حقه بالخلافة، بل قال لها: أمي بكلّ عظمتها وجبروتها وحياتها الملوكية لم تستطع أن تستعيد ملكي، فهل تستطيعين أنتِ، التي وجدتها مشردة طريدة في شوارع قرطبة ؟

ولكن هشام نسي أن أمه جارية ولم تتحرر إلا بوفاة الحكم، وأنه أعجب بصوتها قبل جمالها فاصطفاها من دون سائر نسوته، وجعلها ملكة قلبه بعد أن أنجبت عبد الرحمن، ولكن آفة ابن آدم النسيان.

فغضبت شُعب، وقالت محاولة أن تنسى ماضيها المخزي: ولكن ذاك الملك المنصور، ولم تكن أنت الذي حاول أن يستعيد ملكه، والآن ليس الخصم المنصور، بل ولده الشاب المفجوع بفقد والده، وخصمه أنت، بل أنت الخصم والحكم، أمير المؤمنين، مُره وكن سيده.

لكن شُعبًا لم تدرك أن هشام بلغ من الضعف والحمق وضعف الرأي لدرجة أن لم يعد يبالي بدولته أو يسأل عن رعيته.

يأتي عبد الملك، ويجلس معه، فيقول له:

- يا أمير المؤمنين، إن أصعب شيء على السلطان هو البلوغ بعهده الذروة، والأصعب منه هو البقاء في الذروة، وأنت تعلم ما فعله الملك المنصور رحمه الله حتى بلغ بدولتك ما بلغ من العظمة والتقدم حتى صارت حضارة الدنيا، فأقمت لك جناحًا فخمًا في الزاهرة العامرة أعزَّها الله، لتقيم فيها بالقرب مني وأمام

عيني، ليستأنس أمير المؤمنين، ويرى رعيته عن كثب، فيشعر بهم ويسمع شكواهم، فما تقول؟

فقال بلا مبالاة:

- افعل ما شئت، ولكن لي طلب.

- أمير المؤمنين يأمرنا.

- هناك شخص عزيز عليَّ، أريد أن أراه.

- ما اسمه؟ وسيكون اليوم عندك.

- هشام بن معمر الوراق.



هل حقًا أن الأيام كفيلة بطي الصداقة؟

يقف ذاك الرجل الأشيب أمام هشام وقد بدا في بداية الكهولة، فقال هشام في شوق:

- هشام بن معمر الوراق! ما أسعدني بك! هل حقًا هو أنت؟ عشرون عامًا تفعل بك هذا؟ وأنا لست أحسن حالاً منك.

فقال هشام بن معمر وقد بدا رزنًا:

- أنا هنا يا مولاي.

- لمَ لمْ تحاول الدخول إلى القصر بحيلةٍ أو بأخرى، ألا تعلم أنه لا صديق أو أنيس لي سواك؟

- وما فائدة الصديق إن خسرتُ بسببه أبي؟

- أبوك! معمر الوراق!

- أبي الذي كان يخرجك من القصر معه خفيةً، هل تذكره؟ وهل تذكر خروجنا لآخر مرة عندما وجدنا شُعب وبتَّ فيها عندنا؟

- نعم، ولكن أبا عامر أوعدني أنه سيتركه، وتركه كما أخبرني.

- أجل تركه، ولكن قتل أبي غيلة بعد أيام!

- قتل!

- والآن يا أمير المؤمنين إن كان حضوري عندك هنا أمرًا أجبت وبقيت...

فقاطعه قائلاً:

- لا، بل صديق العمر.

- إذًا فأنا لا أرغب بصداقتك ورفقتك، هذه لعبة أكبر منا، لأنك يا هشام، أو أمير المؤمنين لست ملك نفسك.

ثم مضى هشام بن معمر ماشيًا وتاركًا هشام المؤيد فاغرًا فاه.



(٣١)

سميناك المظفر

لم تلحظ تغيرًا ملحوظًا في سياسة عبد الملك عن سياسة أبيه، فأيامه تمضي هادئة كربيع قرطبة البديع، يغزو وينتصر، ولم يفرق إلا بتخفيف الحجر على هشام المؤيد، فقد صادقه وجالسه كثيرًا، وأجلسه في الزاَهرة معززًا مكرمًا، وكان سريع التأثر بآراء أمه الذلفاء، وكانت تقول له عندما يعارضها: أنا تتلمذت على يد الملك المنصور العظيم في السياسة ودقائقها، وأفقهها أكثر منك.

وتمضي السنون وأهل قرطبة في راحة ودعة، وبلغت الأندلس منتهى الكمال والجمال، وصار عهده هو عهدَ ازدهار الأندلس وحد كمالها.

فقرر عبد الملك أن يلقب نفسه بالمظفر، وما إن أخبر أخاه عبد الرحمن حتى غضب هذا الأخير، وقال له:

- قد حان وقتها، فلنفعلها الآن.

- لم يفعلها المنصور، ولو أراد لفعلها.

- ومن قال لك أنه لم يفكر بها؟ ألم يجمع الفقهاء والقضاة والقواد ويستشِرهم؟ فخافوا وتوجسوا من ثورة العامة، وقالوا إن الحاجب المنصور لا يحتاج للقب الخليفة، وأنه يمتلك سلطتها.

- وأنا على سنته ماضٍ.

- ولكن الوقت حان لإعلان الدولة العامرية، وإنهاء حكم بني أمية في الأندلس، وخاصة أنه لم يبق منهم أحد يذكر، فصبح ماتت منذ أمد بعيد، وبموتها مات ألد الأعداء، فاستقر بعد وفاتها وركد بنو أمية وآثروا السلامة على الملك الذي لن يجنوا منه شيئًا ذا بالٍ يستحق الذكر.

- لا، ولكن سألقب نفسي بالمظفر، وأعطي ولدي لقب (ذي الوزارتين).

فقال عبد الرحمن بإصرار:

- لنعلنها خلافة!

- لا حاجة لنا باسمها ونحن نمتلك فعلها.



هشام المؤيد رضي كل الرضا على عبد الملك وعهده الذهبي، فلم يكن يدرك ما تُكن له الرعية من حب إلى أن رآهم في عهد عبد الملك في الزاهرة، ولم يكن يعلم ما في قرطبة من عمران متقدم وحضارة باهرة عامرة، والحق أن ملامح هذه الحضارة قد توطدت وبنيت في عهد المنصور، ولكن هشام لم يكن ليخرج حتى يرى هذا التقدم، كان مشغولاً طول حياة المنصور بين طفولة لاهية ومراهقة داعرة ورجولة ضائعة في أروقة القصر، بين حسرةً على ملكه وعصيان أمه التيً امتطت كلّ السُبل في سبيل استعادة مًلكه.

يدخل عليه عبد الملك وقد بدا مستريحًا، فقال:

- كيف حال أمير المؤمنين في هذا النهار العليل؟

فقال هشام:

- بخير، وكيف لا نكون بخير وجهود أبي مروان مبذولة في خدمتنا؟

- أنا خادم لبيب يا مولاي.

- ندرك ذلك.

- يعلم أمير المؤمنين -أعزه الله- بلائي وخدمتي له ولمقامه، وقد رأى في عينيه كيف أن الناس تخافه وتهابه، وكيف عظمتُ مقامك في أعين العامة، فلو تكرم أمير المؤمنين ولقبني بـ(المظفر) فهذا لقب أستسيغه وأحبه.

فقال هشام باسمًا:

- لك الألقاب كلها يا أبا مروان.

بارك الله فيك، ولو زاد أمير المؤمنين في مكرمته وأنعم على عبده وخادمه محمد ولدي بلقب (ذي الوزارتين).

- فليكن، وليكن بـ(أبي عامر) تشبهًا بجده رحمه الله، هات الكتاب لنوقعه.

(بسم الله الرحمن الرحيم

من الخليفة هشام بن الحكم المؤيَّد بالله، أتمَّ اللهُ عليك نعَمَه، وألبسكَ عفوَه وعافيته، إنَّا أريناك سلَّمك الله، من صنع الله الجسيم، وفضله العظيم، لنا عليك ما شفى الصدورَ وأقرَّ العيون، فاستخرنا الله سبحانه في أن سمَّيناك المظفَّرَ، فنسألُ الله تعالى سؤالَ إلحاف وضراعة وابتهال إلهي أن يُعرِّفَنا وإيَّاك بركةَ هذا الاسم، ويُحلّيَكَ معناه، ويعطينا وإيَّاك وكافَّةَ المسلمين فضلَ ما حملتَ منه، وأن يخير

لنا ولهم في جميع أقضيته، ويقرنه بيمينه وسعادته بمنه وخفيّ لطفه، وكذلك أبحناك التكني في مجالسنا ومحافلنا وفي الكتب الجارية منك وإليك في أعمال سلطاننا وسائر ما يجري فيه معنا ودوننا؛ إنافةً بمحلك لدينا، ودلالةً على مكانكَ منَّا، وكذلك ما شرَّفنا فتاك أبا عامر محمَّدَ بن المظفر تلادنا، أسعده الله، بالإنهاض إلى خُطَّة الوزارتين، وجمعناه بها في التكني على المشيخة والترتيب، إثرك في الدولة، وأنت الحقيقُ منّا بذلك كله، وبجميل المزيد عليه، لأنَّك تربيتُنا، وسيفُ دولتنا، ووليُّ دعوتنا، ونشأةُ نعمتنا، وخريج أدبنا، فأظهر ما حددناه في الموالي وأهل الخدمة، واكتب بها إلى أقطار المملكة، وتصدَّ فيه لشُكر النعمة، أحسن الله توفيقك، وأمتعنا طويلاً بمعافاتك، وآنسنا مليًّا بدوام سلامتك، إنَّه وليٌّ قادرٌ عزيزٌ قاهرٌ)

وكتب بهذا الكتاب إلى الأمصار، وبدأ عبد الملك يكتب في كتبه (من الحاجب المظفَّر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور)، فعجب الناس من تلقيب نفسه بلقبين، ولم يحدث ذاك من قبل.

وما إن خرج بكتاب الخليفة حتى أمر بكسي الجنود حللاً جديدة فرحةً وابتهاجًا، وجلس في الزاهرة وتحيطه الأبهة والعظمة ونشوة الاستبداد.

وما إن جلس حتى دخل الوزير عيسى بن سعيد، وقال:

- يا سيدي جاء الناس والشعراء من كل حدب وصوب للتهنئة.

فقال باسمًا بسمة المنصور:

- فليدخلوا.

فتتابع الشعراء، فقرأ الأول قصيدة مطلعها:

ته في الدُّنا وافخر فمثلك يفخر

فأبوك منصور وأنت مظفر

وقال الثاني:

تسمَّيت لمّا أن ظفرت المظفَّرا

وصرتَ على الأعداء ليثًا غضنفرا

وقال آخر:

ظفرت فسمَّاك الإمام المظفرا

وما زلت سيف النصر في الشرك مظهرا

وأجزل العطاء لكل الشعراء جيدهم ورديئهم بهذه المناسبة العظيمة، يعشق الألقاب ويراها متممة للعظمة، ينفق إنفاق من لا يخشَ الفقر وهو كرمٌ عامري، ويمضي في احتساء خمر العظمة حدَّ الثمالة، فقد أمنت الرعية وفرحت به، فانصرف إلى شربه ولهوه، ويترك الدولة بيد وزيره الأمين عيسى بن سعيد.



(٣٢)

فلم يستطع كبح جماح نفسه المتعطشة للملك والعظمة
تعطش الروض الماحل للغيث الهاطل

عيسى بن سعيد صار رجل الدولة الأول، القائم بها، وهو حارس المظفر الأمين، الذي يثق به، كيف لا وقد تقلب في المناصب بعهد المنصور إلى أن وصل الوزارة؟ وعبد الملك المظفر يثق برجال أبيه ثقة تامة، فقد كان أعلم الناس بالرجال وصنوفهم وتقلباتهم، ألم يتخلص من القائد المغربي العظيم جعفر بن حمدون بمجرد تسلل شبه الشك إلى مسمعه؟ على رغم ما بدا من ابن حمدون من شجاعة وشدة بأس في قتال غالب الناصري؟ هكذا كان المنصور لا يترك رجلاً قويًا يخشى شره، فلم يترك جنبه إلا ضعيفًا طائعًا وفيًا، أو قويًا تابعًا، وعيسى بن سعيد كان رجلاً موثوقًا عند المنصور، فمن هو كي يستبدل عمال المنصور العظيم؟ ولكن الذلفاء أمه حذرته من عيسى ومكره، إذ لم يبلغ أحدٌ في عهد المنصور ما بلغه هو من سعة الضياع الكثيرة التي يمتلكها، وإعداد الخدام والموالي الغفيرة، بل بات يرى نفسه عظيمًا كالمنصور، كان يجلس في قصره فيأتي طلاب الحاجات عنده، وعلت منزلته حتى غلب على دولة عبد الملك، وعبد الملك في لهوه وسكره، وكان يسير من قصره إلى الزاهرة وتحفه الحرس ذات اليمين وذات الشمال ويأتيه الطلاب فلا يلتفت إليهم أو يبصر نحوهم، وزاد من نفوذه بمصاهرته لآل حدير وآل فطيس وهما بطنان من كبار وجهاء الدولة، محاولاً تعزيز نفوذه، ومع

محاولته لجذب النفوذ إلا أنه فشل في ترك نصب العداوة لأم عبد الملك الذلفاء، بل بقي كارهًا لها مظهرًا العداوة، وكثيرًا ما حذَّره رفاقه من عداوتها وقد تودي به، ولكن طيشه وفرحه بالعظمة أعماه عنها، ونسي أنها زوج المنصور أي تلميذته، تلقت السياسة من نبعها، ولم يشعر بفداحة خطئه إلا عندما كان يجلس يومًا مع عبد الملك في مجلس شرابه، فقال:

- لو يسمح لي مولاي الحاجب بالانصراف، فكما يعلم لست شرّابًا له، وقد ولى الشباب ولم يعد لي استطاعة على تناوله.

فقال عبد الملك بلهجة ذات مغزى:

- إن لم يرقك مجلسنا هذا فأحسن اختيار جلسائك، ولا تجالس من لا نأمن جانبه، فإن الصاحب ساحب، وأول الشر مصاحبة أهل الشرور.

فقال بصوتٍ مرتبك متحشرج:

- وكيف ذاك يا مولاي، هل سمع مولاي المظفر ما يسوءه؟

- أنت تعرف ما أقصد، أو (هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر)، علمت أن لك به صلة وصحبة، وأنه جليسك ونديمك، فاحذره، وكما تعلم هو من بني أمية، وممن يرون أن أباه عبد الجبار كان أحق بالخلافة من هشام المؤيد، ولكن الحكم رحمه الله آثر ولده فقدمه، وعلى رغم صمت هشام هذا إلا أني لم أرتح لتقربه منك وصحبته لك، فالحذر الحذر، والسعيد من اتعظ بغيره.

وما إن أكمل كلامه حتى كان عيسى قد استحال قطعة جامدة، واعتلاه الخوف.

ثم قال عبد الملك:

- قبل أن أنسى، لا تكثر أعداءك فتهلك كما هلك الذين من قبلك، وتذكر جيدًا أن الرعية هم يد السلطان الذين يبطش بهم، فلا تتكبر عليهم، واعطف عليهم، فبينك وبينهم شعرة، فلا تشدَّ كي لا تقطع تلك الشعرة.

- أمر مولاي.

عاد وهو متغير النفس، وعلم أن الذلفاء تعمل على إزالته، فأطال التفكير والتدبير لعله ينجو من مكر وكيد الذلفاء، ثم قلب الموضوع في رأسه، ووجد نفسه أكبر من الذلفاء وولدها، فعلامَ الخوف وهو قادر عليهما معًا؟ أجل، هو من يحكم الدولة فعلاً، وهو من يديرها ويدبر أمرها، فلمَ لا يفعل كما فعل المنصور ويأخذ الملك له، ويأتي بخليفة آخر ويدبر الدولة بدلاً عنه ويقضي على ملك بني عامر؟

فلاقت هذه الفكرة هوىً في نفسه، وتحولت الفكرة إلى واقع ملموس، فتلمس الطرق والسبل لهذا الانقلاب الذي سيقوم به على العامريين، فاختار عددًا من قواد الجيش الذين يثق بهم وأعلمهم بذاك سرًا.

وخرج ليلاً متخفيًا إلى هشام بن عبد الجبار، فاستغرب هشام بن عبد الجبار من زيارته سرًا وهو الوزير الأول في الدولة والقائم بشؤونها.

فقال بصوت خفيض:

- عيون المظفر علينا منفتحة، وقد بدأ يشك بي.

فقال هشام مستغربًا:

- يشك بك؟ ولمَ؟

- مكر الذلفاء أمه، ألا تعلم ما بيننا من عداوة؟

- بلى.

- يبدو أنها بقيت تقنع عبد الملك وتحرضه عليَّ، إلى أن حذرني منك ومن صحبتك.

فقال وقد تملكه الذعر القديم؛ الذعر الذي أصاب أباه يوم قتل المغيرة:

- أنا؟ لمَ؟ وما شأني؟

- لأنك أموي وهو يخشى شرَّك، لأنه يعتقد أن أباك كان أحق بالخلافة من هشام المؤيد، وأنك تضمر الشر لهشام وتحاول الانقلاب عليه.

- ....

- هذا منهج العامريين منذ أيام المنصور، يشكون بكل شخص، ويظنون أنفسهم مستهدفين من كل الناس، يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو قاتلهم اللّٰه.

- أتعرف ما تقول؟! أنت تصفهم بالنفاق والعداوة.

- وهم كذلك، هل نسيت ما فعله هو وأبوه بكم؟ ألم يسلب ملك بني أمية ويحجر على خليفتكم في قصره؟ وترككم أراذل الناس بعد أن كنتم أعزة وملوكًا.

فقال هشام بعد أن هاجت المواجع:

- لا تفتح جرحًا لم يندمل بعد.

- بل لنفتحه، ونقضي على العامريين وهشام المؤيد معه!

وسرعان ما تذكر هشام أيام عزهم وقوة بأسهم وملكهم، وما يحكى عن أجداده من سعة السلطان وعظمة الملك.

- هل تعرف ما تقول؟ كيف نقضي عليهم؟

عندها استقرت نفس عيسى وعلم أنه وجد ضالته، فهو يعلم سحر السلطان والملك، وكيف إذا استقر في النفس بحثٌ عن السبل التي توصل لتلك الغاية المأمولة المنشودة. فقال عيسى معظمًا ذاك السحر في نفسه:

- أنا وأنت، وإن نجحنا ننصبك خليفة وهذا حقك.

خليفة مرة واحدة وملك وسلطان؟ فانتشت نفسه وصار ينظر لمجدهم التليد وعزهم الغابر ويتخيله غده، فقال وقد ولجت مخيلته كرسي الخلافة:

- وأنت؟

فقال عيسى دون تردد:

- حاجبك، وخادمك المطيع.

ولكن سرعان ما عادت به الذكرى لتلك الليلة المشؤومة؛ ليلة تولي هشام المؤيد الخلافة، ومنظر عمه المغيرة وهو معلق مشنوق ولم يستطيعوا أن يجهروا باسم قاتله، وتذكر مكر الملك المنصور ببني أمية وكيف فرقهم ودمرهم وولده الماضي على سنته، فقال وقد تحدث بصوت العقل وقد تخلى من سكرة الملك الكاذبة:

- أنى لنا القوة؟

فقال عيسى وهو يصر إصرارًا:

- بل القوة كلها عندي، والدولة بين يدي، ماذا قلت؟

وتزين له كرسي الخلافة كغادية لعوب، وتذكر منظر عمه الحكم عندما كان يدخل مع أبيه وخضوع الملوك بين يديه، ولكن تراءى له بطش العامريين، فآثر صوت العقل الذي يقطر خوفًا وجبنًا من العامريين قائلًا:

- أنا خائفٌ يا عيسى.

- لا تخف، ولمَ الخوف؟ والدولة كلها بين يدي، وهشام المؤيد رخو أخرق لا يقوى على ملك، مدَّ يدك لنبايعك.

فلم يستطع كبح جماح نفسه المتعطشة للملك والعظمة تعطش الروض الماحل للغيث الهاطل، فمدَّ يده وبايعه على المنشط والمكرب!



(٣٣)

من كتابة الرقاع إلى مالك هذه الأصقاع

البيعة تؤخذ سرًا، يسير بعض القواد إلى مكان تجمعهم في الظلمة الحالكة، يتغطون بدياجير الظلام القاتمة، وينير عتمتهم شقوق ضوء الثورة المرتقبة، الثورة التي ستنسف بني عامر وتُوئد سيطرتهم، وما إن يقتربون من الوصول إلى منية هشام حتى يخرج لهم جنود مدججون بالسلاح، فيخاطبون الجنود قائلين: (أعد السيف إلى قرابه، وأعد الحق إلى نصابه، والملك إلى أهله). فيتركونهم يمضون، فهذه كلمة سرهم، ويدخلون إلى المنية وفي مكان محدد يبايعون هشام، وكلُّ ذلك من تدبير عيسى، وكان متعجلاً متسرعًا، فهو خائف من بطش عبد الملك المظفر، يعلم أن ساعة هلاكه قد اقتربت، وقد يتخطف روحه بين لحظة وأخرى.

وهشام بن عبد الجبار لم يكن حاله أحسن من عيسى، فكلما زاد المبايعون له واقترب حلمه من التحقق زاد خوفه وتوجسه من العامريين، يعلم أن أبا مروان المظفر شاكٍ أنيابه على الدوام، ينتظر نده ليبتلعه دون هوادة، وكل ما حكاه عيسى له عن لهو عبد الملك وانصرافه عن شؤون الملك لم يركد له أو يطمئن، فكل ما يعرفه عن أبي مروان أنه خليفة الملك المنصور ووريثه، فكيف سيكون؟ المنصور ذلك الاسم المرعب.

لذلك جلس مع ولده محمد يومًا؛ ولم يكن محمدًا هذا يفرق عن أبيه بشيء يذكر، بل يزيد مجونًا وطيشًا ونزقًا، ولم يتركهما المنصور إلا لجبنهم وبعدهم عن القوة والفتوة وأمور السياسية والرياسة، إذ سرعان ما استولى الخوف عليهم، وجاءوا إلى هشام المؤيد مبايعين مطيعين، ولم يبدِ بعد ذاك التاريخ البعيد منهم أي زوابع أو محاولات إلا صحبة هشامَ هذا لعيسى، فقال هشام لولده وكان قد استقبل العشرين: يا ولدي إني مقبلٌ على أمر عظيم، وخطبٍ جسيم، فإذا تم لنا هذا الأمر أقبلت علينا الدنيا إقبال من لا يخشَ الإدبار، وكان سعدُنا ومجد آبائنا قد استرد إلينا عن حق، توجتك وليًا لعهدي من بعدي، أما إذا خاب أمرنا وفسد تدبيرنا فابتعد عني، وأنا سأستقر في منيتي، وأنت ابقَ هنا في قرطبة بعيدًا عني، وعينًا لي، فإذا فسد أمرنا فسأضحي بنفسي دونك، وإن قتلت فستكون أنت بعيدًا عني، بل أنت مشغول بالسكر واللهو والعبث، فإذا قُتلت فاستكن من بعدي إلى حين أن ترى الفرصة مواتية، فإذا رأيت الفرصة قد حانت فانقض على ملك بني عامر ودمرهم تدميرا، ولا ترحم منهم أحدًا لا هم ولا فتيانهم، وسأعلمك أسماء القواد والزعماء الموالين لي والناقمين على العامريين، حتى إذا أردت القيام كانوا ركنا آمنًا تأوي إليه، وملاذًا تلوذ به، وحصنًا منيعًا تمتنع به، وستستقيم دولتك بهم، وتقوم عليهم، المهم يا ولدي أن نستعيد ملك بني أمية، ونعيد سيرة جدنا عبد الرحمن الناصر العظيم، وإذا توليت هذا الأمر من بعدي فلا تنسَ القضاء على هشام المؤيد، فهو لا يستحق حتى العيش، فضلاً عن أن يحكمنا ويرث ملك صقر قريش.

وهكذا تغلبت نفسه الطامعة على جبنه وخوفه، فقد خرج يومًا إلى قرطبة وأسواقها العامرة، ثم خرج منها ونظر إليها من عل فرآها ساكنةً باسمةً كروض الصباح الشذي، فتبسم وقال: آن أن يعودَ الحق إلى نصابه.

بل زاد أمله وطمعه كلما شاهد قرطبة وما حولها من الأرباض والمنيات والأملاك، وعيسى بن سعيد قد أكمل تخطيطه للقيام بالانقلاب الموعود، فجمعٍ القواد ومن هم على رأس الأمر في منية هشام بن عبد الجبار ليلاً.

فقال:

- آن أن نقوم بالحق، والقضاء على ملك بني عامر، الذي سلبه ابن أبي عامر بالحيلة والمكيدة واستمالته النساء، فكلنا يعلم أن أبا عامر المنصور كان فتىً يبيع الصوف لأمه في الجزيرة الخضراء، فجاء إلى قرطبة طالب علم وكاتب رقاع، ومن كتابة الرقاع إلى مالك هذه الأصقاع، وكله بالتعاون مع صبح التي عماها الحبُّ، فعشقت فتاها الموكل بولدها، وبلغ ما بلغ بها، وما هذه بطرق الفتيان الشجعان، حتى إذا ملك تجبرٍ، وطغى واستكبر، واضطهد بني أمية وقتل المغيرة، وكله خدمة لهشام، وما إن بلغ هشام الحلم وصار قادرًا، قال له: اسكن في قصرك، وأنا أقوم بها، ولك مغانمها دونٍ مغارمها، وبقي مستوليًا على الحكم إلى أن سمى نفسه ملكا! وعهد لولده بولاية العهد وكأن الدولة ملكه، وهذا ولده عبد الملك ماض على طريق أبيه استبدادًا واعوجاجًا عن الحق، بل زاد من ذًلك بتسمية ولده (ذي الوزارتين)، وتقريبه وتقديمه أخيه عبد الرحمن في شؤون الدولة، وعبد الرحمن هذا فتىً طائشٌ سعى مرارًا عند أخيه لنزع الخلافة لهم، وجده شنجة! (ثم هازئًا) وغدا يتولى علينا عبد الرحمن شنجول ونحن العرب وبني أمية موجودون! ولذلك ارتأينا أنا وأمير المؤمنين هشام بن عبد الجبار أن نعيد الملك له وفي بني أمية، وأن نتخلص من الفتية العامريين، بعد أن نتخلص من عبد الملك وأخيه عبد الرحمن (ثم ساخرًا) عبد الرحمن شنجول!

فقال أحدهم:

- وكيف ذاك؟

فقال عيسى بتمهل وتؤدة:

- وذلك أني سأدعو (ثم بلهجة تهكمية) الحاجب سيف الدولة المظفر أبو مروان عبد الملك وأخوه شنجول إلى مائدة عظيمة أقيمها في قصري، في ليلة قمراء بهيجة، وتضربٍ العودان وترقص القيان، فإذا سكرواً وثملوا وترنحوا في نشوتهم، انقضَّ جُندي عليهما، وقتلوهم، عندها ستقتحمون أنتم وجنودكم الزاهرة وتقتلون هشام المؤيد وكل من يقف معه، ثم ندعو هشام بن عبد الجبار ونبايعه، فلا يطلع الصبح إلا وجلس هشام ليستقبل المبايعين والمادحين له، فما قولكم؟

فقال أحدهم:

- وإن لم يوافق على دعوتك؟

فقال عيسى بتوكيد:

- سيأتي، أنا متأكد.



ويستجيب عبد الملك لدعوة وزيره عيسى بن سعيد والتي كانت بمناسبة ولادة حفيده، والمظفر هو خال هذا الحفيد.

يخرج عيسى بن سعيد من قصره صبيحة يوم الدعوة إلى الزاهرة، فيسير في قرطبة متكبرًا مغرورًا، وكيف لا يتكبر وهو يمضي ناسفًا ملك المنصور العظيم؟ المنصور الذي فرت منه الأعداء وملئت

منه رعبًا، فقد بعثرهم ذات اليمن وذات الشمال، ووقف شاكيًا سلاحه ينتظر من ينازله، ولكن هيهات أن يلد من سيهزم المنصور، ولكن عيسى يرى نفسه قادرًا على المظفر، ولكن كلما تذكر أبا عامر تكدر صفوه، لأنه يقارن نفسه به فيرى ضعفه وقلة حيلته أمامه، ولكن سرعان ما يطمئن لقوته عندما يرى نفسه سائرًا على فرسه والناس من تحته تدعو له وتطلب منه، فيركن إلى قوته ويبدد خوفه من قوة العامريين بهذا الشعور.

ويحل المساء، ويجلس عيسى ينتظر عبد الملك وعبد الرحمن، فلم يأتِ أحد، وطال لبثه هو ورهطه، فلم يرَ حلاً غير البقاء في الانتظار.

وجاء رسول من الزاهرة، فقال:

- سيدي الوزير، الحاجب أبو مروان المظفر يطلبك في قصره، ويقول لك: إن مجلس السمر سيكون عنده!

فزلزل كيانه، وقال بصوت مضطرب متهدج:

- أنا في خدمة مولاي الحاجب.

- أنت وكل صحبك.



(٣٤)

ودهرٌ ينيرُ بعبد المليك

عبد الملك المظفر ماض في سكر العظمة، ينهل من نبعها المتدفق بغزارة، فقد تحقق مرادَه بلقبه هذا، وتفرغ للهوه وهزله، وترك الدولة بيد عيسى بن سعيد وهو مطمئن عليها، فما إن يحل الظلام بجنوده حتى تشرق أنوار الزاهرة، فتقلب ظلمة الليل إلى نهارٍ بهيج، تجد كل ما لذ وطاب من طعام ونساء وقيانٍ ومنظر عليل، فحديقة الزاهرة والتي يقضي عبد الملك فيها سمره آيةً في الجلال والجمال، بناها المنصور على غرار حدائق الزهراء، وكان عبد الملك معجبًا بذوق أبيه حتى جعل هذه الحديقة تزهو جمالاً وعطرًا فواحًا شذيًا لهذا الحد، حتى أنه قال لشاعره ونديمه صاعد البغدادي:

- ولو طلبت منك أن تمدح هذا الورد الفواح، فما ستقول؟

فقال صاعد مرتجلاً:

- ليصرفن قائدُ المنثور عسكره

وينهزم إنَّ جيش الورد قد وردا

في معرضٍ سَجَدَ الروضُ الأنيقُ له

ولو أتاه فتيتُ المسك ما سجدا

شبَّهتُه وسقيط الطَّل تحدروه

عنه الرياحُ وقد مدَّت إليه يدا

بخد ذي خجل أبكته خَجلته

حتى تفرَّق فيه دمعُه بَدَدا

في غير أيَّامه يُشنى الصَّبوحُ وفي

أيامه فليكن غيُّ الهوى رشدا

فضحك المظفر ملء شدقيه، وقال:

- أجدت وقد أجزلنا لك عطاءً لم يعطه ملك من قبلي؛ ما لم يقم أحد.

فقال صاعد منتشيًا:

- ومن ذا الذي يقوى على مثل هذا ارتجالاً؟ هه؟ لا يقوى عليه إلا أنا.

فقال ابن درَّاج:

- أعز اللّه الحاجب أبا مروان، ولكن من يبصر جيدًا في شعر صاعد هذا يرى أثر التصنيع واضح، وإني لقادر أن أرتجل أحسن منه، ولأغلبن بسيطه بكاملي.

فقال عبد الملك:

- أسمعنا.

ضَحك الزمان لنا فهاكَ وهاته

أوَ ما رأيت الوردَ في شجراته

قد جاء بالنارنج من أغصانه

وبخجلة المعشوق من وجناته

وكساه مولانا غلائل سندس

يومًا يُسربله دماءَ عداته

فعلت الأصوات مدحًا وثناءً، فقال عبد الملك -ولم يكن صاحب ذائقة شعرية-:

- والله قد احترت من أجزل، فكلاكما قد أحسن وأجاد.

فقال صاعد محاولاً مدارة كبرياءه بلهجة التواضع المصطنع:

- وهل يقاس والفرق بيننا كالفرق بين الثرى والثريا؟

فقال رجل من آخر المجلس، وتقدم أمام عبد الملك، وقال:

- والله ما أنصفت يا حضرة الحاجب إن أكرمت أحدهما.

فأنزل عبد الملك كأسه من فيه، وقال:

- ويحك، ما تقول؟!

- مدحوا الورد وأطنبوا في مدحه، وطمعوا في عطاياك، فوالله ما أنصفا، فقد أعماهما الطمع عن مدحك، وأنت من أنت، طمِعا بصغائر الجمال، وتركوا كبائر الجلال، مولانا الحاجب سيفَ الدولة المظفر بن المنصور:

زمانٌ جديدٌ وصنعٌ جديدُ

ودنيا تروقُ ونعمى تزيدُ

وغيثٌ يصوبُ وعيشٌ يطيبُ

وعزٌّ يدوم وعيدٌ يعودُ

ودهرٌ ينيرُ بعبد المليك

كشمس الضُّحى ساعدتها السُّعودُ

فقال عبد الملك:

- قد أجزلناك ما لم يجزله ملكٌ قبلنا، فأنت عندنا أثيرٌ مكين.

فنظر صاعد لابن دراج وكلاهما مبهوت مصدوم.

كما كان في مجالسه تلك يسمع الحكايات التي تتناقلها قرطبة عن أبيه الملك الكريم، وكيف كان حصيفًا، فيجلس يستمع لها بشغف على رغم أنه سمعها مرارًا، بل بعضها جرت أمامه، ولكن مع ذلكً يجلس ويستمع كأنه أول مرة، وكثيرًا ما كان يتغاضى عن زيادة الحكاء، فهذا نديمه قام يومًا وقال:

كان ابن شُهيد البغدادي رجلًا هرمًا يحفظ النوادر، وكان الملك المنصور رحمه الله يحبه، وانصرف مرة إلى غزوة وتخلف ابن شهيد عنها، ونسيه المنصور، فكتب ابن شهيد إلى المنصور يذكره بنفسه وأنه من محبي الصبايا:

أنا شيخٌ والشيخ يهوى الصبابا
فبنفسي أقيك كل الرزايا

ورسول الإله أسهم في الفي
ء لمن يحثَّ فيه المطايا

فبعث له المنصور ثلاث فتيات بكر كأنهن بدور، وكتب له:

قد بعثنا بها كشمس النهار
في ثلاث من المها أبكار

وامتحنا بعذرة الغيد إن كن
ـت توخى بوادر الأعذار

فاتئد واجتهد فإنك شيخ

قد جلا الليل عن بياض النهار

صانك الله من كلالك فيها

فمن العار كلّة المسمار

فافتضهن ابن شهيد من ليلته، وكتب في اليوم التالي:

قد فضضنا ختام ذاك السوار

واصطبغنا من النجيع الجاري

وصبونا في ظل أطيب عيش

ولعبنا بالدر أو بالدراري

وقضى الشيخ ما قضى بحسام

ذي مضاء عضب الظبا بتار

فاصطنعه فليس يجزيك كفرا

واتخذه فحلا على الكفار

فقهقه عبد الملك كثيرًا.

ويمضي عبد الملك أيامه بين ندمائه ولا يرى وزيره عيسى إلا طرفًا من النهار ثم يمضي، ويحاول هؤلاء الندماء المكر به عند المظفر، فيدخل الشك إلى نفسه، وتزيد الوساوس في نفس عبد الملك كلما زادت الذلفاء ضغطا عليه ليتخلص منه، وسرعان ما حاول

التخلص من تلك الشكوك وقطعها بنصل اليقين، ففتش في سجلات الدواوين، فوجد عجزًا كبيرًا ببيت المال، فزاد شكه بعد أن أخبره أحد ندمائه بصحبة عيسى لهشام بن عبد الجبار، وخشي على نفسه ودولته من شره، وأدرك أن عيسى قد ارتقى مرتقًا عاليًا، فبثَّ عيونه حوله، وبعث من يحصي ملكيته، فعلم أن له ضياعًا كبيرة، وأملاكًا كثيرة، وأنه ثبت أركانه بمصاهرة آل حدير وآل فطيس، فصدق شكوك أمه، وعلم أنه أخطأ خطأً جسيمًا بتركه عيسى يكبر إلى أن استفحل أمره.

ودعاه لمأدبة وجلسة سمره عنده في بيته، فاستغرب، وقال: يعلم عيسى أن مجلسي لا يحلو إلا بخمر، وهو لا يشرب الخمر أو يميل إلى السمر، وكيف يدعو أخي عبد الرحمن وهو يبغضه؟

ولكن لم يكن له تلك الحصافة لدرجة أن يكتشف مؤامرة وزيره، بل استجاب للدعوة.

ودخلت عليه الذلفاء أمه وهو في مخدعه نائم وبين أحضانه قنية، وقالت له:

- قم، كفاك نومًا وعبثًا مع العاهرات، قم.

فقام من نومه فزعًا هلعًا، وقال لأمه:

- كيف تدخلين عليَّ هكذا؟

- أيها المغفل ملكك يُسلب من بين يديك، وأنت راقد هنا؟!

- ماذا حصل؟

- حتمًا لا تعرف ماذا حصل، أنى لك ذلك؟

- ماذا جرى؟

فصرخت به:

- إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك!

- ماذا؟

- وزيرك عيسى بن سعيد أقام لك مأدبة فخمة هذا المساء، لك ولأخيك.

- أجل.

- وما أن تذهبا إليه حتى يقتلكما، ويقتل بعدها هشام المؤيد وينصب هشام بن عبد الجبار أميرًا للمؤمنين! إنه يجهز لانقلابٍ هذا المساء!

أدخلت أحد القواد الذين حضروا في المنية وبايعوا هشام وعيسى، وقال:

- مولاي، لمّا أخبرني أحد القواد بهذا، وافقت وحضرت معهم وبايعت، لكي أكشف مؤامرتهم، وقرروا التخلص منك هذا المساء.

فقامَ من فوره مع هذا القائد، وجمعَ رجاله المخلصين له وفتيانهم، وقرر أن يقلبَها بعيسى، فقالَ: جهزوا مجلس السمر هنا في بيتي وسندعو جناب الحاجب المستقبلي ليسهر عندنا، وبقيت عيونه حول عيسى طول النهار، إلى أن بعثوا إليه ليأتي مساءً.



(٣٥)

ويقول قوم سعده لا عقله

خير السعادة ما حماها العاقلُ

وجاء عيسى بن سعيد إلى الزاهرة، ودخل على عبد الملك، فرحب به قائلاً: أهلاً بأبي عبد الملك، وزيرنا المخلص الأمين، اشتقنا لك، وتكاسلنا عن حضور مأدبتك لأمرٍ ألمَّ بنا، فقلنا ندعوك عندنا، ولكن أليس من الغريب أن الوزير عيسى وهو لا يشرب الخمر، ولا يقوى على السهر، أن ينظم مجلس سمر لنا؟

فتلعثم وتعثرت الكلمات في فيه، فقال:

- يعلم الحاجب أعزه الله أن ولدنا عبد الملك قد رُزِقَ بولد، فحري بمن كان المنصور جده أن يُقام له مأدبة عظيمة.

- حقًّا؟ الصبي ابن أختي! أترى ذلك يا عبد الرحمن؟ ابن أختنا، نحن مقصرون، لم نحضر مأدبته، أيها الساقي، اسقِ أبا عبد الملك وصحبه.

ثم قام المظفر واستدار خلف عيسى، وقال بصوت خفيض عازفًا على أعصاب عيسى لحنًا هادئًا: ولكن جد الصبي قدً استحوذ على أموال بيت مال المسلمين، وجده ملك ضياعًا وقصورًا وجاهًا عظيمًا، وذلك لأنه الوزير والقائم بدولتنا وشؤونها.

فاخضب وجه عيسى حمرة، وعلم أنه مقتول لا محالة، ولكنه سكت لعل هناك فرج.

وأكمل عبد الملك قائلاً: صقر قريش كان حاذقًا ماهرًا صاحب سياسة وتدبير، وطد البلاد، بعد أن دخل الأندلس وحيدًا طريدًا شريدًا، فارًا بنفسه من فتك العباسيين، ويذكر أهل الأخبار نصوصًا يروي قصة فراره العجيبة، هل تصدقها يا عيسى؟

وهمَّ بالنطق، ولكن المظفر قال: لا تعرف، وأعرف أنك لا تعرف، ذلك لأن علمك قليل جدًا، فأنت لم تؤتَ من العلم شيئًا، لذلك سأكمل لك شيئًا من سيرة صقر قريش وملكه العظيم الذي حاولت استرجاعه! أقام صقر قريش الدولة الأموية العظيمة، وجعلها دولة تضاهي دولة بني العباس أيام المنصور وولدهِ، ولكن هناك شيئًا لم يستطع صقر قريش التخلص منه على ما أوتي من حكمة وتدبير وعقل، هل تعرفه يا عيسى؟

فخيم السكون على المكان، ولم يستطع أن يجيب، وقد صار المجلس مرعبًا، فقد بدا الشر في عين المظفر، وكاد عيسى يتضاءل من الخوف، فقال المظفر: فزعم أناس قد ساعدوا صقر قريش أن لولاهم ما صار عبد الرحمن الداخل ملكًا، أتعرف ماذا قال قبل أن يقتل قائلها واسمه أبو صباح اليحصبي؟

قال:

سعدي وحزمي والمهند والقنا

ومقادر بلغت وحال حائلُ

إن الملوك مع الزمان كواكبٌ

نجم يطالعنا ونجم آفلُ

والحـزم كل الحـزم ألا يغفلـوا

أيـروم تدبـير البريـة غافـلُ؟!

ويقـول قـوم سـعده لا عقلـه

خير السعادة ما حماها العاقلُ

فجثى عيسى ماسكًا يد عبد الملك ومتوسلاً قائلاً:

- العفو يا مولاي.

- قم كالرجال، ومتّ بشرف.

فقام وهو يرتعش خوفًا وذعرًا، ونظر إلى عبد الملك، فقال عبد الملك: لم يغرر بك ولكن غرتك نفسك فغويت، والسعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ بنفسه.

وما إن أكمل عبد الملك كلمته حتى استل سيفه وبلمح البرق ضربه بوجه عيسى ليخر صريعًا معفرًا بدمه، وأشار لرجاله فهبروه بسيوفهم.

وأمر بقتل الرجلين اللذين قدما معه، فقُتلا.

فقال عبد الملك:

ارموهم بالنهر الكبير، واقطعوا رأس عيسى وعلقوه على باب الزهراء، وليمضِ فريقٌ من الجيش إلى دار عيسى، فيعتقلوا كل الرجال، ويأتوا بما فيه من مال، أما هشام بن عبد الجبار، فغير موجود ببيته، وأقرب الظن أن يكون في منيته، فضعوا عيونكم عليه.



وفي اليوم التالي كان رأس عيسى معلقًا على باب الزاهرة ليكون عبرةً وآية! وبقي أهل قرطبة يتوافدون أيامًا لرؤيته، كان قبل يوم يمشي متبخترًا مغرورًا ولم يمضِ يومٌ حتى كان رأسه معلقًا مهانًا مذلولاً، ليعود كل رجلٍ طامعٍ طامحٍ في سلكة ويسأل نفسه: لمن تدوم هذه الحياة؟

وأما هشام بن عبد الجبار فعاد بعد يومين إلى بيته ولم تمر ساعة حتى كان عبد الرحمن وجنده مطوقين البيت، فخرج مستسلمًا مسالمًا، وذهب معهم ولم يسمع عنه شيء بعد ذلك.

وصحى عبد الملك من غفلته، وعاد إلى ملكه، وسرعان ما قضى على المتمردين بحد السيف، وترك لهوه ولعبه، وهجر احتساء الخمر ومجالس السمر، فأقام العدل، وأعاد قرطبة إلى عهدها القديم أيام المنصور، فانتعش اقتصادها، وآمنت الناس على أنفسها.

وصعد فوق قصره بالزاهرة فنظر إلى قرطبة من علٍ، فبدت هادئة آمنة، جميلة رغيدة، ترقد ببهائها الطاغي، كغانية تتمايل وقد استبد في مكامن القلب حبها، بل كانت في عينه أكثر استبدادًا من الأنثى الناضجة متكاملة الجمال في عين الصبي أول بلوغه الحلم، بقي يطوف بنظره إليها من مكانه الشاهق، وينظر إليها وإلى حاراتها وهي تسكن بأمان وتعيش بسلام ووئام، هناك كان المنصور واحدٌ منهم، وينظر إلى الزهراء حالمًا ويقول: هناك الحل والعقد، وهناك تقرر المصائر.

وبين ذكرى المنصور وحلمه العظيم ووقوفه وهو يتأمل المدينة الساحرة تشكل مشهد أسطوري، فقد بلغت المنتهى في الجمال، هي

تبدو في عينيه كراقصة فاتنة تلتهمها العيون حبًا وإعجابًا، قرطبة الساحرة هل يعلم الذين يستمتعون بك وبجمالك أنك قائمة على كتل من البراكين والعذاب والجمر الملتهب؟ هل يعلم أهلك كم قطعت رؤوس وسالت دماء وحُملت خطايا أرواح مزهوقة بطلانًا لكي يعيشوا هم؟ هل تعلم ما يجري من صراع وعراك عليها؟

كان مشهدها الأسطوري من فوق الزاهرة يجعله مستلذًا بالاستبداد.

وهكذا عاشت قرطبة في ظل عبد الملك بن المنصور ذروة الاستقرار والأمان، إلى أن استيقظت ذات يوم على رُزءٍ عظيم قد أصابها، وهو وفاة الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور، ولم يتجاوز عمره الرابعة والثلاثين!



(٣٦)

اجعلني وليًا لعهدك!

ورحل عبد الملك المظفر، فكان عهده كنسمة الصباح الهادئة لا تزيدك إلا سرورًا وحبورًا، لما حصل بعده من سوء التدبير وفدح الخطب، فصار القرطبي يقف مستعبرًا ويقول بحسرة: رحم الله أبا مروان المظفر.

عبد الملك المظفر الخيط الرفيع بين استبداد وحنكة وحكمة المنصور العظيم وطيشان عبد الرحمن وشره وطمعه، الحد الوسط بين قمة الذروة وحضيضها، بين الثرى والثريا، بل هو كالصلاة بالنسبة للمؤمن؛ حدٌّ فاصلٌ بين الكفر والإيمان، بين الفوضى والأمان، بين الحرب والسلام.

وطُويت بموته صفحةٌ لامعة من ألمع ما عرفته الأندلس، كان مقلدًا لأبيه ولكنه لم ينجح في أن يحكمها كأبيه، لم يفلح في أن يكتم على أنفاسهم ويجعلهم يهابون الحديث مع أزواجهم خوفًا من رقبائه، بل عهد رخاء وراحة ودعة، وما إن مات في تلك الظروف الغامضة حتى أينع ثمر الشر وحان وقت قطافه، والكل تساءل: كيف مات المظفر؟ ليأتي صوت الذلفاء مزلزلاً: القاتل هو عبد الرحمن بن المنصور!

وغمت قرطبة لما نطقت به ألسن فتيان القصر نقلاً عن الذلفاء، وأشيع أيضًا أن عبد الرحمن سقى أخاه السم!

وما إن دُفِنَ المظفر حتى عاد عبد الرحمن إلى الزاهرة ثم ذهب إلى الزهراء حيث دخل على أمير المؤمنين هشام المؤيد وقد بدا كهلاً تخطى الأربعين، ولم يعد له من الأمر شيء إلا الطوعية لحاجبه، فحضن هشام عبد الرحمن، وقال:

- عظم الله أجركم، وأحسن عزاءكم، وغفر لميتكم، كان خادمًا لبيبًا، مطيعًا رحيمًا، غفر الله له، وأسكنه فسيح جناته ونعمائه.

- بارك الله فيك يا أمير المؤمنين، ونحن على عهد المنصور (رحمه الله) باقون.

فعرف هشام مأربه، فقال:

- وستكون حاجبًا مثل المنصور والمظفر.

- وسنكون مخلصين لك.

فتقدم هشام نحو كرسي الخلافة الذي مضى زمنٌ طويلٌ منذ أن جلس عليه آخر مرة، وقبل أن يصل إليه استدار إلى عبد الرحمن فلمح نظرة الطمع متلألأةً نحو كرسيه، فقال:

- وماذا ستسمي نفسك؟

فتهلل وجه عبد الرحمن، وقال بشيء من الرفق الذي كان يفتقده:

- الناصر!

فوقع الاسم في نفس هشام كالصاعقة شدةً وعنفًا، كيف يسمي نفسه الناصر؟ ألا يعلم أنه لقب جدي الملك العظيم؟ وهل يظن هذا الأحمق بجهالته أنه يصل إليه؟ ولم يلقب جدي بالناصر إلا بعد أن روَّض الدولة بين يديه وأعلن نفسه أميرًا للمؤمنين بعد طول الكفاح والدفاع؟ أم يظن أنه إن شابهه في الاسم فسيشابهه في الفعل؟

فقال هشام بجرأة غير معهودة:

- إنه لقب خلائفي يا أبا المطرف.

فقال عبد الرحمن وقد استشاط غضبًا بسرعةٍ جنونية:

- وأنا أستحقه يا مولاي.

- هذه ألقاب خلفاء، وأنت حاجب لا خليفة.

- ولكن أبي كان حاجبًا وسمى نفسه (الملك المنصور).

فقال هشام بعد تردد:

- ولكن...

فقاطعه قائلاً:

- هل نسي أمير المؤمنين جهاد بني عامر ورباطهم على الثغور؟ وكيف سَمو بالدولة إلى القمة، وكل المجد الذي بلوغه هو لك، وهكذا سيدونه كُتَّاب الأخبار بعد قرون، وقد اعتاد أبي (رحمه الله) أن يخصك بمغانمها دون مغارمها، ونحن نكفيك شرها، اترك الدفاع عن حماك وحمى ملكك لنا.

فقال هشام يائسًا:

- فليكن ما تشاء.



عبد الرحمن بن المنصور لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وجده شنجة الملك النصراني، وكانت تسميه أمه (شنجول) لأنه أشبه الناس بجده (شنجة) فغلبت عليه هذه التسمية، وكان طائشًا فاسقًا غارقًا في ملذاته، كاشفًا عن مطامعه، فلم يكفه الحجر على الخليفة، بل طالب أن تكون ولاية العهد له من بعد الخليفة هشام، فلم يعترض

أحد من الوزراء والقواد، بل سكت جميع رجال الدولة، ومن لم يصمت فقد أيده مثل قاضي الجماعة ابن ذكوان، والكاتب البليغ أبو حفص بن برد.

فلم يمضِ إلا أيامٌ على وفاة عبد الملك حتى دخل عبد الرحمن على هشام، فَقال له:

- يا أمير المؤمنين، اجعلني ولي عهدك من بعدك!

فاستغرب هشام من طلبه، وقال لنفسه: هل بلغ به الطمع أن يطلب الخلافة له؟ لم يجرؤ المنصور على طلبها علناً حتى يطلبها ولده بكل صلافة؟

فقال هشام:

- وكيف هذا يا أبا المطرف؟ لكم الحجابة، ولبني أمية الخلافة، (ثم بشيء من التهكم) وأنتم الخدام الكرام، لا تطلبون منصبًا، بل لكم مغارم الخلافة ولي مغانمها، وأنت ماضٍ على سنة أبيك وأخيك.

فقال بجرأة منكرة:

- ذاك أبي وأخي وهذا عهدي أنا، عبد الرحمن الناصر بن المنصور!

- ولكنك لم تؤتَ نسبًا يؤهلك لكي تتبوأ هذا المنصب الجسيم!

- نسب! ومُذ متى تقاس الكفاءة والقدرة والسياسة بالنسب؟ بل العمل يا أمير المؤمنين وأنت رأيت عملنا على مدى سنين، وهل تبلغ الدولة ما بلغت من العظمة بك؟ ولولا أبي ما بلغتَ هذا المجد.

كان عبد الرحمن يتحدث ويفاخر بأبيه ونسي أن يقدم شيئًا حتى يستحق الولاية، بل هو رجلٌ طامع، لم يستطع كبح طمعه ومداراته بالفتوح ومرابطة الثغور كما كان يفعل المنصور من قبل، بل تعرى من كل حسنة وبقي طمعه عاريًا وحده.

- لا أستطيع أن أسلب حق بني أمية!

(هكذا قال هشام بلهجة قطعية!)

فقال عبد الرحمن محاولاً تهدئة نفسه المشتعلة بشهوة الملك:

- ولكني لست عاريًا عن نسب الخلافة يا مولاي!

فقال هشام متعجبًا:

- وكيف ذاك؟!

- أنسيت أن لي قرابة بك؟

- قرابة! ومن أين أتت؟

- أمي بشكنجية نافارية، وأمك صبح بشكنجية أيضًا، وهذا النسب من جهة أمي يربطنا ببعض، وهذا الذي يفضلني عن أبي وأخي، ويجعلني مؤهلاً للخلافة!

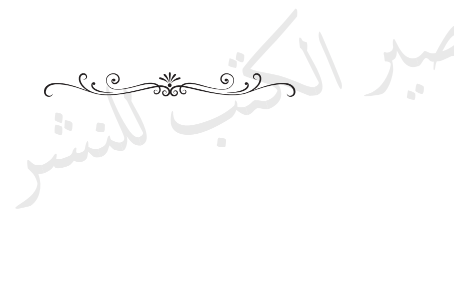
وخرج شنجول من عند هشام وهو غاضب، فهشام لم يقتنع بحجته، وبدت حجته رخوةً إذ تختبئ خلفها الغاية العظيمة، وهو القضاء على الخلافة الأموية، وجعلها خلافة عامرية، ففكر وقلَّب فكره لعله يجد حيلة يحتال بها على هشام، وهو فوق ذاك ترك الدولة وشؤونها لوزرائه وفتيانه.

وأخيرًا وجد حيلة، فقد أرسل أحد أعوانه إلى هشام ليقنعه بالتنازل، ومما قاله ذاك الرجل لهشام: احذر مَكره، فإن شئت أم

أبيت فلسوف يستحوذ عبد الرحمن على الخلافة، وإن لم تُعطه ولاية العهد فإنه عازمٌ على قتلك والفتك بك أنت وأهلك، وبذاك يكون قد انقلب عليك بالقوة، وأنت لم تملك شيئًا يومًا، فعلامَ تتمسك بالملك؟ احفظ على نفسك واعطه ولاية العهد!

فوافق هشام على مضض، خوفًا على نفسه وأهله.

فضحك عبد الرحمن، وأرسل لأبي حفص بن برد، فقال له آمرًا: أريدك أن تحبر لي كتابًا بليغًا، بمناسبة أخذي ولاية العهد، وأريده كتابًا بليغًا مدبجًا أحسن ديباجة، ومصنع بروائع السجع، هل فهمت؟



(٣٧)

ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه

وفي صباح اليوم التالي أُحيط قصر الخليفة في قرطبة بصفوف كثيفة من الجند، وحضر في ساحة القصر الكبرى الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة، وخرج هشام المؤيد بملابس الخلافة وجنبه عبد الرحمن بن المنصور، وما إن طلَّ هشام حتى اشرأبت الأعناق نحوه، فهم لم يروه منذ أمد قصي، وجلس في مقامه، ونظر إلى وزرائه ورجال دولته وبدا وسطهم كالغريب الذي لا يعرفهم، فهو لا يعرف أحدًا منهم، ونظر هشام إلى أقصى المجلس فرأى سادة بني أمية من أبناء عمومته وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وسرعان ما استحقر نفسه في أعماقه على هذه الخيانة النكراء، ها هو ملك صقر قريش العظيم والذي تركه لنا يضيع بيد مجنون طائش، يبني العظماء لنا فيدمره سفهاؤنا، ما أتعس الحياة؟ يدمر ملك صقر قريش من لم يكن لينبس ببنت شفة أمام رجل من رجاله، فيحطمه كله كأن لم يكن، ينظر إلى وجوه بني أمية فيراها مكفهرة كئيبة كاسفة البال، فيرد نظره وقد خجل من ضعفه.

ويأتون بالكتاب الذي وقع عليه أمير المؤمنين هشام، فيقوم أحد العمال ويقرأه على الملأ:

(هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله -أطال الله بقاءه- إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه ببيعة تامة، بعد أن أمعن النظر وأطار الاستخارة، وأهمه ما جعل الله إليه من الإمامة، وعصب به من أمرة المؤمنين، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء، بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلكٍ عليه، ونزل مقدوره به، ولم يرفع لهذه الأمة علمًا تأوي إليه، وملجأً تنعطف عليه، أن يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطًا فيها، ساهيًا عن أداء الحق إليها.

ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرهم، ممن يستحق أن يسند هذا الأمر إليه، ويعوَّل في القيام به عليه، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه، بعد إطراح الهوادة، والتبرؤ من الهوى، والتحري للحق، والتزلف إلى الله جل جلاله بما يرضيه، وبعد أن قطع الأواصر، وأسخط الأقارب، عالمًا بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح، وموقنًا أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص، فلم يجد أحدًا أجدر أن يوليه عهده، ويفوض إليه الخلافة بعده، لفضل نفسه، وكرم وشرف مرتبته، وعلو منصبه، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، النازح عن كل عيب، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد ابن أبي عامر وفقه الله، إذ كان أمير المؤمنين أيده الله تعالى قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعًا في الخيرات، سابقًا في الحلبات، مستوليًا على الغايات، جامعًا للمؤثرات، ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه، مع أن أمير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم، ووعاه من مخزون

الأثر، يرى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد اللّه بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبي -صلى اللّه عليه وسلم- قال: لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه، فلما استوى له الاختيار، وتقابلت عنده فيه الآثار، ولم يجد عنه مذهبًا، ولا إلى غيره معدلاً، خرج إليه من تدبير الأمور في حياته وفوض إليه الخلافة بعد وفاته، طائعًا راضيًا مجتهدًا، غير محابٍ له، ولا مائلٍ له بهواه، ولا متركٍ نصح الإسلام وأهله فيه، وجعلٍ إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها، وأمضى أمير المؤمنين أعزه اللّه هذا، وأجازه وأنجزه وأنفذه، ولم يشرط فيه مثنوية ولا خيارًا، وأعطى على الوفاء به في سره وجهره، وقوله وفعله، عهد اللّه وميثاقه وذمة نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم، وذمم الخلفاء الراشدين، من آبائه وذمة نفسه، ألا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول وأشهد اللّه على ذلك والملائكة وكفى باللّه شهيدًا، وأشهد من أوقع اسمه في هذا وهو جائز الأمر ماض القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور -وفقه اللّه تعالى- وقبوله ما قلده، وإلزامه نفسه ما ألزمه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩)

وذيل الكتاب بشهادة قاضي الجماعة أحمد بن عبد اللّه بن ذكوان، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيرًا، ويليها شهادة مئة وثمانين رجلًا، من أكابر أهل الدولة والحكام والفقهاء، وكان الكتاب يُقرأ، فرفع هشام المؤيد رأسه إلى الشمس المتوهجة في كبد السماء، فكانت رقيقة تبعث الدفء عبر شعاعها في هذا اليوم الشتائي الكئيب، وكأنها تعزيه وتخفف حسرته.

فكان ذاك اليوم انقلابًا خطيرًا في تاريخ الخلافة الإسلامية.

هل حقًا أن الخلافة الأموية ستزول؟؟ بل أين هو منهم؟ لو كان معاوية هنا لسخر منه، ولأنكره، أين عقله؟ أين دهاؤه حتى ارتخت الخلافة إلى هذا الحد؟ ألم يقل معاوية رحمة اللّٰه لذلك الرجل الذي غمزه: إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبيان ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الرجال.

أمّا هو فيعيش عيشة الصبيان، لا يبت بأمر، ولا حول له ولا قوة.



(٣٨)

إن ابن ذكوان وابن برد

قد ناقضا الدين حين العهد

وعاندا الحق إذ أقاما

حفيد شنجة ولي عهد

وعاد عبد الرحمن إلى قصره وهو فرح مرح، لا تكاد الأرض تسعه، هل حقًا ما حصل؟ هل تحقق حلمه؟ إنه مدهوش إلى الآن، لا يستطيع أن يستيقظ من نشوة الفرح خوفًا من أن يكون حلمًا، هل حقًا حقق ما عجز عنه المنصور بعظمته وعبد الملك وتدبيره وحققه هو؟ لمَ لا؟ قاضِ الجماعة وهو كبير العلماء والفقهاء قد شهد وأيد فعله واستحسنه، وكاتب الدولة الكبير أبو حفص بن برد خط بأنامله ما لم يفكر فيه وهو صاحب الأمر من قبل ومن بعد، والوزراء والكبراء ووجهاء بني أمية الذين ازدحموا على بابه للبيعة، والشعراء المادحون، ماذا يدل هذا؟ لا يدل إلا على حقيقته بالملك، فهو أهلٌ لأن يتضلع به وأفضل من هذا الأخرق هشام المؤيد، لم تبقَ عقبةٌ أمام الدولة العامرية لتكون دولة خلافة شرعية، إلا اللهم هشام هذا، وهو أقل من أن يخشى منه، أما سائر وجوه بني أمية فهم ضعفاء أذلة، ويستطيع أن يقتل هشام المؤيد غيلةً، أو يسقيه سمًا، كما فعل المظفر

والمنصور من قبل مع كثير من أعدائهم، عندها يبدأ عهدًا جديدًا، الدولة العامرية، وأول خلفائها أمير المؤمنين الناصر لدين اللّه أبو المطرف عبد الرحمن المأمون بن المنصور أعزه اللّه.

ولما نطق اسمه وهو يحدث نفسه، توقف، فنظر إلى عظمة الاسم وفخامته، وقام ماشيًا في قصره وقد اصطف الخدم، وارتدى ملابس ملكية خلائفية فاخرة، وما إن رآه الخدم حتى خروا راكعين بين يديه، فصار يشعر أن قلبه يخفق سريعًا، وأن شعورًا خافتًا يوسوس له ويزين له؛ أنه يملك كلَّ شيء في هذه الأصقاع الممتدة، وتابع مشيه وهو فرحٌ مسرور، فخرج إلى حديقة قصره فرأى الجند مستعدين ومصطفين بكثافةٍ بمناسبة توليه ولاية العهد، وما إن رأوه حتى ركعوا له كلهم أجمعين، فعاد ذاك الشعور الخافت بقوة، ليشعر أنه أعظم من يملك في هذا الوجود، وأعظم ملك موجود، فصرخ وسط قصره من أعماق نفسه: أنا الناصر عبد الرحمن بن المنصور، الذي يملك ما لم يملكه ملك قبلي.

وهكذا ليكون عبد الرحمن حبيس نفسه القابعة في ظلال العظمة التواقة لثمرها، الباحثة عن الخلود في هذا الوجود.

يقضي وقته لاهيًا لاعبًا وينتظر موت هشام المؤيد بفارغ الصبر، حتى قال بعد توليه ولاية العهد: متى يموت هشام هذا؟ منذ أن ولد وهو أمير ومنذ صغره وهو خليفة، ألم يكتفِ ويترك لنا نصيبًا مما كسب؟ أم يظنها له وحده.

وتحيط به حاشية داعرة فاسدة، يتفننون في المجون والهزل، فلم يعد هناك وزراء أو قضاة محيطون به، بل انفضوا من حوله

يدبرون الدولة وتركوه في لهوه. رفع أصدقاءه ورفاقه -وهم زعار سيئون- أعلى الدرجات وجعلهم جلساءه، يزينون له آثامه وخطاياه، ويشجعونه على المضي بها، فقال لهم يومًا:

- قد سئمنا الجواري والحسناوات، ومللنا من الصدور والنحور، وضجرنا من خصرهن الهيفاء ومؤخرتهن العجزاء، فمن لنا بغير جنسهن؟

فقال أحدهم:

- وهل نصنع جنسًا آخر يا مولاي؟

فقال الآخر:

- أعرف يا مولاي جنسًا من الرجال ولكن ليس كالرجال.

فقال عبد الرحمن وهو يرفع قارورة الخمر:

- قبحك الله من رجل، وما هذا الجنس؟

- يا مولاي هم ذكور مصطفون من الأسرى الفرنج، أمرد أبيض، ناعم الملمس، يريك من ملذات الدنيا ما لم تره من غانية فرنجية، يعطيك لذة لا تقدر أن تعطيه لك النساء الحسناوات.

- وهل هم رجال يملكون ما نملك؟

- نعم، مثلنا، ولكنهم معدون لهذا الشيء، ولا يملكون شجاعة الفرسان الشجعان مثلنا، بل هم ناعمون هادئون يتصرفون كالمرأة اللعوب عندما تستكن فلا تأخذ من هدوئها إلا ما يرفع شهوتك وجعلك تلتهمها قبل أن تفرغ من كلامها المعسول.

- أرنا منهم.

وفي اليوم التالي جاء بهم، هم فتية شُقرٌ مردٌ، في أحدهم روح الأنثى دون جسدها، فإذا بعيونهم أحلى من النساء، فهم خدمٌ مطيعون، وصنف جديدٌ للمجون معهم لم يذوقوه من قبل، فأمر عبد الرحمن طرد النساء، وبقوا يلعبون معهم هازلين، فذاك يقبلهم، وذاك يميل عليهم.

- مولاي إني لكم من الناصحين، لا تخرج لغزوك، وتترك قرطبة.

قالها الفتى واضح ناصحًا عبد الرحمن، فقال عبد الرحمن:

- ويحك يا واضح! وماذا تريد الناس أن تقول عني؟ هل ستقول: أن عبد الرحمن بن المنصور ركن للمناصب وسكن، وترك سنة المنصور والمظفر؟

فقال واضح:

- بل قالوا أكثر من ذاك يا مولاي؟

- وماذا قالوا؟

فقال واضح بعد تردد:

- مولاي لم أعد أستطيع أن أكتمك ما يقال عنك من سوء.

- لم تستطع؟ إذًا هو كثيرٌ مستشرٍ!

- هناك شاعر سيء -قبحه الله- وقد بعثت رجالي يبحثون عنه ليأتوا...

فقاطعه صارخًا:

- ماذا قال؟

- يقول هو وليس أنا...

- قل وإلا قطعتُ رأسك!

-إن ابن ذكوان وابن برد

قد ناقضا الدين حين العهد

وعاندا الحق إذ أقاما

حفيد شنجة ولي عهد

فغضب عبد الرحمن، ولكنه حاول أن يقنع نفسه أن سخط الشعراء يستكن عند الفتح، وأنه سيخرج للفتح وسيسكت أهل قرطبة، بل سيهتفون له كما هتفوا لأبيه من قبل، وسرعان ما استقرت نفسه لهذا الرأي.

فقال لواضح:

- جهز القواد، سنخرج بحملة كبيرة.

فقال واضح بصوت خفيض:

- يا مولاي، اترك الغزو، لأنك إذا خرجت وتركت قرطبة اضطرب الوضع، وربما سادت الفوضى، فقد علمنا أن المروانيين وشيعهم يسعون سعيًا حثيثًا للقيام عليك، وبدأت العامة تميل لهم، ولولا أن جنودنا كانوا لهم بالمرصاد لكان شرًا مستطيرًا، وما زال الشر قائمًا، بنو أمية يرونك مغتصبًا لحقهم.

فقال هازئًا:

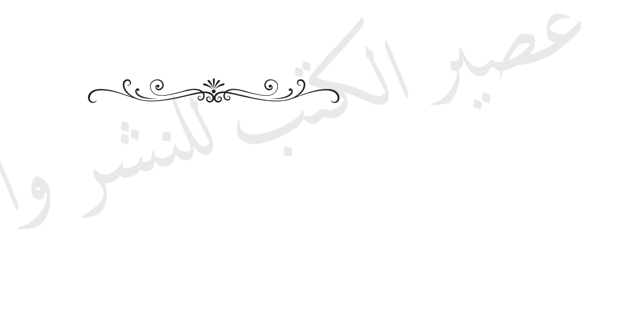
- بنو أمية! والله لو اجتمع بنو مروان على مرقدي وأنا نائم ما أيقظوني! الآن حان وقت الجهاد!

وكاد يصرخ به ويقول له: أي جهاد؟ الجهاد يطلب أناسًا تخاف اللّه وتطيعه، لا زناة وسكيرين وعابثين ومغتصبي مُلك، ولكنه آثر السلامة على الندامة!

وتجهز الجيش، وبعد أن أخذ إذن الخليفة خرج إلى جامع قرطبة الكبير في مشهد مهيب مشهود، ومعه الوزراء وكاتبه ابن برد وكبراء الدولة، ولم يفُته أن يأخذ معه الشاعر ابن دراج القسطلي ليدبج له القصائد الطوال بمناسبة نصره العظيم الذي سيحرزه! وعقد لواء غزوته من هناك، ومشى خارجًا بجيشه وأهله وهو ينظر في الوجوه وينتظر أن تهتف له، ولكنهم صامتون، فحزن لذلك الأمر، وتذكر حديث فتاه عن الثورة المرتقبة، ولكن سرعان ما تبدد ذاك الشعور بعد أن علت أصواتهم هتافًا له، فعادت الطمأنينة إلى نفسه التي شابها شكٌ في شيء عظيم سيحصل! وظن أن الهتاف هذا هو هتاف المجد، وأن هذه الأصوات سترافقه عندما يصنع مجدًا كأبيه.

فتودعه النفوس وهي تدعو عليه بألا يعود، فقد ضجرت الرعية منه ومن ظلم وزرائه وفتيانه؛ الذين استفحل شرهم، وأعادوا سيرة الفتيان الصقالبة الأولى، أليس المنصور ظهر وظفر على أكتاف الفقراء العامة من أمثالهم؟ فساد بهم، وأذل أعزة القوم من المروانيين والمصحفيين، وذلك لظلمهم واستحواذهم على أملاك وأموال الدولة ظلمًا وزورًا، فما بال فتيانه يعيدون تلك السيرة السيئة؟ وما بالهم يأخذون الملك ومغانمه دون أن يقدموا شيئًا للشعب يُذكر؟ ما زال عبد الرحمن منذ أن تولى الحجابة ثم الولاية ولا عمل له، بل فساد حاشيته استشرى، وعم الشرُّ، وعاد السراق واللصوص في أنحاء قرطبة، فلا يصحون إلا على خبر سرقة فلان، ومقتل فلان،

فدب الرعب فيهم، فأين المنصور العظيم عندما جلد ابن عم له لأنه شرب الخمر؟ فجعله عبرةً لغيره، وأين هم منه عندما قتل وًلده وأرسل رأسه إلى الخليفة طاعةً وتقربًا؟ لقد تبخر طمع المنصور بالسلطة بالعمل الذي قام به، فشَّيد استبداده واستحواذه على السلطة والحجر على الخليفة بحصن حصين من العمل والإصلاح والفتوحات يخفي وراءها، وما إن تولى عبد الرحمن حتى انقشع ذاك الحصن واجتثَّ من أصله وبقيت أطماعه عاريةً أمام العامة! وقد أصاب فقراء أهل قرطبة من العيش ضَفَفٌ وقَشَفٌ، وهو ما لم يحصل في تاريخ المنصور.



(٣٩)

فلولاك ما ثبت عزمنا

لم يكن هدوء قرطبة في الشهورِ التي سبقت خروج عبد الرحمن إلا الهدوء الذي يسبق العاصفة، فكان بنو أمية في النهار طائعين مهطعين لهشام المؤيد وولي عهد عبد الرحمن، وما إن يرخي الليل سدله وتسكن الناس في بيوتها خوفًا من بطش اللصوص والزعار، حتى يخرج المروانيون إلى بيت محمد بن هشام بن عبد الجبار! متخفين بظلمة الليل وعتمته.

ورحم الله أيامًا كان المرواني يخرج بزينته وحرسه حتى يقول لكل من يراه: إني أميرٌ مرواني، ولي صلة بالخليفة. فتهابه الناس لهيبة الخليفة، والآن يخرجون متخفين وجرمهم أنهم مروانيون، وإذا أسفرِ الصبح عادوا لهدوئهم وعلى وجوههم ذل وقتر، وتلك الأيام دولاً، فهم يحاولون إرجاع ملكهم.

وما أن مات المظفر، علموا أن الفرصة قد اقتربت لإنهاء ملك بني عامر والتخلص من هشام المؤيد وضعفه، ولم يجدوا صعوبة في إعادة تشكيل قواتهم، فما زال تنظيم هشام بن عبد الجبار وعيسى بن سعيد قائم ولكنهم متخفون، فهرعوا إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار فوجدوه يغلي حقدًا دفينًا على بني عامر، وقد عاهد نفسه يوم سيق أبوه إلى السجن أن ينتقم له، وانتقامه هو ملك بني عامر كله، فقال له أحدهم:

- لقد اقتربت غايتنا من التحقق، ولن يكفينا ثأرًا لعمنا إلا كرسي المنصور نفسه، ولكن علينا أن نعيد تشكيل قوانا حتى نعلم المؤيدين من غيرهم، فنخطط مع موالينا ونعرف السبيل القويم لقيام ثورتنا.

فقال محمد:

- وهو عندي، فقد أعلمني أبي (رحمه الله) قبل موته بأسماء رجالنا المستعدين للانقضاض على ملك بني عامر، وكانوا مستعدين للانقضاض على عبد الملك المظفر وهو من هو، فما بالك بحفيد شنجة؟

- وهذا غاية ما نريد، وقد وجدت طريقة ظريفة لجعل شنجول يفقد ثقته بنفسه، علمتُ من فتيان القصر، ممن يوالوننا أن الذلفاء أم عبد الملك الظفر تتهم عبد الرحمن بقتل المظفر، والذلفاء هذا امرأة قوية قادرة، ولها مال كثير، كما أنها صاحبة كيد وتدبير، فعلينا أن نبث كلامها بين العامة وننشره، ونسعى للإيقاع بينها وبين عبد الرحمن، وهو واقعٌ لا محالة، فإذا وقع ما نريد صارت الذلفاء آفة في بيت عبد الرحمن تسعى في القضاء عليه، فتكون عينًا لنا ويدًا، ونبقى نحن نهيَّج ذكرى ولدها، فنذكر محاسنه ومآثره، ونذكر بالمقابل فساد عبد الرحمن، وهو على أي حال قاتله، إلى أن نضرب العامريين بعضهم ببعض، وهكذا نحطم ملك ابن أبي عامر!

فضحكوا ضحكات هازلة، وطمع عبد الرحمن المبكر المفضوح ساعدهم في الوصولً إلى غايتهم، وقبل أن يخرجوا من بيت محمد بن هشام، قال أحدهم: لا تخرجوا قبل أن تعينوا أميرًا عليكم، كي لا يتشتت شملكم ويتفرق رأيكم.

فنظروا كلهم إلى محمد، وقالوا: أنت أحق رجل به منا، فلولاك ما ثبت عزمنا، ولا أحكم تدبيرنا، وأنت أكثر رجل متضرر بنا، فتكون أكثرنا مراسًا.

وتمت البيعة لمحمد بن هشام في تلك الليلة، عازمين على إسقاط نظام الحكم واستيلاء الحاجب على السلطة، ومحمد بن هشام حازم وعازم على حصر السلطة بيد بني أمية والبيوت العربية عدا بني عامر.

ولم تمضِ أيام عشرة حتى خلع هشام الألقاب الملوكية عن عبدِ الرحمن، فقَال محمد ضاحكًا لأبناء عمومته: وقع شنجول ضحيةً لغروره وجشعه في حصر السلطة بيده، وهنا ستأتي الضربة القاضية القاسمة، سيعلن قرارًا على أنه ولي العهد، عندها سيطمئن، وتأخذه العزة بالإثم، وأنتم وجهاء بني أمية ستذهبون مبايعين وأنتم أذلة منكسرون، وسيزداد طمأنينة وسكونًا، وفي السر نشيع عنه فاحش القولِ، وهكذا تبقى الثورة تغلي إلى أن تنفجر كالبركان، فيمضي حارقًا ملكهم.

ويمضي أشراف بني أمية إلى بيعة شنجول، وينظرون إلى البيعة مزدرين على هشام فعله، وحصل ما زاد من غضب محمد بن هشام؛ إذ أتى مع أشراف بني أمية لحضور البيعة، فمنعه الحرس من الدخول! فقد كان معروفًا عندهم أنه طائش صعلوك، لا يسمو إلى مقام عالٍ لدرجة أن يحضر أخذ البيعة لولي العهد، فهو مستحقَرٌ عندهم مستصغَرٌ!

فغلا حقده أكثر فأكثر، واجتمع برهطه ليلًا، فقال محمد:

- لي تدبيرٌ جديد، وحتمًا سيطيح بشنجول وملكه، وتصفو الدولة لنا خالصةً لا ينازعنا فيها أحد!

فقال أحد أبناء عمه:

- وكيف ذاك؟

- لقد أخذ شنجول ما لا حق له به، وحمله على الناس حملاً، فاستولى على ولاية العهد، كخطوة ما قبل الأخيرة ليستولي على الخلافة، وسيحاول بعد مرور مدة يسيرة التخلص من (هشام المؤيد)، ثم يقضي علينا كما فعل أبوه من قبل عندما لفق لفائق وجؤذر تهمًا، ثم اتخذها ذريعة للقضاء على الصقالبة غير الموالين له، لئن لم يرث شنجول محاسن المنصور فقد ورث مثالبه وسيئاته، وهكذا الإنسان إن لم يرث عن أبيه محاسنه ورث مثالبه، ونحن لن نتركه يصل لهذه الخطوة، بل سنبدأ من الآن نشيع بفعلته السيئة وأنه أجبر هشام المؤيد على هذه الفعلة، واستمروا ببثها ولا تنسوا ما فعله بشأن أخيه وكيف قتله، كما لا تنسوا أن تشهروا بالقاضي ابن ذكوان والكاتب ابن برد، لقبح فعلهما بتأييد الأول والثاني لخطه الكتاب بأنامله، وقد نظمت هذين البيتين فيهما:

إن ابن ذكوان وابن برد

قد ناقضا الدين حين العهد

وعاندا الحق إذ أقاما

حفيد شنجة ولي عهد

فانشروا هذا الشعر بين الناس، فإذا ردَّدت الناس هذا الكلام وعلم به القاصي والداني، لم يستطع جنده مقاومة هذه الأقوال لأنها انتشرت على ألسن كلّ الناس فلا يستطيع سجن كل من نطق، فإذا أراد أن يسجن كل من نطق ضده كما كان يفعل أبوه عليه أن يتخلص

من الشعب كله! فإذا انتشرت واستشرت جهزنا سيلاً جديدًا من الشائعات ضده.

- وماذا ستثير؟

- الجهاد! سنة المنصور والخلفاء من قبله، وشنجولُ قاعدٌ لا جهادَ ولا فتحَ، سنحاول أن نثير هذه الفِكَرة، عندها سيخرج شنجول رغمًا عن أنفه إلى الجهاد، فإذا خرج فرغت قرطبة، وبقيت خاليةً لنا، عندها تقوم دولتنا على أكتاف العامة ونحطم الزاهرة كأن لم تكن.

- الله أكبر.

- الله أكبر.

فعَلت التكبيرات.

(٤٠)

لو يأتي المنصور ويشاهد ملكه الذي قضى عمره في سبيله كيف سيسقط صريعًا في حرب زوجه وولده!

يسير بخطىً وثيقة رتيبة، كان المسجد خاليًا وقت الضحى إلا من جنودها القادمين لحراستها، وقف في محاذاتها في أحد أركان المسجد وقد فصل بينهما حجاب من برنس طويل يجّب النظر.

- أمر مولاتي.

فقالت بلهجة آمرة وواثقة:

- أنت محمد بن هشام بن عبد الجبار؟!

- نعم، أنا هو.

- وهل علم أحد بحضورك إلي؟

- حاشا يا مولاتي.

فقالت بلا مقدمات:

- علمت أنكم تعدون لانقلاب ضد القاتل الفاتك حفيد شنجة عليه لعنة اللّه.

فقال بشيء من الارتباك:

- هو ذا، نحن نسعى لرد الحق إلى نصابه، حق بني أمية الذي اغتصبه (وكان يريد أن يقول المنصور والمظفر فتذكر أنها زوج الأول وأم الثاني) شنجول.

- وكيف ترى المنصور وولده؟

فقال كاذبًا وهو يعلم أنه كاذبٌ لكن مصلحته تقتضي ذلك:

- رحم الله المنصور وولده، كانوا حماة مخلصين للدولة، أما هذا فمغتصبٌ سفاح، يجاهر بفسقه وكفره واعتدائه، والدولة كما ترين سائبة بيد أعوانه الفاسقين، وهو متفرغ للهوه وفسقه.

فقالت بألم مكبوت ولهجة تقطر دموعًا:

- المجرم! قتل أخاه، هل سمعت بمثل هذا من قبل؟ كيف له أن يقتله في سبيل منصب زائل؟ (ثم انهمرت دموعها) ماذا أفعل بعد عبد الملك فلذة كبدي! رحل بلحظة، كالحلم الجميل مر ورحل، بريء كالملائكة، لم يؤذِ أحدًا طول عمره، رحل بدم بارد وهو شاب يافع! وقد عاهدت نفَسي أن أجعل ذاك الكرسيَّ الذي سعى له وقتل أخاه لأجله قبره، سأجعلها حربًا ضروسًا لن تنتهي إلا بقتله وأخذ العرش منه، سأمول الجيوش الجرارة وأجهزها بكل العدة للفتك به، وسأترك أمه تندب عليه ولا تجد قبرًا له، أو حتى مكانًا تبكي به، ستسقط رؤوسٌ وتطير رقاب، وتقفر الأندلس كلها في سبيل ثأر ولدي من حفيد شنجة!

فقال:

- وماذا تأمرين الآن؟

- ما هو مخططكم؟

- الإطاحة بشنجول، وهـ شـ ام.

- ومن الخليفة من بعده؟

- منا.

- من هو؟

- لم نحدده بعد.

- لكم مني كل ما تريدونه من سلاح وعدة لمواجهة جيشهم.



خرج من المسجد وبرْد الخريف لفح وجهه المتعرق من هول ما سمع، هل ما يحصل حقًّا؟ حلمٌ أم وهمٌ؟ حقيقةٌ أم خيال؟ وصار يُحدث نفسه ويقول: لقد بدأ التشتت والتشقق في بني عامر أسرع وأكبر مما خططت له، أنا لم أعد أعي ما سمعت، هل يعقل؟ لقد غرقتُ في بحرٍ من التناقضات، الذلفاء تريد أن تثأر لولدها مهما كلفها من مالٍ وسلاح، وولدها هو عبد الملك المظفر قاتل أبي، أي أنني سآخذ ثأر أبيَ وثأر قاتله في آن؟! كيف يستقيم هذا العد؟ إذا تعاونت مع الذلفاء في سلب ملك العامريين فسأكون شريكًا لها، وربما طلبت تعيين محمد بن عبد الملك حاجبًا لي بعد نجاح هذا الأمر، وعندها سأعود وأترك ابن قاتل أبي في حمايتي، وأنا أصلاً انتقمت لأبيه الذي هو قاتل أبي، وكله في سبيل القضاء على شنجول، لأنه اغتصب الملك، يا الله ماذا أفعل؟ لمَ لا أستغل الذلفاء في خدمتي ثم أتخلص منها؟ أجل، آخذ أموالها خدمةً لثورتنا وثأرنا، ويكون اتفاقنا سرًا، ثم إذا ولجت الخلافة نكثت عهدي ودمرت ملك بني عامر أجمع، واجتثثتهم من أصولهم، وتركت الذلفاء خاوية اليدين، تنظر إلى مقامي فتقول: هو الذي أخذ ملكنا منا.

أجل كما اغتصب زوجها ملك أجدادي من قبل، وكما ساعدته صبح كعادتها، سآخذ ملكهم من بين أيديهم، وبمساعدة زوج الملك المنصور العظيم، وستكون كصبح، ولكن صبحًا كانت ذات مالٍ وجمالٍ، أما الذلفاء فسأستولي على مالها وهي عجوز شمطاء، لتبقى وحيدةً تتحسر وتنتظر موتها، ليته يأتي هنا ويرى مجده كيف سيضيع.

وكان قد بلغ القنطرة الشهيرة، وبدت قرطبة آمنة، فقال: آه يا قرطبة لو تعلمين ما يجري في سبيلك من صراع وقتال؟ لو يأتي المنصور ويشاهد ملكه الذي قضى عمره في سبيلهِ كيف سيسقط صريعًا في حرب زوجه وولده!



وزادت الشائعات في قرطبة على عبد الرحمن، وانتشرت الأشعار الهازئة الساخرة منه ومن نسبته لشنجة، فضلاً عن تهمته بقتل أخيه، وزاد أنصار بني أمية في قرطبة، وزاد شراؤهم للجند بالمال الذي أمدتهم الذلفاء به، فنقموا وسخطوا عليه وعلى ظلم عماله، وقعوده عن الجهاد هو البلاء الأكبر، فالنصارى لن يسكتوا على اندحارهم الكبير أما جيوش المنصور والحكم والناصر، وكاد الشعب يثور، فقرر شنجول أن يخرج غازيًا.

ففرح بنو أمية لهذا الخبر، وقال محمد بن هشام لهم في اجتماعهم السري: الآن «اقترب الوعد وحان الهلاك» لبني عامر، سيخرج عبد الرحمن شنجول لغزوته، علينا أن نحث أكثر عليه كي يخرج، فقد بلغني أن بعضًا من فتيانه يحذرونه من الغزو، خوفًا منا، ولكن استعدوا للضربة القاضية، عندما يخرج عبد الرحمن وتخلو قرطبة نقوم بما يلزم فعله ونستحوذ على قصر الخلافة والزهراء،

ثم نحطم الزاهرة بلا هوادة! ولا تنسوا عندما يخرج أن تودعوه بالهتاف حتى ليخيل له أنه هتاف المجد.

وكالعادة يلتقي بالذلفاء في المسجد، وتسلمه الدفعة الأخيرة من المبالغ، وقبل أن يذهب تناديه الذلفاء فينظر إليها لأول مرة من دون حُجب، فرآها وما زالت تحتفظ بأطياف هزيلة من الجمال الغابر، فقالت له: الانتقام ولا سبيل لراحة ضميرنا سواه.

فخرج من المسجد، وقد كمل مخططه وجهز ولم يبقَ إلا خروج عبد الرحمن ليترك قرطبة لهم.

ويخرج عبد الرحمن من قرطبة بجيشه وعدته وعليه الأهبة، وكان محمد بن هشام ينظر إلى الجيش من بعيد، ولفت انتباهه أن اهل قرطبة لم يهتفوا له، فسارع إلى رجاله وقال لهم: ليهتفوا له أخشى أن تُكشف حيلتنا، وسرعان ما علت الأصوات هاتفةً له.

ولم تبقَ من فلول الجيش العامري إلا فِرق قليلة تحرس المدينة، وقد علموا بالخطر الداهم فزادوا في الحيطَة والحذر.

وعندما خرج الجيش، اجتمع محمد بن هشام برهطه في أحد كهوف جبال قرطبة، وقال لهم: ستجهزون مجموعة من فرسانكم الشجعان يرابطون عند قصر الخليفة، ولكن لا يشهروا سلاحهم بل يخبئونه تحتَ ثيابهم، فإذا وصلت الأخبار بعبور شنجول إلى أرض النصارى تكون ساعة ثورتنا المنشودة قد أزفت.



(٤١)

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

كان يومًا عبوسًا قمطريرًا، فاتح الشر ومبتداه، لم يرَ أهل قرطبة بعد ذلك اليوم خيرًا قط، بل كان فاتح البؤس الذي لن يبلغ منتهاه، فقد وصلت الأنباء إلى قصر الخليفة بأن شنجول قد عبر إلى أرض النصارى!

وكان محمد بن هشام يقف عند النهر الكبير، عند الضفة المقابلة لقصر الخليفة، فوصل إلى باب القصر، وكان عند باب القصر مقام صاحب المدينة، له حجرات يسكن بها هو وعماله، فوقف محمد أمام حراس صاحب المدينة ومعه رجال بزي العامة، فقال أحد الحرس: من أنت أيها الرجل؟ امضِ من هنا وإلا رميتك بسجن القصر.

ولم يكمل كلمته حتى استل محمد سيفه وبسرعة خاطفة تشبه حقد قلبه على العامريين فضرب الحارس ليسقط مضرجًا بدمه. فقال محمد: وأنت لن تسكن بسجن القصر بل في القبر!

وسرعان ما نشب قتال مع حراس صاحب المدينة، ولم تمض الساعة حتى كانوا جثثًا هامدة، فدخلوا إلى مقام صاحب المدينَة وصاحبها هو عبد الله بن أبي عامر ابن عم المنصور، فوجدوه ثملاً، بيده قارورة الخمر وجنبه جارية يداعبها، فدخل محمد ورهطه وهو لا يدري شيئًا.

فقال محمد ساخرًا: هل رأيتم إلى أين وصلت الدولة؟ بيد سكير عربيد مثل هذا، رحم الله المنصور كم أكرهه؟ ولكني عندما رأيت فساد ولده وأولاد عمه وفتيته حزنت عليه، كم كافح وناضل، وفي النهاية تستقر الدولة بيدكم، اضربوا عنقه وعلقوه على باب القصر.

وسرعان ما قتلوه واحتزُّوا رأسه وعلقوه على باب القصر، فلما رأت الناس الرأس المعلق ذعرت وفزعت، وأتت راكضة إلى باب القصر، وما إن تجمهروا يبصرون رأس صاحب المدينة حتى شُهرت السيوف المخبأة، وقام المسلحون وهم يكبرون، فخرج محمد بن هشام من مقر صاحب المدينة وهو يحمل سيفه الذي يسيل دمًا، فقال: اليوم يوم الملحمة، يوم زوال ملك بني عامر، وسيعود الحق إلى نصابه.

فلم يكمل كلمته حتى قام أحد رجاله، وصرخ: الآن بدأ عهد أمير المؤمنين محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، من فقد أباه في سبيلكم، فبايعوه، وكونوا معه، الله أكبر.

فالتموا نحوه مكبرين، وهكذا هي قرطبة تقف من القوي دائمًا.

ولما سمع هشام المؤيد، بُغت، وعلم أن العامة مع الثوار المسلحين يقفون عند باب القصر، فصار يرتعش خوفًا، وسرعان ما أدرك أن القوم قاتليه لا محالة، فتذكر خدعة (معاوية) في صفين، فأمر خادميه بحمل مصاحف معهم، وصعدوا السطح، فبرز من فوق ومعه الخادمين رافعين المصاحف، فكان مشهدًا ينم عن الضعف والخوف الذي وصل إليه.

فقال وصوته يفضح خوفه: يا أهل قرطبة، (فصمتوا أجمعين مسددين نظرهم نحوه) أنا أميركم، هشام المؤيد بالله بن الحكم، هل نسيتم؟ لي بيعة في رقبتكم، وأنا آمركم بالرجوع إلى منازلكم آمنين مطمئنين.

فصاح به أحدهم: الآن أميرنا؟ لماذا لا تكون أميرًا على العامريين؟ فقط على الفقراء المستضعفين؟ اخلع نفسك واستسلم إلى مصيرك كالرجال.

فعلت الأصوات الناقمة عليه، وارتد خائفًا مرعوبًا.

وسرعان ما تكوَّن له جيش كبير كثيف من العامة، وأمرهم باقتحام سجن العامريين، فهجموا عليه وكسروا أبوابه فخرج اللصوص والزعار والقتلة مهرِعين سرعان ما التفوا حول محمد بن هشام وصاروا من جنده، يفتكون بالفتيان العامريين. وخرج المروانيون من كل حدب وصوب فرحين بعودة الملك، فصارت جموع ابن عبد الجبار غفيرة، وهشام المؤيد في قصره محاصر.

فقال لجنده: انقبوا أسوار القصر واقتحموا أبوابه. وسرعان ما اقتحموا القصر ووصلوا إلى مخازن الأسلحة، فتسلح من لا سلاح له، وبدأ النهب والسلب وسط تلك الفوضى.

فأدرك هشام المؤيد أن النهاية قد لاحت في الأفق، فبعث خادمه إلى ابن عبد الجبار.

- أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله.

فقاطع محمد بن هشام الخادم قائلاً:

- لو كنا نشهد أنه أمير المؤمنين ما قاتلنا، بل قل هشام بن الحكم.

- هشام بن الحكم يبعث إليك ويقول: تعال وشاركه في الحكم، وأقم مقام بني عامر، أنت وصحبك.

فسخر منه محمد وتضاحكوا.

فقال والشر يتطاير من عينيه:

- قل له ليستسلم وليحافظ على روحه وروح أهله، والله لا أقنع إلا برؤيته مقيدًا مصفدًا في الأغلال.

فعلم ألا مناص من الاستسلام، ودخل محمد بن هشام بن عبد الجبار قصر الخلافة في مساء ذلك اليوم بعد أن تمت السيطرة على قرطبة، ودخل إلى مجلس الخلافة ووجد هشام المؤيد يقف يائسًا مذلولاً، فجلس على عرش الخلافة، وحوله رجاله، فقال:

- يا هشام ستعلن خلع نفسك بمحضر من العلماء والفقهاء، كفاك ضعفًا وخذلانًا لبني أمية، ثلاثة وثلاثون عامًا، يا (محمد بن المغيرة) أنت ابن عمنا وقد بذلت جهدًا عظيمًا، وقد عينتك صاحب الشرطة.

فقال محمد بن المغيرة مذعنًا:

- أنا طوع أمير المؤمنين وخادمه.

- يا (عبد الجبار بن المغيرة)، عينتك حاجبًا لي.

- نحن خدم أمير المؤمنين.

- وقد عينت (سليمان بن هشام) ولي عهدي، والآن اصرفا العامة، ولتسكن المدينة، أما أنت يا هشام فقبحك الله من رجلٍ أبله أحمق أخرق، يا زير النساء، ألا تستحي من تضييع ملك أجدادك عبثًا؟ لعبة بين يدي العامريين وانظر إلى حالك، كم أنت بائسٌ تعس، قضيت عمرك في المذلة والمهانة، كصبي حبس عنه الطعام، أنت أيها المغفل الذليل، هكذا عشت وهكذا ستموت، أمثالك لا يستحقون أن يعيشوا صبيانًا عاملين في سوق البزازين فضلاً عن الخلافة والإمارة.

كان يريد أن يجيبه، أن يصرخ به، ويقول له: لم أعِش كما يعيش الناس، بل عشت كجوهر ثمين، الكل يبغي الفوز به ليَستفيد منه لا ليفيده، كان كطائر لا يستطيع التحليق، ماذا يصنع وهو غير قادر أن ينبس بكلمة ولاً ردّ إهاناته المتتابعة، ولكن أنى له ذلك؟ ومن أين يستمد الشجاعة في الرد؟ الناس تذله وتقول له: أبوك وجدك والأمويون، ولكن لماذا ينسى الناس أنه لم يعش مع أبيه من العمر إلا أقله، وأنه رأى أبا عامر في صباه أكثر مما رأى أباه؟

وسيق إلى السجن وأطبق عليه وأمسى أسيرًا.

واتجهت جموع الثوار إلى الزاهرة وهجموا عليها ولكن لم يستطيعوا اقتحامها.

أنا هشام المؤيد بالله بن الحكم، بُويعت بالخلافة بعد موت أبي المستنصر بالله الحكم من عام ست وستين وثلاثمئة، ليكتب عليَّ منذ ذلك التاريخ البؤس وكلّ آيات الشقاء، ها أنا ذا بعد ثلاثة وثلاثين عامًا مقيدًا بهذه الأغلال أساق إلى مجلس الخلافة لأعلنَ تنازلي وخلع نفسي لهذا التافه الخسيس محمد بن هشام، أليس من المحزن أن تأول دولة أجدادي العظيمة إلى رجل فاسق زنديق مثل هذا؟

لم تنقض الناس على ملك بني عامر إلا لظلمهم وطمعهم ولكن هل يعلمون ما سيفعله هذا بملك صقر قريش الذي يباهون به؟ ها هم الفقهاء الذين جمعهم ووجوههم كالحة متهالكة تكاد تنطق كل جارحة من جوارحهم بخيانتهم، كيف تبقى الدولة وفقهاؤها يذعنون للفاسق ويسلمونه للدولة؟ ذلك لأنه واجه استبداد العامريين، فمن سيواجه استبداده هو؟ أنا سأكون في طيات الأرض عندما يحكم هو،

ولكن يقال أن الميت يستفهم من القادمين الجدد عن دنياه، فسأبقى في قبري أنتظر ما سيفعله، وستندمون ولات حين مناص يا أهل قرطبة على ما فرطتم به في جنبي.

وتمت البيعة في ذلك اليوم لمحمد بن هشام، ولقب نفسه المهدي، وأول ما فعله بعد أن تمت له البيعة أن قال لحاجبه: يا عبد الجبار سر على رأس الجيش الجديد واذهب إلى الزاهرة واقتحمها وانهب أموالها، وخرب آثارها، واجعلها رسمًا دارسًا متهدمًا متآكلاً، فأنت الذي ستهدمها وتوهن جسمها وتعدمها.

وخرج عبد الجبار بن المغيرة على رأس الجيش الكثيف الغفير من العامة نحو الزاهرة، يتقدمهم رأس عبد الله بن أبي عامر معلقًا بالرماح، فوصلها، وكان قصر عبد الملك المظفر خارج أسوار القصر وفيه أهله والذلفاء، فأمر عبد الجبار باقتحامه ونهبه، فهجموا كأوغاد تافهين تواقين للسرقة وقد حُبست عنهم دهرًا، فصرخت بهم الذلفاء: أنا الذي مولت سيدكم وجعلته يقوم بثورته.

ولكن صوتها ضاع عبثًا وسط نهم اللصوص المتعطشين للسرقة بعد أن تعفنت أجسادهم في سجن ولدها وزوجها.

وعلم حراس الزاهرة أن المقاومة لن تجدي نفعًا، فطلبوا أمانًا كي يسلموها، فكتب إليهم المهدي بالأمان المنشود.

واقتُحمت الزاهرة من قبل الجموع الغفيرة، فبدت كالذئاب الجائعة وقد أفلتت على فريستها، تدمر كلّ شيء وتسرق كلّ شيء، فنهبت المتاع والنفائس الثمينة والجواهر الأثيرة مما لا يوصف، حتى الزهور التي تغزل بها ابن دراج، دخل فوجدوها قد كمل بهاؤها ووصلت إلى منتهى الجمال، فنظر إلى بساتينها فوجدها فتانةً تبعث في النفوس بهجةً، حتى إن صاعدًا قد قال فيها:

جمال تخال فيه جنود الماء رافلة

مستلئمات تريك الدرع واليلبا

تحفها من فنون الأيك زاهرة

قد أورقت فضة إذ أورقت ذهبا

بديعة الملك ما ينفك ناظرها

يتلو على السمع منها آية عجبا

لا يحسن الدهر أن ينشي لها مثلا

ولو تعنت فيها نفسه طلبا

فمضى الجمع وكأنه همج هامج يدمر كل شيء، ويأخذ كل ثمين نهبًا، هم لم ترَ عينهم شمسًا نقية، ولم يجلسوا على فرُش نظيفة، فكيف بهم وقد دخلوا مدينة ملوكية؟ ولكن سعد هذا الغوغاء كان بنهبها، وإذا بأحدهم يأتي مسرعًا ورائحته تزكم الأنوف ويرمي نفسه في بركة الماء تلك، والتي كان يجلس أمامها المنصور وقد قال شاعره وهو يتأمل المنصور في تلك المنية وتلك البركة:

لا يوم كاليوم في أيامك الأول

بالعامرية ذات الماء والظلل

هواؤها في جميع الدهر معتدل

طيبًا وإن حل فصلٌ غير معتدل

ما إن يبالي الذي يحتل ساحتها

بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل

فصار ملؤها وحلاً قذرًا وهم يعبثون به بهمج وسماجة، تلك الزاهرة يا أخي التي تأتي إليها الطغاة والكفرة مذلون مهانون، تلك التي تخرج منها رايات الفتح خفاقة يقودها المنصور العظيم والمظفر، هنا تحت هذه الشجرة قد تفيأ المنصور، هنا في هذا المجلس الذي يسرقه هذا الأشعث كان المنصور يبت في أمور هذه الدنيا ويقرر مصائرها.

وما إن استحوذ عبد الجبار على أموالها وكنوزها حتى أمر بهدم الزاهرة، وتخريب جمالها، وتركها رسمًا دارسًا، ولم يمر يومٌ حتى استبدل بالأنس وحشة وبالضياء ظلمة، وصارت خاوية على عروشها كأن لم تغنَ بالأمس.

وعند ظهر اليوم التالي انقشعت جموع الثائرين من الزاهرة وتركوها خرابًا بعد أن نهبوها، فأمست مشوهة موحشة المعالم، وأملاكها وأموالها مغانم، وهكذا أمست مدينة المنصور في ذلك اليوم مأوىً للكلاب السائبة، تلعب بها الريح يمنةً ويسرة ويصفع مجدها من اليمين قول الشاعر:

ديار عليها من بشاشة أهلها

بقايا تسر النفس أنسًا ومنظرا

ربوع كساها المزن من خلع الحيا

برودًا وحلاها من النور جوهرا

تسرك طورًا ثم تشجيك تارة

فترتاح تأنيسًا وتشجى تذكرا

ويصفعه من اليسار قول الله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

وهكذا انتهت دولة المنصور نهايةً حزينة كئيبة، ليكتب كُتَّاب الأخبار: ومن أعجب ما روي أنه من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فتحت قرطبة، وهدمت الزاهرة، وخلع خليفة وهو المؤيد، وولي خليفة وهو المهدي، وزالت دولة بني عامر العظيمة، وقتل وزيرهم عبد الله بن أبي عامر، وأقيمت جيوش من العامة، ونكب خلق من الوزراء، وولي الوزارة آخرون، وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين ولصوص وقتلة وهاربين وهم جند المهدي!



السِفر الخامس والأخير



(٤٢)

«والإمامُ العدلُ يا أميرَ المؤمنين لقلب بينَ الجوارحِ، تصلحُ الجوارحُ بصلاحِهِ، وتَفسُدُ بفسادِهِ»

كان من الصعب على قرطبة أن تنسى ذلك المشهد المخيف؛ مشهد رأس عبد الرحمن بن المنصور معلقًا على باب الزهراء! كان مشهد محمد بن أبي عامر وهو يترفع في المراتب يبعث في نفسك الطموح؛ ولكن رأس ولده المعلق يبعث في نفسك اليأس، من يرَه وجنود الدولة يركعون له مهطعين مقنعين يوحي لك بالخلود، ولكن رأسه المقطوع المعلق يوحي لك بالفناء، من يرَ استبدادهم يخال أن الملك نعمة، ومن يرَ رأسه يعلم أنه نقمة.

بعد أن علم عبد الرحمن بالانقلاب الذي حصل خلفه عاد متعجلاً، ولكن سرعان ما انفض جيشه من حوله وتركوه وحيدًا ليذهب ويلقى مصيره المحتوم.

ولم تطل أيام محمد بن هشام الذي لقب نفسه بـ (المهدي)، فبعد أن صعد على أكتاف العامة باعتباره بطلاً منقذًا من استبداد بني عامر؛ سرعان ما ظهر فسقه ومجونه بعد أن امتطى صهوة نزقه وطيشه، فبدأ الظلم والجور بعد قلة الحبور، وسرعان ما عاد السخط يملأ نفوسهم، فعبر شاعرهم عما تضمره نفوسهم ولم تعد تخشى إظهاره:

قد قام مهدينا ولكن

بملة الفسق والمجون

وشارك الناس في حريم

لولاه ما زال بالمصون

من كان من قبل ذا أجما

فاليوم قد صار ذا قرون

وتفرغ المهدي هذا لعبثه بالسلطة ولهوه، فنصب العداوة للبربر باعتبارهم يد العامريين التي كانوا يبطشون بها، وسرعان ما خلع ولي عهده وزج به في السجن مع عدد من كبار القرشيين الذين شك في ولائهم، فبدا طيشه مدمرًا، واستفراده بالسلطة عن طيش وصفاقة لا براعة وسياسة، وانتشرت أخبار فسقه وعبثه بين العامة تقول: أن غلامًا حيا المهدي في مجلس شرابه، فردّ عليه المهدي:

أهديت شبه قوامك المياس

غصنًا رطيبًا ناعمًا من آس

وكأنما يحكيك في حركاته

وكأنما تحكيه في الأنفاس

وأحاديث ابن هشام مع المخنثين مما تتعفف الألسن عن ذكره كثيرة، فقد انتشر بين العامة أن ابن هشام هذا قد غدا قوادًا لوطيًا، وهم لا يعلمون سيرته الأولى، فقد كان صعلوكًا من أراذل القوم، وتكبر المنصور عن الفتك بأبيه وبه لعلمه بجهالتهم وجبنهم، وكانت له سمعةٌ سيئة يعرفها رهطه، ولكن الناس لا تعلم.

وحدثت بعد ذلك عداوة ضارية بين البربر والعرب، فبعد مصرع ولي العهد خرج أبوه لقتال المهدي بالبربر، فهُزم، واجتمع البربر على ابنٍ أخيه سليمان بن الحكم ولقبوه بـ(المستعين)، ليدخل حربًا ضاريةً مع المهدي الذي جمع جيوشه واستعان بالنصارى، لتمضي الأندلس في صراع مرير حول الخلافة، وساء الحال، وصارت الناس تترحم على أيام بنّي عامر، وعلى استبدادهم القاتم، فأيامهم حالكة السواد، متهالكة، فقد تهاوى حصن الإسلام عندما استعان المهدي بالنصارى وتنازل عن حصونٍ وقلاع لهم.



(٤٣)

اطلب الموت توهب لك الحياة

قرطبة التي كانت حاضرة الدنيا، وقد استصغرت جنبها بغداد، ها هي قد خفتت منذ أن تولى أمرها الداعر الفاسق محمد المهدي، فعادت إلى الوراء قرونًا، وأضحت غابة ذئاب، والبقاء للأقوى، ولكن المهدي ترك لقرطبة عداوة البربر التي لن ترضى إلا بالدماء حتى يشفى غليلها، لتعود قرطبة مجدبة قاحلة مقفرة من خضرة الرحمة وورد العدل الشذية، التي كانت تزين شموخها البهي، بل عدمت الإنسانية فلم تعد تحس بها أو تسمع لها ركزًا، لم يعد أحدٌ يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، بل سب اسم النبي (صلى الله عليه وسلم) من يهودي علنًا في أسواق قرطبة فلم ينهروه أو يجيبوه! وساد الفساد بعد مقتل المهدي وتقديم رأسه لهشام المؤيد، والذي قتله هو الفتى واضح الذي أقنع المهدي أنه موالٍ له، وما إن سنحت الفرصة حتى انقض عليه وقتله انتقامًا لصحبه العامريين! وأعاد واضح هشام المؤيد إلى السلطة، ولكن قرطبة قد حاصرها البربر بقيادة سليمان المستعين، فأراد واضح الفرار فاجتمع مجموعة من أعوانه وقتلوه! لأنه حاول الفرار وتركهم وسط الجحيم.



اجتمع الفقهاء وكبار الدولة في قرطبة المحاصرة منذ شهور طويلة ودخلوا على هشام المؤيد.

فقال ابن ذكوان:

- يا أمير المؤمنين، قد أضنانا الجوع، ولم نعد نتحمل ما يحصل من ضيق العيش وشظفه، أهل قرطبة كلهم يعيشون على بركان من الخوف والرعب، يخرج أحدهم فلا يعود، وصرنا نموت جوعًا، فعلامَ التحصن؟ والموت آت لا محالة، يا مولاي سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنهً يقول (اطلب الموت توهب لك الحياة)، ولم يعد هناك حاجبٌ تتكل عليه، فلمَ نحن خائفون؟ لنقاتل، أعطنا الأمر، أو تنازل عن الخلافة لهم.

فقال هشام المؤيد بعد سكوتٍ طويل باستلام مخذول:

- ولكني لا أستطيع أن آمركم! أنا ضعيفٌ ذليلٌ، حقي أن أكون عبدًا يجلدني سيدي بالسوط إن قصرت لا أمير المؤمنين، الحاكم لهذه الأكوار والبلدان.

- لمَ تقول هذا يا أمير المؤمنين؟

فصرخ هشام صرخة الأسير وقد أصدر حكم إعدامه فلم يعد يبالي بشيء:

- وإن لم أكن هكذا فماذا أنا؟ قل لي يا قاضِ الجماعة! ألستُ إنسانًا حقيرًا أطلب الموت فيضن عليَّ، ويصِر أن أتجرع كأس البؤس إلى آخره، كفى، قد مللت من الصراعات، أنا عاجز (ثم صارخًا) عاجز.

ثم تقدم وسط الوزراء وقال بشجاعةٍ مخنوقةٍ بجبن الأيام:

- منذ أن توليت هذا الأمر وأنا مغلوبٌ على أمري، لا أملك منه شيئًا إلا التوقيع على ما قرره ابن أبي عامر وأمي، هكذا كل عهدي، ملكٌ مغتصب، وحياةٌ تعيسةٌ أحسد عليها وأراذل أهل قرطبة يعيشون أفضل مني.

ثم غلبه انهمار الدموع ولكنه حاول التغلب عليه بكلماته التي خرجت من الأعماق والتي يكررها دائمًا:

أَلَيسَ منَ العَجائب أنَّ مثلي

يَرَى ما قَلَّ مُمتَنعًا عَلَيه

وتُملَك باسمه الدُّنيا جميعًا

وما من ذاك شيءٌ في يَدَيه

ثم جثى على ركبتيه باكيًا، فأمر ابن ذكوان الكل بالخروج فخرجوا أجمعين.

فقال له هشام: افعلوا ما ترونه مناسبًا، فأنا لا أستحق أن أبتَّ بأمركم.



يا لله وللمسلمين، ذهبت قرطبة وأهلها في انحدار نحو الزوال السحيق، ولم يبرح من الناس جهلها، ما ذاك إلا لأن الشيطان يسعى لمحو الحق فينسيه ويجعله قاعًا صفصفًا، وهباءً تعبث به الريح، والباطل باقٍ منتشر، وعادت في قرطبة كل صفات الجاهلية المنبوذة، كالنياحة والتفاخر والطعن والتفضيل والكهانة والتشاؤم والتنابز

بالألقاب والحسد والطمع والجشع والكذب والفسق والفجور، حتى كأنهم لا يعرفون الدين، لم يعد سوق الوراقين عاجًّا بالطلاب والقراء فقد خوى، حتى المكتبة الأموية العظيمة التي بذل فيها الحكم بن عبد الرحمن الناصر أموالاً طائلة في جمع كتبها قد أقفرت من القراء، والناس في شغل من فتك البربر الذين لا يرضون إلا بالدماء.

(٤٤)

﴿وَيَستَبشِرُونَ بالّذينَ لَم يَلحَقُوا بِهِم مِن خَلفِهِم ألاّ خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنُونَ﴾

خرجَ ابن ذكوان وقد ترك هشام المؤيد ينشج نشجًا مشجيًا، فخرج يقطع حدائق الزهراء، فوقف أمامَ الأسد المذهب الذي تسيل الماء من فيه، فتأمل دقة الصناعة وعظمة العمارة، وقال لنفسه: إن استسلمنا لن يبقى حجرٌ على حجر إلا وسُوي بالأرض، وسيضيع هذا الملك كله، ولكن ما العمل؟ وقد اقتلعت هذه الأزهار الجميلة النضرة من قلوبنا، وأمست القلوب موحشة، فلا عتب على البنيان إذا أوحشت.

لم يكن هناك شيء بدل الاستسلام أو القتال حتى الموت، فمنذ تلك الحادثة التي حصلت منذ شهور عندما رأى أهل قرطبة بالقرب من أبوابها فرسانًا يتجولون، فأقبلوا عليهم، فعرفوا أنه ابن أخ كبير البربر، وكان شجاعًا باسلاً، فاجتمعوا عليه وقتلوه قتلةً وحشية، وقطَّعوا جسده، فما إن علم البربر بذاك حتى أعلنوا الهجوم الشامل عليها، فدمروا الأرباض وحرقوا البساتين التي تحيط بها، وقتلوا كل خارج منها أو مقبلٍ عليها، إلى أن خرج أهل قرطبة لقتالهم مرارًا محاولين تحطيم هذا الحصار المرهق، فمتى ينتهي الجحيم على أهل قرطبة؟ ومتى تعود أيامها الجميلة؟

وقف ابن ذكوان خطيبًا في أهل قرطبة كلهم أمام الجامع الكبير، فقال: يا قوم، لن ينسحب البربر من أمام قرطبة أبدًا، وإذا دخلوها لم تكفهم كلّ دمائكم، فلمَ الخوف وعيش الهوان والموت آت شاك أنيابه؟ «اطلبوا الموت توهب لكم الحياة» ها أنتم منذ أن تولّى المعتوه شنجول ومن بعده الفاسق محمد المهدي تعيشون في ذلة وخوف، فإلى متى؟ فاخرجوا وقاتلوهم يرحمكم الله، ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وهؤلاء البربر الفاسدون قد قتلوا ودمروا فقاتلوهم وكفاكم خنوعًا وخضوعًا وحبًا للدنيا وجُبنًا، وقد قال المولى ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾، وقال أيضًا ﴿لْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. اللّٰه أكبر حي، على الجهاد، اللّٰه أكبر.

وأخذ ابن ذكوان يجوب أزقة قرطبة وخلفه الجموع تجتمع مسلحين بما وجدوا من سلاح، حتى اجتمع في قرطبة من أهلها جيش غفير، كلهم من العامة، واستعدوا للخروج والقتال.

وسمع البربر بتكبيراتهم فعلموا أن لحظة المواجهة قد أعلنت والساعة المنتظرة قد بدأت، فساووا صفوفهم وكان معهم النصارى الذين وعدهم المستعين بإخلاء كل الحصون والأراضي التي فتحها المنصور وولده المظفر من قبل.

وخرج أهل قرطبة والتحمت السيوف، وهجم البربر وكأنهم وحوش غاب انطلقت نحو فريستها، وبدأ القتال، ومضى البربر بهم قتلاً وفتكًا، وأهل قرطبة لا خبرة لهم بالحرب وعامة جيش المنصور كان من البربر، فأنى لهم خبرة الحروب؟

كانت معركة أهل قرطبة خاسرة منذ أول لحظاتها، فصارت دماؤهم تسيل سيلاً، وتغير لون الأرض ليصبح أحمرًا. وخرج ابن ذكوان مع مجموعة من الفقهاء إلى معسكر البربر بعد المقتلة العظيمة وطلب منهم الأمان مقابل أن يسلمهم قرطبة!

فتشرطوا عليه شروطًا باهظة مقابل عهد الأمان، فوافق دون تردد! وفُتِحَت أبوابُ المدينة لهم؛ فانطلقوا نحوها كالوحوش المفترسة الجائعة، دخلوا أمواجًا وأفواجًا متموجة متدافعةً شاكين الأسلحةَ وأعينهم محمرة، في نفوسهم شهوة الانتقام المجنونة، وفي عقولهم فكرة الثأر لإخوانهم الملعونة، وقلوبهم قد خلت من الأيمان، وصارت كالحجر الصوان، لا تهتدي ولا تلين ولا يسقي صلدها إلا الدماء، قد خوى قلبهم من الرحمة، وتجرد منها، ونزلت الروح إلى القاع موحلةً في قذارتها، وناهمةً طعمها المقزز بتلذذ.

وأول ما دخلوا كان أمامهم صفٌ متراصف من الأهالي فهجموا عليهم كالمجانين، وما إن رأى الناس فوجهم المنطلق نحوهم كالسهم المسموم، والسيف القاطع المسلول، حتى هلعوا وفزعوا، وبدأ فرارهم وقد مُلئوا رعبًا، فتعثر بعضهم مع بعض وصار منهم تحت المداس، فداسوه، وكأنه يوم الحشر لم تعد تعرف الأمَة ربتها أو الوالدة ولدها، فطردهم البربر بالسيوف، وأخذوا يضربون كل من يظهر أمامهم بالسيف، وقد يعجبهم أن يقتلوه على مهل، فذاك رجلٌ قد ناهز الثمانين، مسكوه، فقالوا له: انزع ثيابك وابقَ عاريًا!

فقال لهم: يا ولدي أنا قاتلت مع غالب الناصري والمنصور العامري، ولم يستطع أكبر عدو لأمة الإسلام أن يمسني إلا بسيفه مدافعًا عن نفسه، فهل تأتي أنت ومجموعة من البرابرة الذين لا نعرف أصلهم فتأمرونني بهذا؟!

فغضب أحدهم، ومسكه من رقبته فذبحه كما يذبح الشاة، ولم يكتف إلا بسل بلعومه وإخراجه وهو يضحك، وبقيت الجموع تفر يمنة ويسرة وما هم بفارين من السيف مهما فعلوا، فذاك يركض هاربًا ويده مقطوعة مبتورة، وذاك يزحف آملاً بالنجاة، وفرغت شوارعها الكبيرة من الأحياء، ولم يبقَ بها سوى جثثٌ وأشلاءٌ متقطعة متراكمة، فانتشروا بالأزقة كالحمُر المستنفرة، وإذا بأحدهم يمشي بالأزقة يقتل كلّ من يراه، فسمع صوت طفل رضيع يصرخ، فبحث عن مصدر الصوت، فوجد امرأة مختبئة تحت ظل شجرة مركونة جنب بيت مهجور وقد فضحها طفلها الرضيع، كان دمعها ملكوم بالخوف، فانفرجت أسنانه عن بسمة ماكرة، وسار نحوها فوجد أسنانها تصطك خوفًا وهلعًا، فمسك ولدها بيد قوية لم تعرف الرحمة يومًا، ومسك رأسه بيده وجسده باليد الأخرى يريد فصلهما والأم تصرخ فلمًا عجز عن فصل الرأس عن الجسد؛ مسكه وضربه بالحائط ليتطاير رأسه ويتناثر، كملاك هادئ سكن لترتقي روحه إلى السماء خالية من دِنس الخطايا، فقدً غدت الأرض دنسًا موحلاً، فصرخت الأم صرخةً تشققت لها عنان السماء ولم يجبها أحد، وهكذا تُباد الرحمة بآثام الخطيئة، ولم يكتف بذلك، ولم يُمزق فؤاده المتحجر صراخ الأم على ولدها المتناثر ليَمسكها بقوته، ويعريها كما خُلقَت وهي تصرخ بجنون، فرمى عدته وبدأ بنزع ملابسه أمام الناس اَلتي لم تعد تهتم حتى بالنظر لهذه المشاهد، وما إن تم خلع ملابسه والمرأة عارية وتصرخ حتى قامت بسرعة خاطفة مصدرها العفاف وعدتها العرض؛ وأخذت سيفه وركضت نحو ردائها، ارتدته وهي تركض فظهر وحش آخر أمامها وذاك من خلفها فاستلت النصل وغرزته في قلبها لتسقط صريعةً قبل أن يُهتك شرفها!

وكأن القيامة قد قامت، فقد ذهلت كل مرضعة عمًّا رضعت، ووضعت كل ذات حمل حملها بعد أن بقر الوحوش بطونهن بالسيوف،

وترى الناس لا يعون شيئًا، ولا يسألون عن ولد أو قريب كلٌّ يريد النجاة من هذا الهول العظيم، ومُلئت شوارع قرطبة بالقتلى من الرجال المسفوحة، والنساء المغتصبة ثم المقتولة، والأطفال الراقدين وقد صعدت روحهم لمكان عالٍ باسم، كانوا أقمارًا ينيرون عتمة الظلم القاتمة، تظنهم يلقون عليكً التحية: ﴿وَيَستَبشِرُونَ بالّذينَ لَم يَلحَقُوا بِهِم مِن خَلفِهِم ألاّ خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنُونَ﴾، وتظن أجسادهم المخضبة بدماء الخلود تصب اللعنة على السفاكين الجلادين، لتعانق الأرض دماءهم ويفيح شذاها الطيب في سماوات الخلود.

ودخل الهمج الهامج إلى الزهراء فدمر ما وسعه التدمير ثم حرق المكتبة الأموية! وشبت النيران في أرجائها ليصعد دخانها إلى السماء في عليائها شاكيًا ظلم هذه القرية.

ودخل سليمان المستعين قرطبة ظافرًا باسمًا يمتع عينه بمشهد الدماء ويضحك بنصره الكاذب، هو لم ينتصر أو يظفر، بل خسر إنسانيته ونفسه التي باعها للشيطان في سبيل الملك، يسير في قرطبة فيرى البيوت الخربة، والجثث المكتظة وقد زُكِمَ المكان برائحة الدماء، فضجر من رائحة جريمته وانزعج، ولكنها لم تكن دماء مسفوكة تسيل، بل هي جداول رقراقة بين السهول، ودخل إلى قصر الخلافة، وقد انشرحت نفسه، ودخل إلى مجلس الحكم وهو جذل مسرور، فجلس على الكرسي وقد سعد نفسه ودخل في سكرة الملك ونشوة السلطان بملك الأندلس، ولم يفق من سكرته إلا على وقع الأقدام؛ وإذا بهشام المؤيد بينهم مصفدًا، فقال سليمان المستعين:

- هشام، يا فال السوء ومصدر الشر والبؤس، ألم تمت إلى الآن؟ قرطبة كلها جثث هامدة راكدة، وأنت متى تموت؟

فقال هشام دون اكتراث:

- {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}

- صحيح، ولكنك تأبى أن تموت، سقط ملوك وخلفاء تغير الزمان وأنت باقٍ هنا، ألم يأتِ منهم رجل فيفصل رأسك عن جسدك ويريح الخلق منك؟

فقال هشام بلهجة استفزازية:

- كن رجلاً أنت وافعلها.

فقال وقد استَشَاطَ عليه:

- وربك لأقتلنك شر قتلة، ولأصلبنك على الزهراء، لتكون عبرة لغيرك.

- افعلها.

- لمَ فعلت هذا؟ لم رفضت التنازل عن الخلافة؟ حتى بلغ الأمر إلى هذا الحد، هل تريد ملكًا؟ فلمَ لم تأخذه على مدار سبعة وثلاثين عامًا؟

فقال مستسلمًا:

- لأنه مغلوب عليَّ!

- ها قد اعترفت، وأنت المسؤول عن كل هذه الدماء.

فقال هشام ساخرًا سخرية اليائس:

- وأنت ماذا كنت تفعل؟

قام المستعين وتقدم نحوه، فقال له مرتجلاً:

علامَ تعانقُ الأضواءَ زورًا

وفجركَ كاذبٌ رغمَ الأذانِ

فلا تخدع زمانًا عشتَ فيه

وضيعًا تمتطي خيلَ الهوانِ

فمثلكَ ليس يقوى في نزالٍ

مع الأحرارِ يا عبدَ القيانِ[1]

خذوه، فغلوه في حديقة القصر، إلى أن يحين موعد قتله، سأتركك تتأمل ملك آبائك الذي أضعته على مدى تلك السنين، ولا تنسَ وأنت تشم رائحة الموتى والدماء أن تذكر الأبيات التي كان يتمثل بها جدك عندما بنى الزهراء:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم

مُلك محاه حوادث الأزمان

إنَّ البناء إذا تعاظم شأنه

أضحى يدل على عظيم الشان

فانظر وتفكر وتأمل لترى مدى العفن الذي تركته وكيف خنت أمانة أجدادك.

يقيدونه في حديقة القصر في منظر مذل له، يبقى جالسًا يبكي على عمره الضائع وقد اقترب من الخمسين وهو في ذلة ومهانة، فحاول أن يفكر لم قذفت به الأيام هنا؟

---

(١)الأبيات للشاعر الدكتور عبد الله السامرائي، وضعناها على لسان المستعين لغرض درامي.

وبقي يفكر ويقلب النظر، وسرعان ما تذكر قصة جده الناصر مع منذر بن سعيد، جلس بمجلسه الذي جعل سقفه ذهبًا وفضة، فقال الناصر مفاخرًا لوزرائه:

- هل رأيتم أو سمعتم ملكًا كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه؟

- لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك لأوحد في شأنك كله وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره.

فعلت ضحكات مولانا الناصر مجلجلةً بهجةً وسرورًا، وبينما هو مستمرٌ في سروره وجذله دخل منذر بن سعيد، وتابع عبد الرحمن سعده وفخره بسقف مجلسه المذهب، ولم يقطع فرحه إلا تغير وجه منذر، إذ سرعان ما اصفرَّ وجهه وعلاه كرب وقتر، وسرعان ما بدأ يذرف الدموع، فقال الناصر:

- ما بك يا قاضينا؟

فقال بلهجة تقطر حزنًا وكمدًا:

- والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضَّلك به على العالمين، حتى ينزلك منزل منازل الكافرين.

فهب أمير المؤمنين قائمًا وقام الحضور كلهم معه، وأمارات الغضب قد لاحت في وجهه، وقال ساخطًا ناقمًا عليه:

- ويحك يا بن سعيد! أمثلي يقال له هذا الكلام؟ إنما هذا قول حاقد لا ناقد، انظر ما تقول، وكيف أنزلني منزلتهم؟

فلم يقم منذر مع القائمين ولم تتغير لهجته، بل بقي قاعدًا والناصر ورهطه قائمين، فقال بنفس اللهجة السابقة:

- نعم، أليس الله تعالى يقول ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحدةً لَّجَعَلنا لِمَن يَكۡفُرُ بالرَّحمنِ لِبُيُوتهم سُقُفًا من فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيها يظهرونَ﴾.

فكانت الآية مطرقة توقظ الناصر من سباته وحلمه الشغفي بالعمارة والبنيان، فكانت الآية سكينة ووقار امتصت غضبه، وسرعان ما سالت دموعه خشيةً من الله وخوفًا، وتقدم ناحية منذر بخطى وئيدة، فقال له:

- جزاك الله يا قاض عنَّا وعن نفسك خيرًا وعن الدين والمسلمين أجلَّ جزائه، وكثرً في الناس من أمثالك، فالذي قلت هو الحق.

ثم عاد إلى مجلسه وهو يردد: أستغفر الله، أستغفر الله.

ثم أمر بإزالة الذهب والفضة.

لم يكن منذرًا يخاف الناصر، لأنه يعلم أن الناصر ملك ذو هيبة وسطوة ولكنه يخشع قلبه إذا أجزل له الوعظ، فلم يأبه أن يصدمه بحقيقة الدنيا إذا حلق في سماء العظمة واستوى على عرش الكبرياء، فذات يوم وقف أحد الشعراء في مجلس الناصر العامر الزاهر، وأنشده:

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن

مُضِيعًا وقد مكَّنت للدين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم والتقى

وبالزهرة والزهراء للملك والعليا

فطرب الناصر وابتهج، وقال للشاعر: لا فض الله فاك.

فلم يرق لمنذر بن سعيد هذا الغرور وهذا المديح، فقام مكان الشاعر مرتجلاً:

يا باني الزهراء مستغرقا

أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقا

لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر:

- إذا هبّ عليها نسيم التذكار والحنين، وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء اللّه.

فقال منذر بحزم ولهجته لا تخاف في اللّه لومة لائم:

- اللهم أشهد أني قد بثثت ما عندي ولم آل نُصحًا.

هل حان الذبول؟ هل أزف الأفول؟



ودخل محمد بن المستعين على أبيه مسرعًا، فقال:

- يا أبتاه مصيبة وقد حلت علينا!

- ماذا؟ مصيبة؟

- قد فعلها الأبله الأخرق بنا، هشام المؤيد.

- ما به؟

- وصلت أخبار، تقول أن والي سبتة علي بن حمود أخرج كتابًا يدعي أنه من هشام المؤيد وهذا الكتاب -كما يزعم- تعيينه وليًا للعهد! وأن عليًا هذا يجهز جيشًا للعبور إلى الجزيرة الخضراء، وأنه يطالب بالخلافة، ولا حق لنا بها!

فقام المستعين قائلاً:

- هشام الأخرق الأحمق، ألن ينتهي شرُّك؟ ءاتوني به!

وخرج الحرس إلى الحديقة ليجلبوا هشام، لكنهم لم يجدوه!

فدخل الحارس على المستعين نذيرًا وقائلاً: مولاي أمير المؤمنين، هشام المؤيد قد هرب!

فقام المستعين واستل سيفه وضرب الحارس ليسقط مضرجًا بدمه، وقال: كيف هرب؟ محمد أريد رأس هشام الآن، ولا تعد إلا وهو معك حيًا أو ميتًا.

(٤٥)

فاغدُ وودّعها وسر سالما

إن كنت أزمعت على البينِ

يتهادى بلا هدىً، خطواته مرتبكة ويده مرتعشة، هل حقًا أنه نجى من مخالب الموت؟ وأنه حر في شوارع قرطبة وما عليه إلا الهروب؟ لا يدري.

هو نفسه يسير في ليل قرطبة المخيف ولا يعلم هل سيطلع الصبح عليه؟ يقطع الظلمة الكثيفة وتغشاه فرحة النجاة من الموت المحقق، هل حقًا هو نفسه الحاكم لهذه البقاع لمدة تزيد عن الخمسة وثلاثين عامًا؟ ينظر إلى مخلفات عهده في ليلها الدامس، فتنقبض نفسه ويشعر أن شيئًا يعتصر في بطنه، إنه مات مرارًا وتكرارًا، وما زال إلى الآن يموت، يطيل التفكير في عهده الطويل فيرى الفساد الذي خلفه، أيام الحكم والناصر والخلفاء الذين من قبلهم لم تنطفئ أنوار قرطبة يومًا، ولم تمر محنة كهذه.

ولكن لمَ يرمي كلّ اللوم على نفسه؟ لم ينكر دور المنصور وأولاده واستيلاءهم على السلطة، والمهدي سيء الصيت الذي خلف هذه العداوة مع البربر، بل البربر هم، نعم، أليس هم من ارتكب هذه المجازر بهذه الطريقة البشعة؟ ولكن المسؤول الأول هو، وسيكتب كتاب الأخبار عنوان عريض كبير: (عهد هشام المؤيد بالله بن

الحكم) ثم يسردون بعد هذا العنوان أبشع تاريخ، ستشمئز نفوس القراء ويطووها طيًا دون اهتمام، وقد يصبون اللعنات، وقد يقارنون بينه وبين أبيه وجده، فيعلمون فداحة الخطبِ وعظم المصيبة.

ولكن أليس من السذاجة أن يفكر ما سيكتبه الإخباريون والمؤرخون ولا يفكر كيف سينجو من قرطبة وقد أضحت مدينة الموت، بل هي مدينة أشباح، مظلمة مقفرة، والدماء في كل مكان، والقتلى في كل ربض وزقاقٍ، ورائحتهم قد انتشرت فأضحى الجو عفنًا، وما زال القتلُ والفتك والسفك إلى الآن مستمر، وما زال الرعب مسيطرًا على كل أهل قرطبة الأحياء منهم، أما الأموات فلا كرامة لهم، بل باقون في الشوارع يسيرون بلا غاية وقد خلت الطرق من السابلة، إلا أصواتٌ للبعض من البربر الذين لم يكتفوا بعد ولم يُشبعوا غريزتهم الحيوانية بسفك الدم.

هذه قرطبة الرائعة الرائقة أم أرض الدم؟ الذي سال كسيلان الماء من أفواه الأسود في قصر الزاهرة.

ووصل إلى زقاق فارتعدت نفسه، واضطرب اضرابًا عنيفًا، هل يعقل أنه هو؟ هل تعيد الأقدار الكرة؟ لا يمكن هذا، ولكنه هو نفسه، ما زالت ذكراه مطبوعة فيه ومحفورة في مخيلته، وهل يستطيع أن ينسى معمر الوراق وهربه من القصر في ذلك اليوم؟ هنا وجد شُعب، ومن هنا أخذها مع هشام، هشام! حقًّا أين هو؟ لعله...!

ثم مشى في الطريق نفسه وهو حافظ له ويعرفه، البيت نفسه هناك، ضوء ضئيل خارج من أبوابه، اقترب أكثر ليجد رجلًا جالسًا عند الباب، لم يميزه، لعله معمر، واقترب منه، هو! نفس العينين ولكنها غائرة بتجاعيد الكهولة، وما إن رآها الرجل حتى ظن أنه قاتله من البربر، فتوجس منه فلما اقترب منه وصار جنبه، قال ببرود: هشام المؤيد!

فعاد لجلسته القلقة، وجلس هشام المؤيد جنبه.

فقال هشام الوراق بلهجةٍ تنم عن شرخ عميق في أعماق نفسه:

- اعذرني يا أمير المؤمنين، فأنا غير قادر على خدمتك أو استضافتك، فقد كبرت، وأنت أيضًا يا أمير المؤمنين، سلبت منك الخلافة مرارًا، وتعود لك، وتارة أخرى يعلنون موتك، المُلك يا مولاي كذبة كبيرة.

فتنفس هشام المؤيد تنفس المغشي عليه إذا عاد وعيه، وقال:

- الملك كذبة كبيرة! الآن حتى أدركت هذا يا هشام؟ وأنا أعرف ذلك منذ أول يوم ولجت الكرسي، في ذلك اليوم البعيد، عندما جلست جنب أبي في الزهراء كي يبايعوني بولاية العهد، انحنت جباه الكبراء لتقبل يدي، عندها عرفت أشياء كثيرة عنهم، قد يكون إلهامًا أو فراسة أو سمه ما شئت، في تلك اللحظة شعرت أني أحمل مصباحًا أقتحم به السرائر، سريرة كلّ من انحنى لي، وأطوف به وأعرف خباياه وخفاياه، أدرك طمع الكثير فيَّ، وأدرك زيف القناع الذي كانوا يرتدونه دون الحاجة إلى أن يفصحوا عما تضمره تلك النفوس من شر مستطير، كان قناع الطاعة لولي الأمر قناعًا زائفًا مفضوحًا، ظاهره طاعة الله من طاعة ولي الأمر وباطنه يحكمه القوة، فكلما كان الملك قويًا حصيفًا ازدادت تلك الأقنعة الزائفة ظهورًا، حتى إذا مات الملك القوي ظهرت تلك الوجوه عارية كاشفة عن دفائن نفوسها، مات أبي فظهر عمي المغيرة وتدبيره مع الصقالبة ومحاولة قلب نظام الحكم، والمصحفي وفشله في الإدارة و(ثم بشيء من الحسرة والألم) وأبو عامر وانقلابه العظيم على الخلافة، هي كذبة كبيرة نتصارع عليها.

ثم مال على هشام الوراق وقال بصوت خفيض:

- هل تريد أن أصدقك القول يا صديقي القديم والوحيد؟

- ....

- أنت لا ترد، ولكني سأقولها، لو علمت أنها ستكلفني هذا لتنازلت عنها من أول يوم وُليتها، ولهربت من الزهراء كطائر فُتِحَ له القفص وأدرك أن معنى الطير في التحليق، لمضيت في فلاة اللّه ولا أعود، بل أبني حياةً ثانيةً، ولو استطعت أن أبدل أهلي لبدلتهم من ذلك الوقت المبكر.

فالتفت إليه هشام الوراق قائلاً:

- تبدل صبح؟

صبح! كم نسيت هذا الاسم، اسم أمي.

- صبح، أو هي اسمها بالأصل البشكنجي (أول الصبح)، هل تصدق؟ مذ وعيت على هذه الدنيا وأنا أخجل منها! وكلما ذكرها أحد أمامي أشعر بالعار، وأشعر أن الذي يذكرها لا يترحم عليها أو حبًا بذكرها، إنما يذكرها ليوخز قلبي بنصل الذكرى القاتلة، جعلتني أمي أعيش مع ذكراها متألمًا، هي لم تترك لي شيئًا حسنًا، بل أقبح القبح وأشنعه، وإن كانت بريئة مما رُميت به، ولكنه بقي معي كل هذا العمر، وإن نسوا أمي فهل سينسون قول الشاعر:

اقتَربَ الوَعدُ وحانَ الهَلاك

وكُلُّ ما تَكرَهُه قَد أتاك

خَليفة يلعبُ في مكتب

وأمه حُبلَى وقاض يناك

قل لي يا هشام باللّه عليك، كيف ستعيشه؟ أنا لا أتألم من كلام الناس بقدر الألم الناتج عن عذاب النفس الذي ينطلق كأنه السيل الهدَّار.

- يا أمير المؤمنين لا تضيق ما اتسع وعظم، لا تضيق نفسك وتجعلها فريسة الظنون وشطحات الهوى.

- ليتني أستطيع.

- أنت لم تستطع ترك ظنونك، ولا حكم الرعية، ولا أن تحفظ من أحببت، فباللّه عليك يا أمير المؤمنين ما الذي أحسنت صنعه طيلة تضلعك بالملك؟ لا شيء، لا شيء!

فهدأ هشام المؤيد، وشعر أن طائف الموت يطوف حوله والذي لم يغادر قرطبة منذ أشهر حصادًا وأخذًا، فقال وقد خرج إلى عالم الصبا واللعب البريء، والخروج خفية من الزهراء:

- هل تذكر ذلك اليوم؟ الذي خرجنا فيه معًا نلعب ونمرح جذلين مسرورين في أسواق قرطبة، يومها كنت أنت تركض بخفة ورشاقة، وأنا ثقيل الحركة، فسببت مشكلة لأبيك مع أحد الباعة، هل تذكره؟

- وأذكر يوم عودتك إلى الزهراء وبعدها اختفى أبي!

- لا تزد عذابي أكثر يا هشام.

- وأنا لم ينقص من عذابي شيء منذ أن رحل أبي!

- لا تعذبني يا هشام.

- والجرح اليوم تجدد يا أمير المؤمنين، ثلاثون عامًا منذ أن فقدت أبي، وها هو ذا يتكرر.

- وكيف ذاك؟

فرفع رأسه وانهمرت دموعه وقال بصوت متشنج:

- ابني يا مولاي، لم يعد إلى الآن، محمد ابني وفلذة كبدي، لا أعلم أينٍ هو، بحثت بين أكوام الجثث لعلي أجد له أثرًا أو جثة ولكن عبثًا، أقصى ما أطلبه هو قبر له، أزوره بين الفينة والأخرى، فهل هذا صعب؟ صعب أن أجد مثوى ولدي؟

فارتبك هشام المؤيد وتلعثم، فقال هشام الوراق صارخًا:

- كله منك ومن أمثالك، تتصارعون حولها وهي كذبة، واللّه كذبة حقيرة وضيعة، قل لي يا مولاي، يا حام حمى المسلمين، أهذه قرطبة التي نعرفها؟ في أي زمن نحن َحتى تبقر بطون الحوامل وتغتصب النساء وتقتل الشيوخ والأطفال بلا هوادة؟ قرطبة ذات الأزهار الناضرة، والثمار اليانعة، والأطيار المغردة، والأنهار الدافقة، والصبح السافر الرائع، والأصيل الناعم، والبدر الساهر، والليل الساجي، كله غدا من الماضي الغابر، وبقي ليلنا دامس، وصبحنا بائس، وبدرنا غائب، وأنهارنا قذرة مختلطة بالدماء، من المسؤول؟ يا سيدي؟ ومن يعيد لي ولدي الذي لم أعثر على جثته في هذا الكم العظيم؟ أليس أنت؟ وُلِّيت أمرنا وضيعتنا، يا أمير المؤمنين حريٌّ بك أن تكون عادلاً أو لا تكون أصلاً، وهل تعرف ما الإمام العادل؟ الإمامُ العدلُ يا أميرَ المؤمنين كالقلب بينَ الجوارح، تصلحُ الجوارحُ بصلاحه، وتَفسُدُ بفساده. فإذاَ كنت أنت أَصل الفساد والضعف والمذلَةَ؟ وقس عليها بقَيَة دولتك، ارحل من هنا يا هشام، وارحم الأمة الأَندلسية بذهابك، ارحل بهدوء، وكفانا قتل، نفعل كل ما تفعله الوحوش الضارية في الغاب وما لا تفعله، ارحل بهدوء.

يريد أن يقول له: ألا ذنب لي، المنصور وولده والمهدي، ولكنه تقبل وجهه.

ثم قام هشام المؤيد وهو يداري دموعه، ثم سار هشام يقطع الظلمة الدامسة الشبيهة بقلبه اليائس، وكان هشام الوراق يتابع ببصره ذهاب هشام المؤيد والذي لم يره بعده، وكان قلبه ينطق بقول الشاعر:

وداعًا لن أراك ولن تراني

سيفنى في رحيلك ما أعاني

وبينما هو يسير سمع صوتًا ضئيلاً يتهادى إلى سمعه يشبه النواح:

ابك على قرطبة الزينِ

فقد دَهَتها نظرةُ العينِ

أنظرها الدهر بأسلافه

ثم تقاضى جملة الدَّينِ

كانت على الغاية من حُسنها

وعيشها المستعذب اللينِ

فانعكس الأمر فما إن ترى

بها سرورًا بين اثنينِ

فاغدُ وودّعها وسر سالمًا

إن كنت أزمعت على البينِ



(٤٦)

ولكن أين العجب في حكايتي ومثله كان معي وطامع في ملكي؟

(قرطبة أول الزمان وآخره، المبتدى والمنتهى، حاضرة الدنيا ومجمع الأضداد، الساحة والمعترك، قاعدة الخلفاء والأمراء والعلماء، وحانة الفساق والزعار، سلم الصعود إلى الذروة ومنحدر السقوط إلى الجحيم، النار والنعيم قرطبة.)

أنا لم أرَ إلا بؤسها وجحيمها ومنحدرها القابع في الذل، ما معنى أن تعيش ملكًا تهابك الدنيا وأنت لا تملك شيئًا؟ تهابك الأعداء وتعظمك الرعية وأنت لا شيء، لست إلا اسمًا عابرًا يذكرني الخطيب في جمعته ويدعو لي وهو يعلم أني لا شيء، وليته بقي على هذا الحد بل ابن أبي عامر حتى في هذه، رغبته وطموحه لا يقفان عند هذا، بل تجاوز أكثر من ذلك بكثير، ألم يكفه سلب ملكي، وحكم الدنيا باسمي، وتركي في قصري أسيرًا مع أهلي وخدمي؟

الرغبة، الطموح، الاستبداد، الانفراد بالملك، كلها غاياته التي خطط لها وقضى عمره في خدمتها، وروض كل الوسائل.

ولكن أين ملكه الذي شيده بسلب ملكي؟ قد انهار كصرح وتهاوى كأن لم يكن، حتى مدينته وحاضرة ملكه التي قضى دهرًا في بنائها وتشييدها وأنفق الأموال العظيمة قد خربت سريعًا، لعمري هل اعتقد يومًا أن ملكه سينهار هكذا؟ لو أن الأماني تتحقق لما اخترت إلا أمنية

واحدة: أن ألقاه، أن يخرج من قبره فيتمثل لي بشرًا سويًا، وأسأله: ماذا نفعك ملكك في قبرك؟ وهل أغنى عنك شيئًا؟ هل دفع عنك عذابًا أو قرب جنة؟ ثم ما شعور الإنسان عندما يذهب الناس ويتركوه وحيدًا في قبره؟ كيف أجبت عن سؤال الملكين وأنت قضيت عمرك في طلب الملك! تسلطت عليَّ أنا، لمَ أنا من دون الناس أجمعين؟ لمَ قضت الأقدار أن أعيش عمري كله أسيرًا في قصرٍ كانت الدنيا تخضع له؟

أَلَيسَ مِنَ العَجائب أنَّ مثلي

يَرَى ما قَلَّ مُمتَنعًا عَلَيه

وتُملَك باسمه الدُّنيا جميعًا

وما من ذاك شيءٌ في يَدَيه

ولكن أين العجب في حكايتي ومثله كان معي وطامع في ملكي؟ من حق الناس أن يعجبوا، ومن حق التاريخ أن يسجلني ملكًا ذليلاً منخدعًا، لم يحافظ على ملك أبيه وأجداده، ولكن إذا عرفوا صبره وحنكته واستبداده وذكاءه وحيلته في بلوغ غايته، وعرفوا ضعفي وسذاجتي وصغري لأدركوا كيف ضاع ملكي ولعذروني.

آه، منذ طفولتي وتهواني أفئدة الطامعين الحالمين بالملك، ولكن كلهم تضاءلوا أمامه وانكسروا وتبددوا، حتى أمي، أمي يا وجعًا لم أنسَه، كيف انخدعت به أيضًا؟ أهي نزوة الشباب التي أنستك ملك ولدك الذي حاولت فيما بعد أن تستردیه ولكن عبثًا! وهل يعود الزجاج بعد أن تكسرا؟ أنتِ من مكّنه وأدخله إليّ، بقيتِ تعيشين في أحاديث الحب ولهوه وسحرِه، ولم تدركي أن هذ الحبيبَ الجميل الظريف سيفعل ما فعله، حاولت أن تصلحي ما أفسده شبابك ونزقك، ولكن هيهات أن نصلح في الكهولة ما أفسدناه في طر الشباب وعنفوانه،

كانت محاولاتك كزورق صغير حاول أن يسير في بحر متلاطم الأمواج، وهكذا سقطتِ ضحية شبابك.

من حق النساء أن يعشقن، ولكن ليس من مثلك، أنت من مكنتِه مني، وما هذه الثورة الهوجاء إلا منكما، ألا تسمعين؟

أين هو وأين عظمته؟ أين أولاده؟ فليأتِ ويسمع أصوات الجنود الذين صنعهم كيف يقتلون، وكيف اقتحموا قرطبة وعاثوا فيها فسادًا، ها هم البربر يثأرون ويقتلون أهل قرطبة ونسوا الإسلام وعهوده، أستمع إلى أصواتهم الانتقامية وهم يسفكون بلا خوف أو وجل، هكذا هي ذمة الإسلام بيد رجالك الذين اصطنعتهم؟ ويبحثون عني بكل مكان وكأن الفتن التي عصفت بهم لم يرتكبها سواي! هل نسوا أنك جعلتني صورةً بلا ملك، وخليفةً بلا معنى؟ أم أن السنوات العشر أنستهم؟ انظر إلى الهلاك كيف ساد قرطبة، إلى الجثث المتعفنة في أزقتها وإلى الأسواق المنهوبة والقصور الخربة، وانظر إلى المعارك المستمرة ليل نهار، حتى المكتبة لم تسلم.

بينما هو سائر يحدث نفسه ويمشي بلا جهة، ودون أن يحاول أن يستر نفسه من غضب الثوار البرابرة ولا من جند الخليفة الجديد، الذي يرى أن أول فريضة ليثبت ملكه هو القضاء على الخليفة السابق، ولكنه يسير بلا وعي أو إدراك أو هدى، يمشي في شوارع قرطبة وأسواقها وأربضتها وينظر إلى القتل والفتك بأهل قرطبة وهو يتحسر ويتخيل مصيره الذي سيؤول إلى هذا الحال أو أشد سوءًا، يتخيل أن أهل قرطبة إذا أسفر الصبح فسيجدون رأسه معلقًا على باب الزهراء، وأن جسده سيتعفن وربما تقطع ولن ينزل رأسه إلا بثورة أخرى كعادة السابقين.

كان قد صار فوق القنطرة، فنظر إلى ملكه المسلوب وإلى نهر الوادي الكبير وإلى الجامع الكبير، وكان الليل قد انقلب نهارًا بفعل

النيران المشتعلة في كل مكان والغوغاء الماضي في القتل والفتك والسفك، وبينما هو يعاين الخراب ويتحسر على ملكه المنهوب وينتظر أجله المحتوم؛ إذا بجند أقبلوا من جهة باب الجامع، ورأى في عينهم البربرية شرًا لامعًا متعطشًا لسفكه، وعلم أنهم عرفوه، ثم استدار إلى الجهة الأخرى هاربًا، وإذا بجند المستعين تُقبل نحوه وعلى رأسهم ولده، فوقف حائرًا لا يعرف ما يصنع كسائر مدة حكمه، وإذا بابن الخليفة الجديد يصيبه بسهم في كتفه بلا هوادة، وإذا بالجنود تهجم عليه، فنظر إليهم وكتفه مصَابٌ يسيل منه الدم، فأقدم على فعلةٍ جريئة مجنونة، وقال لنفسه: كن شجاعًا ولو لمرة واحدة.

وبينما هو يهم بفعلته تراءت له الحياة كطيف عابر بين الموت والحياة، بين البرابرة وجند ابن الخليفة الراكضين نحوه وبين ماضيه الغابر، نظر إلى النهر فخيل إليه أقمار بني أمية قد تجسدوا على النهر مصطفِّين، وينظرون إليه وإلى ملكهم الذي ضاع بين ضعفه وصراعاته، عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك وأبنائه، وعمر بن عبد العزيز، وصقر قريش، وعبد الرحمن الناصر، والحكم، متتجسدون على النهر.

إني قادمٌ إليكم.

إني آتٍ معكم.

كن شجاعًا ولو لمرة!

سأكون شجاعًا.

يقتربون مني، أهمُّ بالانطلاق، جسدي يكاد يكون مشلولاً، لا سأنطلق، انطلق!

وبسرعة خاطفة يحمل نفسه راكضًا ويقفز من القنيطرة إلى النهر الكبيرِ، تتداخَل الصور، تمر الحياة في رأسه سريعًا، أبو عامر

يأخذه إلى المعلم، معمر الوراق، أمه، شُعب، وكلهم مجتمعون وبصور شتى، فأبو عامر هذا يظهر وهو شاب نضر يتوقد شبابًا وعزمًا، وتارةً يراه وهو الشيخ العجوز الذي أرعب العالم، وذاك الحكم ينظر إليه نظرة عتاب.

يبدأ يجدف بيده، يحاول التمسك بالحياة؛ ولكنه سرعان ما تذكر وهو يصارع الموج المتمسك به، المتوسل به ليطأ جوفه؛ قرطبة وبؤسها وصراعاتها المتأججة، عندها تجلى النهر الكبير على أنه صديقٌ حميمٌ وديع، بل أصدق من كل الذين لقيهم، النهر الكبير سيكون عادلا، سيبتلعه وليقذفه لحياة أخرى، إنه الموت، تعال أيها العادل، أنت لا تستبد بالبشر وتفرد كمًا هم عندما يتولون، بل عادلٌ كشعرة معاوية، فيا لعدالة الموت المطلقة!

ويأتي ابن المستعين والجند وينظرون إلى مكان سقوطه، فلا يرون أثرًا، فقد اختطفه الماء سريعًا وتشبث به.

فيقول: مات حتف أنفه!



(٥٠)

كحلم بعيد سحيق؛ أقرب ما يكون للأسطورة تحلق؛ كلمات الحسن البصري التي نصح بها عمر بن عبد العزيز والتي كان خلفاء بني أمية يدعون التحلي بها في سماء قرطبة القرمزي، تقف كسحابة صيف زاخرة، فتنظر إلى الصراع العنيف:

«والإمامُ العدلُ يا أميرَ المؤمنين كالقلبِ بينَ الجوارحِ، تصلحُ الجوارحُ بصلاحِهِ، وتَفسُدُ بفسادِهِ»

فتضن على قرطبة بغيثها وتمضي تاركة صراعها على أشده.

وعلى رغم من الصراع المحتدم والمتلاطم كأمواج نهرها الكبير؛ فقد بقيت قرطبة مدينة الزهد والورع والعلم والتصوف، وكذلك مدينة اللهو والمجون وإطلاق العنان للذات، حتى لا تكاد تسير في زقاق من أزقتها إلا وتسمع صوت القرآن صداحًا في أرجائه، وكذلك الغناء ورقص القيان مهتدين بقول شاعرهم:

لا تنم واغتنم ملذَّةَ يومٍ

إنَّ تحتَ الترابِ نومًا طويلًا

(انتهت)

ملحق

حوادث لم يسعها السرد، ولكن وسعها التاريخ

ولم يعرف أحدٌ من أهل قرطبة مصير هشام المؤيد على وجه التحديد.

قيل أنه مات في تلك الليلة، وقيل أنه نجى بأعجوبة ورحل إلى المشرق حاجًا، ثم عمل فلاحًا في الحجاز إلى أن مات، وقيل أنه هاجر إلى الثغر الأدنى وعاش في قريةٍ متخفيًّا.

أظهر علي بن حمود الحسني والي سبتة كتابًا يزعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه فيه ولاية عهده، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر والمستعين، وكان هشام قد أرسل إلى سبتة هذا الكتاب لمّا علم بنهايته المحتومة، ووجد علي بن حمود أنصارًا منهم: والي مالقة، وسرعان ما عبر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، وبويع علي بن حمود بولاية العهد في حالة ظهور هشام حيًا.

وبعد سلسلةٍ من المعارك الشديدة، دخل قرطبة بعد أن انتصر على جيش المستعين، وكان يظن أن هشام المؤيد قد أخفاه المستعين ولم يقتله، ولما علم أن هشام قد قُتِلَ؛ أتى بالمستعين وذويه وقتلهم بيده انتقامًا وثأرًا لهشام المؤيد، وبويع بالخلافة في القرطبة، ولكن أيامه لم تدم طويلاً؛ إذ خاض حروبًا مع بني أمية، وقتله فتيان القصر الموالين لبني أمية في الحمام، وبقيت قرطبة في صراع مرير بعد مقتل هشام المؤيد، وتحولت الأندلس بعدها إلى معترك للفوضى والتمزق، وبقيت على هذا الحال ولم ينتهِ الربع الأول من القرن الخامس الهجري حتى لم تبقَ رايةٌ موحدة تجمعهم، بل أعلن كل سيد قوم دولة ونصب نفسه ملكًا، ليبدأ عهد (ملوك الطوائف).

لم تظهر شُعب ولم يُعرف مصيرها، قيل أنها حملت في أواخر أيام هشام، ولكن بقي مصيرها مجهولاً بعد ذلك اليوم.

الفتيان العامريون بقوا يأملون بعودة المُلك لفتىً منهم، ولما بدأ عهد ملوك الطوائف استقر كل واحد بما تحت يديه من أرض وأعلن نفسه ملكاً، إلى أن جاء يوسف بن تاشفين وقضى عليهم كما قضى على سائر ملوك الطوائف.



عاشت الدلفاء مع عائلة ابنها عبد الملك عيشةً ملؤها الشظف، وبقيت تتحسر على أيام زوجها وولدها، ولكنها اطمأَنت بعد أن قُتل شنجول والمهدي من بعد، وبقيت على حلم العودة إلى القصور إلى أن ماتت.

في بداية عهد ملوك الطوائف نصَّب ابن جهور نفسه حاكمًا لقرطبة.

أظهر ابن عباد (أصحاب اشبيلية) رجلاً ادَّعوا أنه (هشام المؤيد) وطلب البيعة له، وأطاعته بعض المدن ومنها قرطبة، وسرعان ما تبين أنها كذبة اخترعها ابن عباد للاستيلاء على الأندلس.

توفي ابن جهور سنة ٥٣٤هـ وخلفه ولده أبو الوليد محمد، ولكن أبا الولد آثر الراحة، وسلم الدولة لولده عبد الملك، وكان هذا الأخير نزقًا سيء السيرة، فمسك زمام قرطبة وزيره ابن السقاء، فضبط الأمور وأعاد الأمن، ولكن المعتضد بن عباد دس للوزير وأوقع بينه وبين عبد الملك إلى أن فتك عبد الملك بوزيره وقتله سنة ٥٥٤هـ.



عمت الفوضى في قرطبة عندما قسم أبو الوليد سلطة قرطبة بين يديه ولديه عبد الملك وشقيقه، فتغلب عبد الملك على شقيقه وسجنه.

وسط تلك الفوضى جهز المأمون بن ذي النون صاحب (طليطلة) جيشه وهجم على قرطبة، فاستنجد عبد الملك بالمعتمد بن عباد، وأرسل المعتمد جيشًا ردَّ جيش ابن ذي النون، ولكن المعتمد دبر خديعة مسبقة، إذ هجم على قرطبة وقضى على ملك بني جهور في قرطبة، وسجن عبد الملك وأخاه في اشبيلية، ودخلت قرطبة تحت حكم المعتمد بن عباد.



حصل أمير المرابطين (يوسف بن تاشفين) على تأييد من العلماء للقضاء على ملوك الطوائف -ومنهم الغزالي- فحاربوه؛ واقتحم قرطبة وكان واليها ابن المعتمد بن عباد فقتل، وكان ذلك عام ٤٨٤هـ، عندها دخلت قرطبة تحت سلطة المرابطين هي وسائر الأندلس.

لم تطل أيام المرابطين، إذ خرج ابن تومرت وجماعة الموحدين، وأعلنت دولتهم ٥٤١هـ، وسيطروا من ذلك العام على قرطبة.



بقيت قرطبة إلى عام ٦٣٣هـ، حيث سقطت بين يدي إسبانيا النصرانية في الثالث والعشرين من شهر شوال من ذلك العام بعد

حصار لمدة شهور، وسقط ثلاثة آلاف مسجد، تحوَّل مسجدها الكبير إلى كنيسة في نفس اليوم، وهكذا مالت شمسها نحو الغروب المدوي بعد أن بقيت حاضرة الإسلام لأكثر من خمسمئة سنة.



ولئن كانت قرطبة مهوى أفئدة الطغاة فكذلك كانت مصرع الطغيان وضريحه، لتبقى آيةً تحكي للزمان عن قصص المستبدين والظالمين، وما أكثرهم!

